رسائل التزكية والترقية

(٥)

مواهب النفس المرضية

أربعون رسالة في حوافز السلوك ومكاسبه

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ذكر ما ورد في النصوص المقدسة من مواهب الله تعالى للصالحين الذين جاهدوا نفوسهم في ذات الله إلى أن استقامت لهم، وصلحت، وصارت محلا لكل أنواع الكرامة والفضل.

وذلك لتحفيز السائرين والسالكين إلى الله بما يعينهم على المجاهدات التي يتطلبها السلوك، وهو منهج قرآني ونبوي في استعمال الترغيب والترهيب كوسائل للتزكية والترقية.

وقد جمعنا فيه كل أصناف الترغيبات الإلهية سواء تلك التي توصف بكونها معنوية وروحية، أو تلك التي توصف بكونها حسية ومرتبطة بالرغبات والغرائز البشرية.

ذلك أن الله تعالى رب الحس والمعنى، والظاهر والباطن، وقد استعمل كليهما في ترغيب عباده في السير إليه، ولو خالفنا ذلك، أو احترقنا بعض ما ذكره، نكون من المبدلين والمغيرين.

وهو ما حصل للأسف في التراث الإسلامي المرتبط بهذه الجوانب، حيث احتقر بعضهم ــ بسبب فهمه الخاطئ لما ورد في الإخلاص والتجريد ـ كل ذلك النعيم الحسي الذي رغب الله تعالى فيه عباده، مع كونه مذكورا في القرآن الكريم، ولجميع الصالحين سواء كانوا من المقربين أو غيرهم.

رسائل التزكية والترقية

(5)

مواهب النفس المرضية

أربعون رسالة في حوافز السلوك ومكاسبه

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1441 ـ 2019

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

يحاول هذا الكتاب ذكر ما ورد في النصـوص المقدسـة من مواهب الله تعالى للصـالحين الـذين جاهـدوا نفوسـهم في ذات الله إلى أن استقامت لهم، وصلحت، وصـارت محلا لكـل أنـواع الكرامة والفضل.

وذلـك لتحفـيز السـائرين والسـالكين إلى اللـه بمـا يعينهم على المجاهدات التي يتطلبها السلوك، وهو منهج قرآني ونبـوي في استعمال الترغيب والترهيب كوسائل للتزكية والترقية.

وقد جمعنا فيه كـل أصـناف الترغيبـات الإلهيـة سـواء تلـك التي توصف بكونها معنوية وروحية، أو تلك التي توصـف بكونهـا حسية ومرتبطة بالرغبات والغرائز البشرية.

ذلك أن الله تعالى رب الحس والمعنى، والظاهر والباطن، وقـد اسـتعمل كليهمـا في تـرغيب عبـاده في السـير إليـه، ولـو خالفنـا ذلـك، أو احتقرنـا بعض مـا ذكـره، نكـون من المبـدلين والمغيرين.

وهو ما حصل للأسف في التراث الإسلامي المرتبـط بهـذه الجوانب، حيث احتقر بعضهم ـ بسـبب فهمـه الخـاطئ لمـا ورد في الإخلاص والتجريد ـ كل ذلك النعيم الحسي الذي رغب اللـه تعالى فيه عباده، مع كونه مذكورا في القـرآن الكـريم، ولجميـع الصالحين سواء كانوا من المقربين أو غيرهم.

وهـذا خلاف المنهج القـرآني، وخلاف مـا تقتضـيه الفطـرة السليمة؛ ففرق كبير بين أن نعبد الله لله، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعـراف: 29]، وبين أن نطمـع في فضـله وكرمـه وجـوده الحسي والمعنوي.

ولهـذا نـرى نفس أولئـك الأئمـة الـذين دعـوا إلى الإخلاص المجرد، فقالوا: (إن قوما عبدوا الله رغبة فتلـك عبـادة التجـار، وإن قوما عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيـد، وإن قومـا عبـدوا الله شكرا فتلك عبادة الاحرار)[1]

وقالوا: (العبّاد ثلاثه: قوم عبدوا اللّه عزّ وجلّ خوفـا، فتلـك عبادة العبيد، وقوم عبدوا اللّه تبارك وتعالى طلبا للثّـواب فتلـك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا اللّه عـزّ وجـلّ حبّـا لـه فتلـك عبـادة

[1] نهج البلاغة ج 2 ص 197.

الأحرار)[1]

هم أنفسهم يذكرون الجنة ورغبة الصالحين وطمعهم في أن ينالهم فضل الله، فيدخلونها، فقد وصف الإمام علي المتقين بقوله: (عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنّار كمن قد رآها، فهم فيها معذّبون) [2]

بل إن الله تعالى وصف المؤمنين ذوي المراتب العالية بالطمع في فضل الله تعالى، فقال:﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ الله وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 218]

وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 104]

وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: 57]

ومثل ذلك ما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ الكثيرة، والتي يذكر فيها الجزاء الذي أعده الله للمؤمنين أصحاب الأعمال الصالحة، ولو كان ذلك قادحا في الإخلاص لما ذكره رسول الله ﷺ.

لذلك اعتبرنا ما ورد من نصوص في احتقار ذلك نوعا من الدخن الذي أصاب كتب التزكية والسلوك كما أصاب غيرها.

ولهذا وضعنا في هذا الجزء كل ما يرغب في السلوك مما تشتهيه الأنفس، سواء في مراتبها العليا، أو مراتبها الدنيا.. مبينين ما يرتبط بتلك المواهب الإلهية من أعمال تتعلق بها، ومناسبتها لتلك الأعمال.

وقد نقلنا فيه الكثير من النصوص التي ذكرناها في كتب أخرى، ولم نشأ أن نرشد القارئ إليها، مكتفين بذلك، وذلك لتفرقها في المواضع المختلفة، ولكونها سيقت في تلك المحال لمعان خاصة بها، وليست خاصة بهذا المحل.

وقد ذكرنا في الأجزاء السابقة أن الغرض من هذه السلسلة، ومن كونها على شكل رسائل أن تكون عبارة عن

1() اصول الكافي، ج 2، ص 84.
2() نهج البلاغة: الخطبة رقم (193)

رسائل أو مطويات أو منشورات تؤدي غرضـها في الـدعوة إلى الله، وفي الترغيب في السلوك إليه، وبيان كيفيته.. ولذلك كـان في الإحالة على غيره ما يتنافى مع هذا الغرض.

الوجدان الأعظم

كتبت إلي ـ أيها المريد الصادق ــ تبشرني بأن الرسائل التي كتبتها إليك حول [معارف النفس الراضية] قد أثرت فيك وفيمن حولك من المريدين، وأنها خلصتكم جميعا من ذلك الدخَن الذي أصاب علوم العرفان؛ فتحولت من علوم تحض على السير إلى الله، والسلوك إليه، وتزكية النفس لتصلح للقرب منه، إلى علوم تبحث في حقائق الدنيا والآخرة، والملك والملكوت، من غير دليل ولا برهان، سوى ذلك الكشف الذي قد يختلط فيه الحق بالباطل، والمقدس بالمدنس، والشرع بالهوى.

وقد طلبت مني في آخر رسالتك، أنت ومن معك من المريدين، بأن أرسل لكم مجموعة من الرسائل تحفز على السير والسلوك، وتدعو إلى التزكية والترقية، وطلبتم مني أن تكون رسائل قصيرة لتستعملها أنت ورفاقك في الدعوة إلى الله، وتحبيب الخلق فيه، وفي السلوك إليه.

وطلبت مني ـ راغبا ـ أن أضع لكم ذلك في أربعين رسالة، لتضاهي أخواتها مما أرسلته لكم مما يتعلق بالنفس الأمارة واللوامة والمطمئنة والراضية..

وأنا أشكرك وأشكر رفاقك الذين ذكرت لي، وأشد على أيديكم فيما تنوون عمله من الترغيب في السلوك والتزكية؛ فذلك من خير الأعمال وأفضلها، وسترون تأثيرها فيكم، وفي نفوسكم، وترقيتها، ذلك أنكم لا تخاطبون بتلك الكلمات التي تدعون بها إلى الله الجمهور الذي يستمع لكم، وإنما تخاطبون معه نفوسكم؛ فتتأدب بما تدعو إليه.

وبما أن الله تعالى ينصر من ينصره، ويولي من يواليه؛ فسترون كيف يُفاض عليكم من فضله العظيم، وكيف تنشرح صدوركم، وتتنور قلوبكم، وكيف تنصب لكم معارج الترقية، لتنالوا حظوظكم من الكمالات.. وكيف لا تنالونها، وأنتم تسيرون على أقدام الهداة الذين جعلهم الله تعالى أنوارا يهتدي بها الخلق؟

وبناء على طلبكم الكريم، وحتى أنال بعض أجر مشاركتكم في ذلك العمل النبيل، فسأكتب لك ما طلبت في أربعين رسالة

تحفز العقول والقلوب للسير والسلوك والتزكية والترقية.

وأول تلك الرسائل هذه الرسالة التي تتضمن أول مـواهب الله تعالى للنفـوس المطمئنـة الراضـية المرضـية، وهي موهبـة [الوجدان العظيم]

وأقصد بالوجدان ما ذكـره اللـه تعـالى في قولـه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِـدْهُ شَـيْئًا وَوَجَـدَ اللَّهَ عِنْـدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَـابَهُ وَاللَّهُ سَـرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: 39]، وقوله: ﴿ وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَـهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًـا رَحِيمًا ﴾ [النساء: 64]

وهي تشير إلى أن كل رحلة السالكين إلى الله، أو غيرهم، هي رحلة إلى الله؛ فإذا مـا وجـدوه وجـدوا كـل شـيء، وإذا مـا فقدوه فقدوا كل شيء.. كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴾ [الانشقاق: 6]

وبقــدر تلــك المعرفــة، وبقــدر تهيئــة النفس وتزكيتهــا لاسـتقبالها، بقـدر مـا يكـون ذلـك الوجـدان وأثـره العظيم في النفس، وفي تحقيق كـل الرغبـات الـتي تطمح إليهـا.. ذلـك أن الله وحده من تتحقق بالارتباط به كل الرغبات.

بل لا يمكن أن يجد الإنسان نفسه، أو يكتشفها، أو يتوافـق معها، إلا بعد أن يكتشف ربه.. فنفسه لا يمكنهـا أن تنفصـل عن ربه، وكيف تنفصل عنه، وهو نفخة من روحـه، وأمـر من أمـره، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُـوا لَـهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: 29]

ولذلك فإن كل التيه والغربة والكآبـة والإحبـاط ناشـئة من ذلك الجهل المطبق بالنفس نتيجـة فصـلها عن خالقهـا، وبعـدها عن ربها، وتوهمها أنها يمكن أن تحقق سـعادتها ورغباتهـا بالبعـد عنه؛ فتجري وتلهث وراء كل شيء إلى أن تكتشـف أن كـل مـا تلهث وراءه مجرد سراب، وأن الماء الحقيقي عند الله.. ولذلك قال الله تعالى في تلك الآية الكريمة مخبرا عن نهايـة من كـان يلهث وراء السراب: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾ [النور: 39]

ولذلك فإن هذه المعاني وحدها هي من يملأ القلـوب بكـل أنواع السلوى؛ فالفقير العارف بربه الواجد لـه، لن يحـزن على الثروات التي يراها في يد غيره، ولن يحسـدهم، ولن يتمـنى أن يكون له مثلهم، وكيف يفعل ذلك، وقد وجد أغنى الأغنياء وأكرم

الكرماء.. والذي لـولاه لم يكن لهم شـيء؛ فلـذلك يسـتغني بـه عما سـواه.. بـل يـرى نفسـه أغـنى ممن سـواه، لأنـه صـار في صحبة الكنز الذي لا يفنى، والكرم الذي لا يُحد.

وهكذا ترى المريض والمتألم والمظلوم.. وغـيرهم جميعـا، قـد تصـاب أجسـادهم بـالأدواء والآلام، لكن نفوسـهم وعقـولهم وقلـوبهم وأرواحهم في معارجهـا المقدسـة ممتلئـة بالسـعادة، لأنها تعلم أن كل ما أصابها لا يساوي شيئا أمام تلـك المكاسـب العظيمة التي وجدتها، وهي ربها..

فلـذلك كـان اكتشـاف [اللـه]، والتعـرف على عظمتـه وأسـمائه الحسـنى أعظم اكتشـاف لأي إنسـان، لأنـه لا يرتبـط بمعلومات يتعلمها، ولا بمصـالح محـدودة يحققهـا، وإنمـا يرتبـط بحقيقته وحقيقة الوجود والمصير الذي ينتظره.

هذه هي الحقيقة العظيمة التي جهلها أكثر البشر؛ فتوهموا أن اكتشافهم لأمريكا أعظم من اكتشـافهم للـه؛ فلـذلك راحـوا يسخرون ممن يتحدث عن ربه، أو يبين لهم ما اكتشفه عنه من خلال رحلتـه إليـه، في نفس الـوقت الـذي يكرمـون فيـه من اكتشف أمريكا، أو اكتشف بعوضة، أو نبتة، أو صخرة..

وأنـا لا أقـول: إن تلـك الاكتشـافات محتقـرة.. معـاذ اللـه، وكيـف أقـول ذلـك، وقـد أمرنـا اللـه تعـالى بالسـير في الأرض والكون، والبحث في حقائقها والاستفادة من الطاقات المكتنزة فيهـا.. لكن فـرق بين من يسـير ليكتشـف عـالم الـدنيا، ويبقى منحصرا فيها، بل يسجن نفسه في سجونها، وبين من يجمع بين السيرين، السير إلى اللـه، والسـير إلى الـدنيا.. فالـدنيا ليسـت سوى سلعة من سـلع اللـه، وصـنع من صـنعه، ومن وصـل إليـه وصل إليها، ووصل إلى كل شيء.

هل تذكر ـ أيها المريد الصادق ـ تلك الحادثة الـتي حصـلت لبعض العلمـاء القـدامى حين راح يصـيح بعـد أن اكتشـف بعض الحقائق البسيطة (وجدتها.. وجدتها) (1)

ذلك أن تلك المعلومة التي اكتشفها اسـتطاع أن يحـل بهـا

1() أشير به إلى القصة المعروفة عن أرخميدس، وأنه كـان يغتسـل في حمـام عـام، فلاحظ أن منسوب الماء ارتفع عنـدما انغمس في المـاء، وقـد قيـل إنـه خـرج عاريـاً في الشـارع يجـري ويصـيح (يوريكـا. يوريكـا)، أي وجـدتها وجـدتها، لأنـه تحقـق من أن هـذا الاكتشاف سـيحل معضـلة التـاج. ذلـك أنـه كُلِّف بإثبـات أن التـاج الجديـد لهـيرون، ملـك سيراكيوز، لم يكن من الذهب الخالص كما ادعى الصائغ، وقد كتبت القصة لأول مرة في القرن الأول ق.م، من قبل المهندس المعماري الروماني فيتروفيوس.

تلك المعضلة التي أعجزه البحث عنها، إلى أن هداه اللـه إليهـا، فامتلأ فرحا وسرورا، وراح يصيح في الشوارع باكتشافه.

فهكذا يفعل من يسير إلى الله؛ فهو في كل خطوة يتقـدم بهـا إليـه يكتشـف شـيئا جديـدا لم يكن يعرفـه عنـه، أو كـانت معرفته به مجرد معلومـة ذهنيـة لم تتمكن من نفسـه؛ فـإذا مـا تمكنت امتلأ سرورا وطربا، وراح يصـيح بوجـدان عظيم معظمـا ربه، فرحا به.

ولذلك فإن كل الرحلـة إلى اللـه هي رحلـة اكتشـافات.. لا لسنن الكون وقوانينه.. ولا لحجارة الأرض ومعادنهـا.. ولا لأفلاك السـماء ونجومهـا، وإنمـا لمن يملـك كـل ذلـك، ويـدبر أمورهـا، وأمور كل شـيء.. فهـل يمكن أن يتسـع صـدر أحـد من النـاس لذلك الوجدان العظيم؟

لعلك تـذكر سـؤال زكريـا لمـريم عليهمـا السـلام عن سـر الطعام الذي وجده عندها، والذي لم يـر طعامـا مثلـه من قبـل، وقد أجابته بكل بسـاطة: ﴿هُـوَ مِنْ عِنْـدِ الله إِنَّ اللَّهَ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: 37]

في ذلك الحين امتزج الشعوران لدى زكريا عليـه السـلام: الشعور بقدرة الله المطلقة التي لا يقف في وجهها الـزمن، ولا المستحيل، والشعور بفضل الله العظيم، فهـو يـرزق من يشـاء بغير حساب.

وعندما امتزج الشعوران توجه لله طالبـا مـا كـان يتصـوره مستحيلا يستحي أن يسأل الله تحقيقه، قال تعالى مؤرخا لتلـك اللحظـة الـتي كـانت فتحـا عظيمـا على زكريـا عليـه السـلام: ﴿هُنَالِـكَ دَعَـا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَـالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَـدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَـةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ (آل عمران:38)

وفي نفس تلـك اللحظـة الـتي اكتشـف فيهـا زكريـا عليـه السلام ذلـك الاكتشـاف العظيم جاءتـه الملائكـة عليهم السـلام بالبشـارة، وبتحقيـق الأمـل الـذي كـان حـبيس القلب، واسـتحيا اللسـان من إبـرازه، قـال تعـالى: ﴿فَنَادَتْـهُ الْمَلائِكَـةُ وَهُـوَ قَـائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْـرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّـرُكَ بِيَحْيَى مُصَـدِّقاً بِكَلِمَـةٍ مِنَ الله وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:39)

وحينها ـ كذلك ــ انحلت عقـدة لسـان زكريـا عليـه السـلام متعجبا من هذا، لا منكـرا لـه، فسـأل اللـه عن كيفيـة ذلـك كمـا سأله الخليل عليـه السـلام من قبـل عن كيفيـة إحيـاء المـوتى،

فـرده اللـه إلى مشـيئته المطلقـة، قـال تعـالى: ﴿قَـالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَـدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَـرُ وَامْـرَأتِي عَـاقِرٌ﴾ (آل عمـران: 40)

وحينهـا أجابـه الملـك: ﴿كَـذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَـلُ مَـا يَشَـاءُ﴾ (آل عمران:40)

وهكذا ظل يعقوب عليه السلام منتظرا لولده، على الرغم من سخرية الجميع منه، لأنه كان يعرف عن الله ما لا يعرفونـه، قال تعالى: ﴿ قَالُوا تَالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُـونَ حَرَضًـا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَـا أَشْـكُو بَثِّي وَحُـزْنِي إِلَى اللـه وَأَعْلَمُ مِنَ الله مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: 85، 86]

وعنــدما رد اللــه إليــه ولــده، قــال لهم بلهجــة الواثــق المسـتيقن: ﴿ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللـه مَـا لَا تَعْلَمُـونَ﴾ [يوسف: 96]

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تكتشـف كـل حين عظمـة ربـك، وأسـماءه الحسـنى، وتدبيراتـه العظيمـة في كـل لحظة من اللحظات، ومن خلال أي حادث من الحـوادث.. فكـل شيء رسائل يتعرف الله بها إليك، ليدلك عليه.

هذه رسالتي الأولى إليك ـ أيها المريد الصادق ــ ولرفاقـك في الطريق؛ فبشروا بهذه المعاني، وأخبروا من تبشرونهم أنهم لن يفقدوا شيئا إذا وجدوا الله.. ذلك أن كـل شـيء للـه وعنـده وبه ومعه.. ومن وجد الله وجد كل شيء.. ومن فقده فقـد كـل شيء.

فلاح القيم

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [فلاح القيم]، وأقصد منهـا ـ أيها المريد الصادق ـ أن اللـه تعـالى برحمتـه ولطفـه وكرمـه بعبـاده، لم يعلـق الفلاح ـ الـذي هـو وسـيلة السـعادة الأبديـة ـ بشـيء لا يطيقـه الإنسـان، وإنمـا علقـه بأشـياء في طاقتـه أن يفعلها، بل في مصلحته أن يفعلها.

ولن تعرف قيمة هذه الموهبـة على حقيقتهـا، لتحمـد ربـك عليهـا، إلا إذا عـرفت مـا ارتكسـت فيـه الأديـان والفلسـفات والمدارس الفكرية التي امتلأت بالعنصـرية، وتـوهمت أن الفلاح مرتبط بجنس دون جنس، أو عـرق دون عـرق، أو منطقـة دون منطقـة، أو بـزمن دون زمن، أو لـون دون لـون.. ولـذلك غـذوا أصحابهم بكل أنواع الغرور والأماني الكاذبة، وغذوا غيرهم بكـل أنواع الإحباط والألم.

وقد أشار اللـه تعـالى إلى هـؤلاء عنـدما ذكـر مقولـة أهـل الكتاب، وادعاؤهم احتكار الله، واحتكار الفلاح، فقـال: ﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللـه وَأَحِبَّاؤُهُ قُـلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلله مُلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَـا بَيْنَهُمَـا وَإِلَيْـهِ الْمَصِـيرُ﴾ [المائدة: 18]

فهـذه الآيـة الكريمـة لا ينحصـر المـراد منهـا في اليهـود والنصـارى، والـذين زعمـوا أنهم وحـدهم أوليـاء اللـه من دون الناس، وإنما تشمل كل من زعم أن مـراتب الفلاح الـتي هيأهـا اللـه تعـالى لعبـاده، وزعهـا بطريقـة غـير عادلـة، حيث فـاز بهـا بعضهم، وحُرم منها أكثرهم.

لكن كلمــات اللــه المقدســة الــتي ســلمت من تحريــف المحرفين، وتلاعب المتلاعبين، خلت من كـل ذلـك.. بـل جعلت الفلاح منوطــا بــالقيم النبيلــة، والأخلاق الرفيعــة، والــتي في استطاعة أي إنسان أن يقوم بها بسهولة ويسر.

ولذلك تعجب أقوام الأنبياء من أولئك الأتباع الضعفاء الذين اتبعـوهم، وراحـوا يسـخرون من الأنبيـاء بسـببهم، متـوهمين أن خالق هذا الكون يربأ عن عبـادة أمثـالهم، قـال تعـالى عن قـوم

نوح عليه السلام: ﴿ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَـرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَـا بَـادِيَ الـرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: 27]

وقال لرسول الله ﷺ ردا على قومه الذين طلبوا منه طرد المستضعفين: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنعام:52)، وقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْـدُ عَيْنَـاكَ عَنْهُمْ تُرِيـدُ زِينَـةَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ وَكَـانَ أَمْـرُهُ فُرُطـاً﴾ (الكهف:28)

وقـال لـه في شـأن الأعمى: ﴿عَبَسَ وَتَـوَلَّى (1) أَنْ جَـاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَـزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَـاءَكَ يَسْـعَى (8) وَهُـوَ يَخْشَـى (9) فَـأَنْتَ عَنْـهُ تَلَهَّى﴾ [عبس: 1 - 10]

وهكذا يخبر القرآن الكريم أن نفوس البشـر واحـدة، وأنـه ليس هناك أي تفاضل بينهم إلا في جهة واحدة، يمكن لأي واحد منهم أن يحصلها، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَـاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَـارَفُوا إِنَّ أَكْـرَمَكُمْ عِنْـدَ اللـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]

وأخبر أن الفلاح منوط بتزكيـة النفس، لا بـأي شـيء آخـر، وهو أمـر مقـدور عليـه لكـل البشـر، قـال تعـالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَـا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَـا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: 7 ـ 10]، وقـال: ﴿قَـدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ [الأعلى: 14، 15]

وأخبر أن قوانين الدنيا التي يتفاضل البشر فيها بأحسـابهم وأنسابهم وأموالهم وغيرها من الموازين التي ابتدعوها، سـتُرفع في الآخـرة؛ فلا ينـال التكـريم إلا الصـالحون الـذين هـذبوا نفوسهم، لا الـذين استسـلموا للقـوانين المفلسـة الـتي وضـعها الشيطان، قال تعـالى: ﴿فَـإِذَا نُفِخَ فِي الصُّـورِ فَلَا أَنْسَـابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَـاءَلُونَ (101) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ (102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُـهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 101 - 103]

وبــذلك؛ فــإن مــوازين الفلاح الحقيقي مرتبطــة بــالقيم الأخلاقية والروحية والسلوك الرفيع، فهي وحدها الحقـائق الـتي تثبت في الميزان، وما عداها باطل لا قيمة له، بـل إنـه سـيكون وبالا وخسارة على صـاحبه، قـال تعـالى: ﴿وَالْـوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَـقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُـــهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـــونَ (8) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 8، 9]

ولم تكتف النصوص المقدسـة بـذكر قـوانين الفلاح، وإنمـا فصلت في الأصول الكبرى لمن يريد الحصول عليـه، لينـال من خلاله السعادة الأبدية في الـدنيا والآخـرة، وفي حياتـه الظـاهرة والباطنة.

ومن تلك النصوص قوله تعـالى: ﴿قَـدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُـونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَـــلَاتِهِمْ خَاشِـــعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْـــوِ مُعْرِضُـــونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَـــاةِ فَـــاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُـرُوجِهِمْ حَـافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَـا مَلَكَتْ أَيْمَـانُهُمْ فَـــإِنَّهُمْ غَيْـــرُ مَلُـــومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِـــكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَـادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَـاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُـونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَـــلَوَاتِهِمْ يُحَـــافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُـــونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِـدُونَ (11) ﴾ [المؤمنـون: 1 ــ 12]، وهي تربــط الفلاح بجميــع القيم النبيلــة، وأولهــا القيم الروحية الـتي تتمثـل في الصـلاة الخاشـعة الـتي يحافـظ عليهـا صـاحبها.. والقيم الأخلاقيـة الـتي تتمثـل في العفـاف والأمانـة وصــون اللســان عن اللغــو وكــل الموبقــات.. ومن هــذه القيم جميعا تتولد جميع الفضائل، وتتحصن النفس من كل الرذائل.

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُـؤْمِنِينَ إِذَا دُعُـوا إِلَى الله وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُـوا سَـمِعْنَا وَأَطَعْنَـا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُــونَ (51) وَمَنْ يُطِــعِ اللَّهَ وَرَسُــولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْــهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَــائِزُونَ﴾ [النــور: 51،ــ 52]، وهي تربــط الفلاح بتوحيد مصادر الهداية، حتى لا تنحرف بالإنسان السـبل؛ فيسـير في طريــق الشـيطان، وهــو يتـوهم أنـه في طريــق الـرحمن.. والهدايـة المعصـومة لا تكـون إلا لـدى المعصـومين؛ فمن خلـط دينه اختلط عليه أمره.

ومنهـا قولـه تعـالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ صَـالِحًا فَعَسَـى أَنْ يَكُـونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصـص: 67]، وهي تربــط

الفلاح بالتوبة ومراجعة النفس وتحقيق الإيمان، والتحقق بالعلم الصالح.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: 38]، وهي تربط الفلاح بالاهتمام بالقيم الاجتماعية من التآلف والتكافل والتناصر.

ومنها قوله تعالى: ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (2) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (3) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (4) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: 2 ـ 5]، وهي تربط الفلاح بالقيم الإيمانية، والتي تتأسس على الإيمان بالغيب والنبوات والمعاد.. والقيم الروحية التي تجتمع في الصلاة.. والقيم الاجتماعية التي تقوم على التكافل.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: 104]، وهي تربط الفلاح بالتعامل الإيجابي مع المجتمع ونصحه ودعوته للخير، لتحقيق المشروع الإلهي للإنسان في أجمل صوره.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (156) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: 156،ـ 157]، وهي تربط الفلاح بالتقوى والإيمان واتباع الهداة المعصومين والاكتفاء بهم عن غيرهم.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]، وهي تربط الفلاح بصفاء النفوس وطهارتها وامتلائها بالنبل والإيثار والتضحية.

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُـونَ [التغـابن: 16]، وهي تربـط الفلاح بـالكرم وتـوقي مثالب النفوس الأمارة التي يتربع الشح على عرشها.

ومنها قوله تعالى: لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ [التوبة: 88]، وهي تربط الفلاح بالتضحية بكل أنواعها ابتداء من التضحية بالمال، وانتهاء بالتضحية بالنفس.

ومنها قوله تعالى: لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَنْ حَـادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَـانُوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْنَـاءَهُمْ أَوْ إِخْـوَانَهُمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللـه أَلَا إِنَّ حِـزْبَ اللـه هُمُ الْمُفْلِحُونَ [المجادلـة: 22]، وهي تربـط الفلاح بـالولاء للـه ورسوله وللحق أينما كان، وبالبراءة من أعداء الحق مهما كانت قرابتهم أو المصالح المرتبطة بهم.

وكل هذه المعـاني ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ لا يمكنهـا أن تكتمـل إلا في نفس قـد هُـذبت وزكيت وطهـرت.. ولـذلك فـإن الفلاح ليس مرتبطا بتلك العلـوم الـتي تحملهـا، ولا بـذلك الجـاه الذي تحصل عليه، ولا بتلك الأموال الـتي تكسـبها.. وإنمـا بتلـك الطهارة والصفاء والنبل الذي تمتلئ به نفسك.

وهـو ممكن لأي إنسـان.. فلم يحـرم اللـه تعـالى أحـدا من عباده من أن يكون من المفلحين.. وليس عليه سوى أن يجاهـد نفسه لتتحقق بصفاتهم.

ولذلك فإن أعظم سلوى لكل المحـرومين المحتقـرين في الأرض هـو أن يعوضـوا عمـا فـاتهم من مكاسـب الـدنيا بتلـك المكاسب العظيمة التي وصفها الله تعالى، ليتحقـق لهم الوعـد الإلهي بالفلاح..

وفي الوقت الـذي تـزول فيـه كـل قـوانين الـدنيا الجـائرة، سـيقول أولئـك الـذين فرطـوا في البحث عن الفلاح الحقيقي: مَا لَنَـا لَا نَـرَى رِجَـالًا كُنَّا نَعُـدُّهُمْ مِنَ الْأَشْـرَارِ (62) أَتَّخَـذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ [ص: 62، 63]

وفي ذلك الوقت يتحقـق مـا ذكـره اللـه تعـالى في قولـه: فَـالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُـوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْـحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَـانُوا يَفْعَلُـونَ [المطففين: 34 - 36]

فاجتهد ـ أيها المريد الصادق ـ في تزكية نفسـك وتطهيرهـا لتنال ذلك الفلاح الحقيقي، فقد أتيحت لك كل الفـرص، وفتحت لك كـل الأبـواب؛ فلا تحـرم نفسـك من الخـير، ولا تـدع قـوانين الخلق تستحوذ عليـك؛ فهي قـوانين مؤقتـة طارئـة سـرعان مـا سيكتشفون غبنهم وخسارتهم بسببها، كما قال تعالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَـا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا وَمِثْلَـهُ مَعَـهُ لَافْتَـدَوْا بِـهِ مِنْ سُــوءِ الْعَـذَابِ يَـوْمَ الْقِيَامَــةِ وَبَـدَا لَهُمْ مِنَ اللــه مَـا لَمْ يَكُونُـوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: 47]

المفاجآت السارة

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [المفاجـآت السـارة]، وأقصد بها نفس تلك المفاجآت التي يمارسها الخلق فيما بينهم، ليمتلئوا بالفرح والسرور والسعادة.

مـع فـارق عظيم جـدا، وهـو أن المفاجـآت الـتي يمارسـها الخلق فيما بينهم محدودة بقدر ضعفهم وفقرهم وفاقتهم.. ذلك أنهـا قـد لا تتعـدى بعض المـأكولات والمشـروبات.. أو بعض الملبوسات والفرش.. وقد تصل في قمتها إلى مبالغ من المال، أو الجـاه، أو تحقيـق بعض الأغـراض المحـدودة الـتي تتوقـف بتوقف حياة الإنسان.

لكن المفاجـآت السـارة الـتي يهبهـا اللـه تعـالى لأصـحاب النفـوس المطمئنـة ليرضـيها بهـا، فـوق التصـور والتخيـل، وهي ممتدة لا تتوقـف على زمن دون زمن.. بـل هي سـارية في كـل الأزمان والأحوال، لا تنقطع أبدا.

بل إن السير إلى الله كله مفاجآت سارة.. ذلك أن المريـد الصـادق لربـه يكتشـف كـل يـوم، بـل كـل لحظـة المزيـد من الحقائق التي تجعله منبهرا حائرا مشدوها ممتلئا بالتعظيم.

ولذلك لا يوجد في الطريق إلى الله تلك العوائد القاتلة، أو ذلك الروتين الممل الـذي يعـتري البشـر، فيملأ حيـاتهم بالملـل والسأم، ويجعلهم ينفرون من كـل شـيء.. ذلـك أن اللـه تعـالى العالم برغبات خلقه، هو الذي يوفر لهم كل حين ما يحقـق تلـك الرغبات، وبصورة جديدة لم يكونوا يألفونها.

بل إن الله تعالى ـ برحمته وكرمـه ولطفـه بعبـاده ــ يـوفر لهم كـل حين رغبـات جديـدة لم تكن لهم، وقـد يسـتغرب منهـا غيرهم لعدم إدراكهم لها..

لكن العقلاء والعلماء لا يستغربون.. فالـذي خلـق للإنسـان حاسة الذوق، وجعلها محـدودة في بـراعم الـذوق الـتي تتواجـد حول اللسان وفي الحنك والحنجرة[1] يمكنه أن يعممها لجسـده

[1] يَرجِعُ الفضـل في الـذوق إلى الـبراعم الذوقيـة الـتي تنتشـر انتشـارًا كبـيرًا على سطح اللسان وعلى جوانبه، ويوجد منها ما يقـرُبُ مِن عشـرة آلاف بـرعم، وهي تسـتقرُّ بين خلايا الغشاء المخاطي الـذي يُغلِّف اللسـان، وهي على شـكل نتـوءات، ويتكـون كـل برعم ذوقي من مجموعة من الخلايا الحسية الخاصة التي تتجمَّع معًا على هيئـة المِغْـزَل،

جميعا؛ فتتذوق كل خلية من خلاياه، وتشعر بلذتها الخاصة بها.

والذي خلـق ذلـك الـذوق محـدودا في الحلاوة، والملوحـة، والمرارة، والحموضة، ودرجاتها المختلفة المحـدودة، يمكنـه أن يضيف إليها عشرات الأنواع، بل آلاف الأنواع.. وفي كل لحظة.

وبذلك يحصل للمتذوق في كل لحظة على مفاجآت جديدة لم يكن يحلم بها، يتحول الطعـام بموجبهـا إلى طعـام جديـد لم يكن يتصور أنه بذلك الشكل.. وهو ما يشير إليه قوله تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾ [البقرة: 25]

فمن وجـوه فهم هـذه الآيـة الكريمـة أن صـورة الطعـام واحدة، لكن الطعم يختلف كل مرة، ليـذهب ذلـك بالألفـة الـتي تجلب الملل والسأم.. ولذلك ينتظـر الآكـل كـل لحظـة مفاجـأة جديدة لم يكن يتصورها.

وهكذا في كل الشؤون الحسـية والمعنويـة.. ومنهـا ــ كمـا ورد في النصوص المقدسة ـ عالم الصور والألـوان والأشـكال.. فكلها عوالم من صنع الله تعالى.. ولـذلك يمكن أن تتغـير صـور العالم بحسب ما يريد صانعه ومصممه، لتنتفي الألفة والسأم.

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة أن أهل الجنة إن رغبــوا في صورة من الصور، أو يكونوا على شكل من الأشكال يحول اللــه تعالى صورهم إلى ما يرغبون من غير أن يجهلهم أحـد.. ولـذلك لا حاجة هناك للعمليات التجميلية الممتلئة بالألم، والتي سرعان مـا يـزول أثرهـا، ذلـك أن الرغبـة هنـاك هي وحـدها من يحقـق للإنسان ما يريد.

وهذه النماذج التي ذكرتها مجرد نماذج تقريبيــة للمفاجـآت السارة التي أعدها الله تعالى لعباده.. والتي تنفي عنهم الســأم والملل.. وإلا فإنه لا يمكن تعدادها، وهل يمكن عد مـا لا يعـد؟.. وهل يمكن لأحـد أن يحـد قـدرة اللـه تعـالى، حـتى يسـتطيع أن يتصور الكم الكبير الذي يمكنها أن تقدر عليه من مفاجآت؟

لذلك فإن الطريــق إلى اللــه كلهـا مفاجـآت، وتصـلح لكـل الخلــق.. حـتى أولئـك العلمـاء المتلهفين لإدراك أسـرار الملـك والملكوت، فيمكنهم في هـذه الـدنيا، أو في الآخـرة أن يرحلـوا إلى ملكـوت اللـه الواسـع، والـذي لا حـدود لـه، ليكتشـفوا من

وتخرُجُ من أطرافها الداخلية «النهايات العصبية» التي تحمل الإحساس إلى المخ.

غرائب الأسرار ما لم يكونوا يحلمون باكتشافه، وكـل ذلـك بمـا ييسر الله لهم من مراكب الحكمة، أو مراكب القدرة.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا النوع من المفاجآت في قوله عن إبـراهيم عليـه السـلام: ﴿وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: 75]

وهكذا تشير النصوص المقدسة إلى أن نعيم المقربين كله مفاجآت.. ذلك أنه أعد لهم ــ كمـا ورد في الحـديث الشـريف ـ (ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر)(1)

ولذلك اكتفى الله تعـالى بوصـف ذلـك النعيم بقولـه: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ [السجدة: 17]

والقرآن الكريم عبر عن ذلك النعيم العظيم الـذي لا يمكن وصفه بكونه مخفيا، حتى تحصل المفاجآت السارة لأولئك الذين وثقوا في ربهم، وسلموا كل أمورهم إليه، لتحصل لهم المفاجأة التي حصلت لإبـراهيم عليـه السـلام عنـدما مـرر السـكين على رقبـة ابنـه، ففـوجئ بأنهـا لا تعمـل، وفـوجئ بالفـداء بين يديـه، ليكون ذلك مفاجأة سارة له من ربه، قال تعـالى: ﴿فَلَمَّا أَسْـلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (103) وَنَادَيْنَـاهُ أَنْ يَـاإِبْرَاهِيمُ (104) قَـدْ صَـدَّقْتَ الرُّؤْيَـا إِنَّا كَـذَلِكَ نَجْـزِي الْمُحْسِـنِينَ (105) إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (106) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: 103 - 107]

وهكذا يفاجأ الذين كانوا يتوكلون على الله، ويفوضون كــل أمورهم إليه، بـأنهم لا يحاسـبون، ولا تنصـب لهم المـوازين، ولا يستدعى لأجلهم الشهود، بـل يمـرون مباشـرة إلى الجنـة، كمـا ورد في الحـديث الشـريف عن السـبعين ألفـا الـذين (يـدخلون الجنة بغير حساب، ولا عذاب)، والذين ذكر رسول اللــه ﷺ أنهم (الــذين لا يرقــون، ولا يســترقون، ولا يتطــيرون، وعلى ربهم يتوكلون) (2)

وهكذا يفاجأ المحسنون الذين ذكر الله تعالى أنهم يجازون على إحسانهم، ومعه الزيادة التي لم يحدد المـراد منهـا لتكـون مفاجأة لهم، قـال تعـالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا الْحُسْـنَى وَزِيَـادَةٌ وَلَا يَرْهَــقُ وُجُــوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْـحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَــا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: 26]

(1) رواه البخاري رقم (4780)
(2) رواه البخاري (6541)

وهكـذا يفاجـأ الأوابـون الـذين حفظـوا اللـه تعـالى في نفوسهم، وراقبـوه في سـلوكاتهم، وامتلأوا بالخشـية منـه، قـال تعـالى: ﴿هَـذَا مَـا تُوعَـدُونَ لِكُـلِّ أَوَّابٍ حَفِيـظٍ (32) مَنْ خَشِـيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: 32 - 35]

وهكذا يفاجأ القانعون بما آتاهم الله الراضـون بمـا رزقهم، أولئك الممتلئين حياء من ربهم، قال ﷺ: (إذا كـان يـوم القيامـة أنبت الله لطائفة من أمتي أجنحـة، فيطـيرون من قبـورهم إلى الجنـان يسـرحون فيهـا ويتنعمـون كيـف شـاءوا، فتقـول لهم الملائكة: هل رأيتم حسابا؟ فيقولون: ما رأينا حسابا، فيقولـون: هل جزتم على الصراط؟ فيقولون: مـا رأينـا صـراطا، فيقولـون لهم: هل رأيتم جهنم؟ فيقولون: ما رأينا شيئا، فتقول الملائكـة: من أمـة من أنتم؟ فيقولـون: من أمـة محمـد ﷺ؛ فيقولـون: نشدناكم الله حدثونا مـا كـانت أعمـالكم في الـدنيا؟ فيقولـون: خصـلتان كانتـا فينـا، فبلغنـا اللـه هـذه المنزلـة بفضـل رحمتـه، فيقولون: وما هما؟ فيقولون: كنا إذا خلونـا نسـتحي أن نعصـيه، ونرضى باليسير مما قسم لنا، فتقول الملائكة: يحـق لكم هـذا) (1)

وهكذا يفاجأ الصابرون الذين أخبر اللـه تعـالى أنهم ينـالون أجورهم بغير حساب، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]

وفي الحديث عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (إذا كـان يـوم القيامة جمع الله الخلائق في صعيد واحـد ونـادى منـاد من عنـد الله يسمع آخـرهم كمـا يسـمع أوّلهم، يقـول: أين أهـل الصـبر؟ قـال: فيقـوم عنـق من النـاس فتسـتقبلهم زمـرة من الملائكـة فيقولون لهم: ماكان صبركم هذا الذي صبرتم؟ فيقولون: صبرنا أنفسنا على طاعة اللـه، وصـبرناها عن معصـيته، قـال: فينـادي مناد من عند الله: صدق عبادي خلّوا سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير حساب؛ قال: ثمّ ينادي مناد آخر يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، فيقول: أين أهل الفضـل؟ فيقـوم عنـق من النـاس فتسـتقبلهم الملائكة، فيقولون: ما فضلكم هذا الذي تـرديتم بـه؟ فيقولـون: كنا يجهل علينـا في الـدنيا فنحتمـل، ويسـاء إلينـا فنعفـو، قـال: فينادي مناد من عنـد اللـه تعـالى صـدق عبـادي، خلّـوا سـبيلهم

(1) تنبيه الخواطر: 1/ 230.

ليدخلوا الجنة بغـير حسـاب؛ قـال: ثمّ ينـادي منـاد من اللـه عـزّ وجلّ يسمع آخرهم كما يسـمع أوّلهم، فيقـول: أين جـيران اللـه جلّ جلاله في داره؟ فيقوم عنـق من النـاس فتسـتقبلهم زمـرة من الملائكــة، فيقولــون لهم: مــا كــان عملكم في دار الــدنيا فصرتم بـه اليـوم جـيران اللـه تعـالى في داره؟ فيقولـون: كنّـا نتحاب في اللـه عزّوجـلّ، ونتبـاذل في اللـه، ونـتزاور في اللـه، قال: فينادي مناد من عند الله تعالى: صدق عبادي خلّوا سبيلهم لينطلقوا إلى جوار الله في الجنة بغير حسـاب، فينطلقـون إلى الجنة بغير حساب)، وقد علق الإمـام البـاقر على هـذا الحـديث بقوله: (فهؤلاء جيران الله في داره يخـاف النـاس ولا يخـافون، ويحاسب الناس ولا يحاسبون)(1)

هذه ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ نمـاذج عن بعض المفاجـآت السارة التي أعدها الله لعباده الصـالحين؛ فاسـع لأن تكـون من أهلها، واحذر أن تغرك عن نفسك تلك المفاجآت التي أعدها لك الشيطان ليرميـك في المسـتنقعات الـتي وقـع فيهـا.. فلا نهايـة لتلــك المفاجـآت الـتي تبـدو في ظاهرهـا مفرحـة سـوى الآلام والاكتئاب والإحباط الذي لا نهاية له، ولا حدود تحده.

1() بحار الأنوار: 7/ 171.

التجارة الرابحة

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [التجـارة الرابحـة]، وذلـك بناء على قوانين الربح والخسارة التي يتعامـل بهـا البشـر فيمـا بينهم.

ذلك أنها تقوم على سلع وأثمان.. والرابح هو الذي يشتري أغلى السـلع بـأرخص الأثمـان، والخاسـر هـو الـذين يشـتري البضاعة الكاسدة بكل ما عنده من أموال.

وعندما نطبق هذا القـانون على التجـارة مـع اللـه نجـد أن الربح الحقيقي لا يكون إلا معه.. وكيف لا يكون معه، وهو الغني المطلق الذي لا يحتاج إلى عباده، بل هم الـذين يحتـاجون إليـه، ويفتقرون في كل نفَس من أنفاسـهم إلى فضـله، بخلاف سـائر التجار الذين لا يهمهم سوى إرضاء حاجاتهم للربح، والتي سـببها فقرهم وفاقتهم والذي يدعوهم إلى الطمع في غيرهم.

ولذلك، فـإن التجـارة مـع اللـه تجـارة مـع الكـريم الـذي لا يبخـل، والقـادر الـذي لا يعجـز، والمريـد الـذي لا يكرهـه أحـد، والثري الذي لا يملك خزائن الدنيا والآخرة فقـط، وإنمـا خـزائن كل شيء.

وفوق ذلك هي تجارة مـع الـوفي الـذي لا يغـدر، والصـادق الذي لا يكذب، والمحسن الذي لا يسيء.

وفوق ذلك هي تجـارة مـع الغـني بذاتـه عن أن يصـل إليـه النفع منه؛ فكيف يصل إليه من غيره؟

ولــذلك فــإن الطــرف الثــاني في التجــارة يغــري كــل المشترين.. فأول ما يبحث عنه المشتري التاجر الصادق الوفي الـذي يملـك السـلع الثمينـة، وفي نفس الـوقت يكـون رحيمـا بزبائنه؛ فلا يبيعهم إلا بما تملكه أيديهم.

أما بالنسبة للسلع التي يعرضها الله تعالى على عبـاده؛ فلا يمكن مقارنتهـا بكـل سـلع الـدنيا.. ذلـك أنهـا تسـتوعب الـدنيا والآخــرة، والــروح والجســد، والنفس والمجتمــع، والمكــان والزمان.. وكل شيء.. حتى مشـاعر الفرحـة الـتي تغمرنـا، ولا نعلم لها سببا هي سلعة من سلع الله.

أما بالنسبة للثمن؛ فهو سـهل يسـير، وهـو فـوق ذلـك في

مصـلحة المشـتري، لأن الثمن نفسـه سـلعة من سـلع اللـه العظيمـة.. فهـو ممتلئ بالمشـاعر الطيبـة، والأذواق السـامية، والروحانية الرقيقة.

وبناء على هذا كلـه.. كـانت التجـارة الرابحـة الوحيـدة في الكون هي التجـارة مـع اللـه.. ومـا عـداها تجـارة مسـتعارة، أو تجارة مزيفة، أو تجارة مملوءة بالغبن والخديعة.

ولهذا تدعو النصوص المقدسة البشر إلى التأمـل في ذلـك العرض الإلهي العظيم للتجارة معه، قـال تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَـارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَـذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصـف: 10]

ثم يذكر لهم الثمن الذي تتطلبه سلع تلك التجارة، فيقـول: ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللـه وَرَسُـولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـه بِـأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: 11]

ثم يـــذكر لهم الثمن المـــدخر لهم في الآخـــرة؛ فيقـــول: ﴿ يَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَيُـدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِنْ تَحْتِهَـا الْأَنْهَـارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَـدْنٍ ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [الصـف: 12]

ثم يـــذكر لهم الثمن المعجـــل لهم في الـــدنيا؛ فيقـــول: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْـرٌ مِنَ اللـه وَفَتْحٌ قَـرِيبٌ وَبَشِّـرِ الْمُـؤْمِنِينَ﴾ [الصف: 13]

وبذلك؛ فإن سلع الله لا تتمثل في جنان الآخرة فقـط، بـل تتمثل في جنان كثيرة في الدنيا، تملأ نفوس المؤمنين بالسعادة والطمأنينـة، ولـذلك يمتلئـون بالتفـاؤل في نفس الـوقت الـذي يمتلئ فيه غيرهم بكل ألوان التشاؤم.

ولهذا، فإن من رحمة الله تعالى بعباده، مخاطبته لهم بهذه المعايير التي يستعملونها فيما بينه، مع أن كل شيء ملكه، ومع أنـه ليس بحاجـة إليهم، بـل هم الـذين بحاجـة إليـه، ومـع ذلـك يتلطف في خطابهم، بل يقول لهم بهذه اللغة الرقيقـة: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَـهُ أَضْـعَافًا كَثِـيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُـطُ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ ﴾ [البقـرة: 245]، ويقـول لهم: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْـرِضُ اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا فَيُضَـاعِفَهُ لَـهُ وَلَـهُ أَجْـرٌ كَـرِيمٌ ﴾ [الحديـد: 11]، ويقـول لهم: ﴿ إِنْ تُقْرِضُـوا اللَّهَ قَرْضًـا حَسَـنًا يُضَـاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَـكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغـابن: 17]

وهي اللغـة الـتي لم يفهمهـا قسـاة القلـوب والمشـاعر، ومعطلو العقول والمدارك؛ فراحوا يتوهمون أن استقراض اللـه تعالى لعباده دال على حاجته وفقـره إليهم، قـال تعـالى: ﴿لَقَـدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: 181]

ولـذلك؛ فـإن المؤمـنين يقـرؤون في تلـك النصـوص الـتي تـدعوهم إلى التجـارة مـع اللـه قـراءة خاصـة بمشـاعر راقيـة تجعلهم يشعرون بلطف الله ورحمته وتنازله لعباده في خطابـه لهم مع كونـه الجبـار القهـار العظيم الـذي لا يعجـزه شـيء، ولا يحتاج إلى شيء.

وبناء على هذا يرد في النصوص المقدسة الكثير من أنـواع الأثمان التي تشترى بها سلع اللـه، وأولهـا عـدم الانشـغال بـأي تجارة أخرى إذا ما كانت سببا في قطع التجـارة مـع اللـه، قـال تعالى مخاطبا أولئك الذين تركوا رسولهم انشغالا ببعض المتـاع القليل: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُـلْ مَا عِنْدَ اللـه خَيْـرٌ مِنَ اللَّهْـوِ وَمِنَ التِّجَـارَةِ وَاللَّهُ خَيْـرُ الـرَّازِقِينَ﴾ [الجمعة: 11]

ومنهـا تلاوة كلمـات اللـه المقدسـة، والتواصـل مـع اللـه، والإنفاق في سبل الخير، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُـونَ كِتَـابَ الله وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ سِـرًّا وَعَلَانِيَـةً يَرْجُـونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُـورَ (29) لِيُـوَفِّيَهُمْ أُجُـورَهُمْ وَيَزِيـدَهُمْ مِنْ فَضْـلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: 29، 30]

ومنها التوجـه إلى اللـه بـذكره وتسـبيحه والصـلاة لـه، مـع الاهتمـام بالزكـاة، وكـل القيم الاجتماعيـة المرتبطـة بهـا، قـال تعالى:﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَـهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (36) رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُـوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (النور: 36، 37)

ومنهـا التضـحية بـالنفس والجهـاد في سـبيل اللـه لنصـرة المستضـعفين، ومواجهـة المسـتكبرين الظـالمين، قـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِـأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللـه فَيَقْتُلُـونَ وَيُقْتَلُـونَ وَعْـدًا عَلَيْـهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ الله فَاسْتَبْشِـرُوا

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ [التوبة: 111]

ومنها تلك القربات التي عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض، والصلاة نورٌ، والصدقة برهانٌ والصبر ضياءٌ، والقرآن حجةٌ لك أو عليك، كل الناس يغدو فبايعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها)(1)

أما السلع التي ينالونها؛ فقد ورد وصفها والترغيب فيها في نصوص كثيرة، وهي تشمل الدنيا والآخرة، قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [النحل: 97]

لكن أعظم تلك الأجور هي الأجور المدخرة في الآخرة، ذلك أن الدنيا أقل وأضعف شأنا من أن تستطيع استيعاب فضل الله تعالى على عباده، قال تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ [آل عمران: 185]

ولهذا كان رسول الله ﷺ يرغب أمته في هذه السلعة الغالية، ويدعوهم إلى المسارعة إليه قال ﷺ: (من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إنّ سلعة اللّه غالية، ألا إنّ سلعة اللّه الجنّة) (2)

ويصف بعض النعيم الذي يجده أهله بعد كدهم ومجاهداتهم في الدنيا، فيقول: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا، من أهل النار، يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال له: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط ؟ هل مر بك نعيمٌ قط ؟ فيقول: لا، والله، يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا، من أهل الجنة، فيصبغ في الجنة صبغة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط ؟ هل مر بك شدةٌ قط ؟ فيقول: لا، والله، يا رب، ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدة قط) (3)

في مقابل ذلك يذكر الله تعالى أصناف التجارة الخاسرة والتجار الفاشلين الذين باعوا عز الأبد بدراهم مغشوشة، قال تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ

1() رواه مسلم (223) والترمذي (3517)، وغيرهما.
2() رواه الترمذي رقم (2452)
3() مسلم (7266)

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (البقرة: 16)

ووصف الذين باعوا عهودهم معه بعهودهم مع الشيطان، فقال: إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (آل عمران: 77)

وأخبر أن خسارتهم لا حدود لها، لأنها لا تتعلق بالأشياء، وإنما تتعلق بنفوسهم، فهم خسروا نفوسهم وحقائقهم ولطائفهم، قال تعالى: الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 12]، وقال: وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (103) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ [المؤمنون: 103، 104]

وأخبر عن أوصاف هؤلاء الخاسرين وأعمالهم، وأولها عدم اتباع سبيل المؤمنين، والرغبة في تجارتهم الرابحة، قال تعالى: وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ [العصر: 1 - 3]

ومنها الكذب والافتراء على الله والصد عن سبيله، قال تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ الله عَلَى الظَّالِمِينَ (18) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ [هود: 18، 19]، ثم ذكر جزاءهم ومصيرهم ومدى خسارتهم، فقال: أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ الله مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ (20) أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ [هود: 20 - 22]

ومنهم أولئك المتذبذبون الذين يحاولون الجمع بين طاعة الله وطاعة الشيطان، قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ [الحج: 11]

وكل هؤلاء يضلون سعيهم في سوق الحياة الدنيا، لأنهم لم يفرقوا بين التجار الناصحين، وغيرهم من الغشاشين المخادعين، ولذلك سقطوا ضحايا لمن تلاعب بهم، قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (103) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (104) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (105) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: 103 - 106]

وذكر الله تعالى السبب في ذلك كله، وهو الرغبة عن ولاية الله إلى ولاية الشيطان، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ الله فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 119]، والذي أخبر الله تعالى أنه تاجر غشاش مفتر ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (120) أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: 120، 121]

وذكر ندمهم عن الغبن العظيم الذي حصل لهم، والذي لا يمكن تداركه، فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَاحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: 31]

وغيرها من الآيات الكريمة التي يتلطف الله تعالى بعباده فيها، ليخاطبهم بما يعقلون، وما يتعاملون به فيما بينهم.. ولو أنهم عرفوا الحقيقة لأدركوا أن الله تعالى أعظم من أن يقارن به غيره، وأنه أكرم من أن يتعامل معه عباده معاملة التجار لبعضهم بعضا.

وكيف يكون ذلك كذلك، والله تعالى هو المالك لكل شيء.. ورحمته ولطفه وفضله لا حدود لها.. بل حتى تلك الطاعات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ليست سوى فضل من فضله.

ولهذا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ قوله: (لن يدخل أحداً منكم عملُه الجنةَ)، قالوا: (ولا أنت يا رسول اللّه؟)، قال: (ولا أنا إلا أن يتغمدني اللّه تعالى برحمة منه وفضل)[1]

بل كما أخبر تعالى عن مقالة المؤمنين بعد دخولهم الجنة من أنهم يقولون: ﴿الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر:34 ـ 35)

ذلك أن أقل نعمة من نعم الله تعالى على عباده لا تكفئها

[1] رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

جميع طاعات العبد، بـل إن الطاعـة نفسـها نعيم من نعم اللـه، فكيف يكون النعيم جزاء على النعيم، وقد ورد في الحـديث عن رسول اللـه ﷺ أنـه قـال: (خـرج من عنـدي خليلي جبريـل آنفـا فقال: يا محمد، والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عبيـده عبـد الله تعالى خمسمائة سنة، وأخرج الله له عينا عذبة تـبيض بمـاء عذب فتستنقع في أسفل الجبل، وشجرة رمـان تخـرج في كـل ليلة رمانة فتغذيه يومه، فإذا أمسى نـزل فأصـاب من الوضـوء، وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته، فسأل ربـه عـز وجـل عنـد وقت الأجـل أن يقبضـه سـاجدا، وأن لا يجعـل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلا حتى بعثـه وهـو سـاجد، فنجـد لـه في العلم أنه يبعث يـوم القيامـة فيوقـف بين يـدي اللـه عـز وجـل، فيقول له الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمـتي، فيقـول: رب بـل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنـة برحمـتي، فيقـول: يـا رب، بل بعملي، فيقـول الـرب: أدخلـوا عبـدي الجنـة برحمـتي، فيقول: رب بل بعملي، فيقول الله عز وجـل للملائكـة: قايسـوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمس مائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه فيقول: أدخلـوا عبدي النار قال: فيجر إلى النـار فينـادي: رب برحمتـك أدخلـني الجنـة، فيقـول: ردوه فيوقـف بين يديـه فيقـول: يـا عبـدي، من خلقك ولم تك شيئا ؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: كان ذلـك من قبلك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك؛ فيقول: من قواك لعبادة خمس مائة عـام؟ فيقـول: أنت يـا رب، فيقـول: من أنزلـك في جبل وسـط اللجـة وأخـرج لـك المـاء العـذب من المـاء المـالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج مرة في السـنة، وسـألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بك؟ فيقـول: أنت يـا رب، فقـال الله عز وجل: فذلك برحمـتي وبرحمـتي أدخلـك الجنـة، أدخلـوا عبدي الجنة فنعم العبد كنت يا عبدي، فيدخله اللـه الجنـة، قـال جبريل عليه السلام: إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد) (1)

وهذه النظرة ـ أيها المريد الصادق ـ هي التي تقي المؤمن من ذلك الانحراف الذي وقع فيه بعضـهم لمعـنى العـدل الإلهي، وجرهم إلى أن يطلبوا الجـزاء من اللـه، كمـا يطلبـه الأجـير من المســتاجر، متكلين على حــولهم وقــوتهم وعملهم، وكــأنهم يتصورون أن الجنة عـوض حقيقي عن العبـادة، أو كـأن العبـادة

(1) رواه الحكيم الترمذي، والحاكم، وابن حبان.

عوض حقيقي ينتفع به الله تعالى عما يقولون علوا كبيرا، فاللــه تعـالى غـني عن العـالمين إن أحســنوا أحســنوا لأنفســهم، وإن أساءا فعليها، لهم ماكسبوا وعليهم ما اكتسبوا، من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها.

الحياة الطيبة

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما سماه الله تعالى [الحيـاة الطيبـة]، حيث قال: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 97]

وهي ترد على كل أولئـك الـذين توهمـوا أن الـدين يخـالف الــدنيا، وأن من عــاش لدينــه ينبغي أن يــرمي دنيــاه، وألا ينعم بالحياة التي ينعم بها غيره.

وهذا فهم خاطئ؛ فالله تعالى رب الدنيا والآخرة، وما كـان ليحرم من دنياه من آمن به وأطاعه، وكيـف يحرمـه منهـا، وهي دار فضله وكرمه، كما أن الآخرة دار عطائه الذي لا حدود له.

بل إن الله تعالى بكرمه خص المؤمنين بالحياة الطيبة، أما غـيرهم؛ فبسـبب جحـودهم وإعراضـهم تـركهم للحيـاة بطيبهـا وخبثها، لتنال منهم بقـدر مـا ينـالون منهـا، ويُعـذبون فيهـا بقـدر سكونهم إليها، وبعدهم عن الحـق بسـببها، كمـا قـال تعـالى في وصــف المتــاع الــذي حجب الكــافرين عن دين اللــه، ومتابعـة رسول الله ﷺ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْـوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَـا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُعَـذِّبَهُمْ بِهَـا فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَتَزْهَـقَ أَنْفُسُـهُمْ وَهُمْ كَـافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]

وأول ثمـار تلـك الحيـاة الطيبـة طمأنينـة النفس وراحتهـا وسكينتها وانشراحها، وهي المعاني التي لا يمكن أن يصل إليهـا أحد من دون الإيمان، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُـرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَـهُ يَشْرَحْ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ وَمَنْ يُـرِدْ أَنْ يُضِـلَّهُ يَجْعَـلْ صَـدْرَهُ ضَـيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّـعَّدُ فِي السَّـمَاءِ كَـذَلِكَ يَجْعَـلُ اللَّهُ الـرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: 125]

وقال في موضـع آخـر: ﴿أَفَمَنْ شَـرَحَ اللَّهُ صَـدْرَهُ لِلْإِسْـلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللــه أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: 22]

ولا يمكن مقارنة هذا النعيم بأي نعيم آخر في الدنيا.. ذلــك أنه لا يمكن أن يشترى بالأموال، وإنما هو هبـة خالصـة من اللـه تعالى.. يجد المؤمن فيها من السـكينة والراحـة مـا يعوضـه عن

كل ما فاته من متاع الدنيا المادي.
ولـو شـئت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تعلم قيمـة هـذه النعمة؛ فاسأل عنها أولئك الأغنيـاء المـترفين، الـذي مكّنت لهم خزائن الأمـوال، لكنهم عاشـوا ممتلـئين بالكآبـة والإحبـاط، ولم تستطع كل تلك الأموال أن تلـبي حاجـاتهم النفسـية إلى الرضـا والسكينة، حتى أن منهم من مات منتحرا وهو في قمة اكتئابه.
ولذلك لو لم يكن من نعيم الله للمؤمن سوى تلك السكينة الـتي يجـدها عنـد ذكـر ربـه، والـتي وصـفها اللـه تعـالى بقولـه: الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُـوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللـه أَلَا بِـذِكْرِ اللـه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ [الرعد: 28]، لكان ذلك وحده كافيا.
ومع ذلـك فـإن اللـه تعـالى أغـدق على المـؤمن ــ بسـبب التزامه بشريعة ربه ـ من طيبة الحياة الدنيا مـا لا يجـده غـيره.. فالمؤمن في أغلب الأحوال صاحب أسرة طيبـة، يحـترم بعضـها بعضا، ويؤدي بعضها حقـوق بعض، لأنهـا تعيش في كنـف الـذكر والعبادة والتقوى، بخلاف تلك الأسر التي لا تؤسـس على ذلـك؛ فتتحول علاقاتها إلى عـداوة، ويصـبح السـكن الـذي جعلـه اللـه محلا للمودة والرحمة سجنا مملوءة بالعداوة والأحقاد.
وهكذا؛ فإن المؤمن يمكنه أن يمارس ما يمارسه غيره من مطـالب الحيـاة، فدينـه وتدينـه لا يمنعـه من أن يصـير صـاحب مناصب سياسية أو غيرها، بل إنه يـدعوه إليهـا، ليحقـق العدالـة التي يفتقدها غيره، كما قـال تعـالى عن يوسـف عليـه السـلام: اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ [يوسف: 55]
ثم أخـبر أن تمكينــه في الأرض كـانت هبـة من اللــه لــه، وللذين تشرفوا بأن يكونوا تحت سلطته، قـال تعـالى: وَكَـذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَـا حَيْثُ يَشَـاءُ نُصِـيبُ بِرَحْمَتِنَـا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ [يوسف: 56]
وأخبر عن ذي القرنين وما أتيح له من أسباب، وكيف مكن اللـه لـه في الأرض، وكيـف اسـتخدم ذلـك التمكين في خدمـة المستضـعفين، قـال تعـالى: وَيَسْـأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَـرْنَيْنِ قُـلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْـرًا (83) إِنَّا مَكَّنَّا لَـهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَـاهُ مِنْ كُـلِّ شَـيْءٍ سَـبَبًا (84) فَـأَتْبَعَ سَـبَبًا (85) حَتَّى إِذَا بَلَـغَ مَغْـرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًـا قُلْنَـا يَـا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (86) قَـالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْـرًا (87)

وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: 83-88]

وهكذا؛ فإن المؤمن يمكنه أن يكون غنيا، وصاحب أموال كثيرة، وقد قال رسول الله ﷺ: (نعما بالمال الصالح للرجل الصالح) (1)

فالمحرم ليس اكتساب الأموال، ولا السعي لتحصيلها، وإنما المحرم جمع المال من الطرق غير المشروعة، والتي تمتلئ بالضرر والغش والخديعة، فلا يمكن للعاقل أن يرضى بأن يغتني بإفقار غيره.. لأن كل الآلام التي سببها لغيره ستتحول غصصا تكدر حياته.

ولهذا قال المؤمنون من قوم قارون له: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77]

فلم ينهوه عن نصيبه من الدنيا، وإنما نهوه عن الفساد والظلم فيها.. ذلك أنه لا راحة لمفسد، ولا سكينة لظالم، وكيف يسكن أو يرتاح، وضميره يؤنبه كل حين مذكرا له بجرائمه؛ فإن لم يكن له ضمير؛ فإن مخاوفة من انتقام من ظلمهم يجعله في رعب دائم.. ولا يمكن أن تتحقق الحياة الطيبة مع الرعب.

وهكذا؛ فإن الدين والتدين لا يتناقض مع الرفاه وكل متطلباته، بل إن الله تعالى يعتبره من مظاهر الحياة الطيبة للمؤمنين بسبب التزامهم بدينهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]

وقد عبر الله تعالى هنا عن ذلك الرفاه بكونه بركة.. ليفرق بين العطاء الكثير الذي قد يراد به الاستدراج، والذي لا خير ولا بركة فيه، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ (55) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: 55، 56]

ولهذا لم يعتبر سليمان عليه السلام من المستغرقين في الدنيا مع كل ما أوتيه من النعيم والرفاه، لأنه لم يحجب به عن ربه، بل كان أوابا منيبا كثير الشكر لله.. وذلك ما حماه من تسلط النعم عليه، كما تسلطت على الذين شغلتهم عن ربهم،

1() رواه أحمد والحاكم وابن سعد، وأبو يعلى والطبراني في الكبير والبيهقي.

وصرفتهم عنه، ولهذا قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ (النمل:36)

ولأجل هذا طلب من الله تعالى أن يعطيه ملكا لم يعطه أحدا من عباده، كما نص على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: 35]

فهو لم يطلبه لذاته، وبتلك الصورة التي لا ينازعه فيها أحد إلا ليكون حجة على من شغله ملكه عن الله، وكأنه يقول لربه: (يارب هب لي من الملك ما تشاء.. بل هب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي أن يحصل عليه.. فإن هذا الملك مهما كان عظيما.. وذلك الفضل مهما كان وفيرا لن يحجباني عنك، ولن يبعدا قلبي عن الرغبة فيك.. فإني لا أرى الأشياء مهما كثرت إلا منك.. ولا أرى نفسي إلا بك.. فكيف أحجب بهداياك الواصلة إلي.. أم كيف أنشغل بفضلك عنك؟)

ولهذا كان ملك سليمان وثراءه وأمواله حجة على من حجبهم ملكهم وأموالهم عن ربهم، كما كان جمال يوسف عليه السلام، وكونه عاش في قصر مليء بالفتن حجة على كل من يكون حاله مثله.

وهكذا فإن المؤمن يمكنه أن يعيش كما يعيش غيره، ولكن بفارق مهم، وهو أن حياته طيبة، وحياة غيره مختلطة.. والطيبة تعني البركة والرضا والقناعة والأمل.. وهي لذلك من المعاني التي لا يمكن أن يجدها غير المؤمن.

ولذلك لا تلتفت ــ أيها المريد الصادق ــ لأولئك الذين يحملون صورا خاطئة عن الحياة الدنيا؛ فهي دنية بالنسبة للدار الآخرة والجزاء العظيم المعد فيها، وهي دنية بالنسبة لأولئك الذين حجبوا بها عن ربهم، أما غيرهم؛ فهي دار من دور الله لها حرمتها، ومكانتها العظيمة.

وقد روي عن الإمام علي أنه رأى قوما يذمون الدنيا ذما مطلقا، فراح يقول لهم: (ما بال أقوام يذمّون الدنيا وقد انتحلوا الزهد فيها؟!، الدنيا منزل صدق لمن صدّقها، ومسكن عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزوّد منها، مسجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومصلّى ملائكته، ومسكن أحبّائه، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا منها الجنة.. فمن ذا يذم الدنيا وقد آذنت ببينها؟! ونادت بانقطاعها، ونعت نفسها بالزوال،

ومثّلت ببلائهـا البلاء، وشـوّقت بسـرورها إلى السـرور، وراحت بفجيعة، وابتكرت بنعمة وعافية، ترهيبا وترغيبا، فذمّها قوم غداة الندامة، وحمدها آخرون، خـدمتهم جميعـا فصـدقتهم، وذكّـرتهم فـاذّكّروا، ووعظتهم فـاتّعظوا، وخـوّفتهم فخـافوا، وشـوقتهم فاشتاقوا) (1)

وكــذلك لا تلتفت لأولئــك الــذين يتوهمــون أن تعــذيبهم لأنفسهم ورضاهم بالدون من كل شيء، هو علامـة زهـدهم في الدنيا؛ فالأمر ليس كذلك، وقد روي عن بعض الصالحين أنه رأى تلميذا له يشرب الماء الساخن في الصيف، زهـدا في الـدنيا، فقال له: (برّد الماء؛ فإن النفس إذا شربت الماد البارد؛ حمدت اللّه بجميع الجـوارح، وإذا شـربت المـاء السـخن؛ حمـدت اللّـه بكزازة)

وروي أنـه ﷺ رأى شـيخا يهـادى بين ابنيـه، قـال: (مـا بـال هذا؟). قالوا: نذر أن يمشـي، فقـال: (إنّ اللّـه عن تعـذيب هـذا نفسه لغنيّ)، وأمره أن يركب(2).

ولذلك فإن التدين لا يعني تحريم الحلال، ولا الطيبات التي أباحها الله تعالى لعباده، وقد قـال اللـه تعـالى: ﴿قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 32]

ثم عقب عليها ببيان المحرمات الحقيقية، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَـا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْـرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِالله مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُـوا عَلَى الله مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33]

1() مستدرك نهج البلاغة: ج 1 ص 352، 357.
2() مسلم 8/ 94 (2750) (12)

الأنات المبتسمة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الأنات المبتسـمة]، وهـو معـنى اسـتعرناه ممـا حصـل لامـرأة صـالحة عـثرت، وانقطـع ظفرهـا، لكنهـا بـدل أن تبكي وتتـألم ابتسـمت، وبـدا البشـر والسرور على وجهها، فقيل لها: أما تجدين الوجع؟ فقـالت: (إن لذة ثوابه أزالت عن قلبي مرارة وجعه)

فهذه المرأة الصالحة لم تنكر الألم الـذي حـل بهـا، والـذي دعا إليه ما حصل لظفرها، ولا أحد يشـكك في آلامـه الشـديدة، لكن إيمانها القوي بالله، وبالأجر العظيم الذي أعـده للصـابرين، جعلها تغيب عن ألمها، مثلما غـاب النسـوة عنـدما رأين يوسـف عليه السلام، فرحن يقطعن أيديهن من غير أن يشعرن بذلك.

ذلك أن الجـزاء الإلهي يرتبـط بـأمرين: أولهمـا في القيـام بالتكاليف التي كلف بها المؤمن، وبقدر صدقه في أدائهـا، بقـدر ما تكون عظمة الجـزاء.. وهي تكـاليف اختياريـة في إمكـان أي شخص أن يرغب عنها، أو يتثاقل عن أدائها.. أو يؤديهـا بصـورتها الدنيا البسيطة.

وثانيهما تلك الاختبارات الجبرية الـتي لا يملـك الإنسـان أن يرفضها، لأنها تنزل عليه من غير أن يكون قاصدا لها، ولا متسببا فيها.. ونجاحه في هذا النوع من الاختبار يكمن في كيفية تعامله معهـا.. فـإن ضـجر وانـزعج وصـرخ وولـول واعـترض على ربـه وأساء الأدب معه، كـان فاشـلا في اختبـاره.. وإن صـبر ورضـي وسلم وفوض لربـه، وعلم أن لـه حكمـة في ذلـك، فإنـه يكـون ناجحا في اختباره.

وللنجــاح درجــات مختلفــة، أدناهــا ذلــك الصــبر الممتلئ بالمرارة، والذي يواجه صاحبه فيه البلاء الذي لا يمكن دفعه من غير أن يرتكب ما يسيء إلى أدبه مع ربه أو مع مقاديره.

أما أعلاها؛ فتلك الابتسامة التي تفتر بهـا ثغـور الصـالحين، لعلمهم بحكمـة ورحمـة ولطـف مرسـلها، وأنـه لم يقصـد منهـا إيلامهم ولا إذلالهم، وإنما يقصـد الـترقي بهم، وبنفوسـهم، وأنـه مع ذلـك سيعوضـهم بقـدر كرمـه ولطفـه في هـذه الـدار، وفي الدور التي تنتظرهم.

وقـد قـال بعضـهم يـذكر مشـاعره في ذلـك: (إني لأصـاب بالمصيبة فأحمد الله عليها أربع مـرات أحمـده إذ لم تكن أعظم ممـا هي، وأحمـده إذ رزقـني الصـبر عليهـا، وأحمـده إذ وفقـني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمـده إذ لم يجعلهـا في ديني)

وكـل هـذه المعـاني لم تكن لتتحقـق لـولا تلـك النصـوص المقدسة التي ورد الأخبار فيهـا عن حقـائق الأشـياء.. ومنهـا أن الآلام ليست مقصودة بـذاتها؛ فاللـه تعـالى أكـرم وأرحم من أن يقصد إيلام عباده.. ولكنها وسـيلة ضـرورية للتطهـير والـترقي.. وهي محصورة في فترة الاختبار.. وستزول بعدها مباشرة؛ فبعد أن يمـوت المـؤمن لن يسـمع بشـيء اسـمه مـرض، أو ألم، أو كآبـة، أو حـزن، لأنـه اسـتوفى كـل حظوظـه منهـا في مرحلـة اختباره.

ولهذا؛ فإن أول ما ينشر الابتسامة في قلب المـؤمن تجـاه الآلام علمه بمحدوديتها، حـتى لـو امتـدت للحيـاة الـدنيا جميعـا، ذلك أنها لا تساوي شيئا أمام عمره الممتد في الأحقـاب؛ فاللـه تعالى لم يخلق الإنسان ليفنيه أو يميته، وإنما خلقه للأبد، ولذلك لا تساوي تلك الفترة المحدودة من الألم شيئا في عمـر الـزمن الطويل.

بالإضافة إلى ذلك؛ فإن ذلـك الألم محـدود في محلـه، كمـا هو محدود في زمنه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُـوَنَّكُمْ بِشَـيْءٍ مِنَ الْخَــوْفِ وَالْجُــوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْــوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَــرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:155)، فقد ذكر تعالى أن البلاء يكـون بشيء من الخوف والجوع، أي بقليل منهما، وبنقص من الأموال والأنفس والثمرات، أي ذهاب بعضها فقط وبقاء البعض الآخر.

ولهذا يذكر الله تعالى أنـه يمكن تضـميد محـال ذلـك الألم بما يزيله، ويرفعه، كما قـال تعـالى: ﴿ إِنْ تَكُونُـوا تَـأْلَمُونَ فَـإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَـأْلَمُونَ وَتَرْجُـونَ مِنَ اللـه مَـا لا يَرْجُـونَ وَكَـانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (النساء:104)

فالآية الكريمة تدعو المؤمنين إلى تضـميد جـراحهم برجـاء الله تعالى، وهو العزاء الـذي لا يجـده غـيرهم ممن يشـاركونهم في نفس الآلام، لكنهم لا يجـدون أي عـزاء أو سـلوى ترفـع عن نفوسهم ثقل الآلام التي حلت بأبدانهم.

وإن شـئت ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ توضـيحا يقـرب لـك

المعنى الوارد في الآية الكريمـة؛ فـإن أقـرب الأمثلـة إلى الألم الذي يحل بالإنسان تلـك الحفـرة الـتي تـدمل الأرض بـالجراح.. فــإذا كــانت الحفــرة محــدودة من حيث حجمهــا، ثم ملأناهــا بأكياس.. لا من الرمل.. بـل من الـذهب الخـالص.. بـل بمـا هـو أشرف من الذهب وأغلى قيمة.. أيبقى للحفرة وجود؟

إن أي إنسان عاقل يعرف فنون التجـارة، ومـا يرتبـط بهـا من المكاسب لن يفرط في هذه الصفقة العظيمة، بـل إنـه قـد يتمنى أن تكـون حفرتـه أخـدودا عظيمـا، بـل بحـرا عميقـا، بـل محيطا لا حدود له.. لأنه سيعوض بدلها بتلك الكنوز التي لا نفـاد لها.

ولذلك كان أعظم المغبونين أولئك الذين جمعـوا بين الألم، وبين الحرمان من فضل الصبر عليه، والرضا به.. كمــا روي في الحــديث أن رســول اللــه ﷺ دخــل على أعــرابي يعــوده وهــو محموم، فقال: (كفارة وطهور)، فقال الأعرابي: (بل حمى تفور على شيخ كبير تزيره القبور)، فقام رسول الله ﷺ وتركه[1].

وهنـا يختلـف المـؤمن عن غـيره.. فـالمؤمن يشـترك مـع الآخرين في الاختبارات، ولا يدعي العصـمة منهـا، ولا يـدعي أن إيمانه بربه سيحول بينه وبينها، وإنما يختلف في طريقـة تعاملـه معها.

أما الآخرون فينظرون إليهـا باعتبارهـا شـرا محضـا، وألمـا خالصا.. وقد تكون وسيلة لتنفيرهم عن ربهم، وكفرهم به.. أمــا المؤمن؛ فينظر إليها كما ينظر إلى تلك الشدة التي يتعامــل بــه أستاذه معه في بعض الأحيان، حـتى يـزداد رغبـة في العلم.. أو تلك الشدة التي يمارسها الجراح ليستأصـل مـا في جسـده من الأذى.

وهكذا؛ فإن البلاء يطهر المؤمن من غروره وعجبـه وكـبره وكل آفاته التي تحول بينه وبين حقيقته، ولـذلك كـان ألمـه هينـا ويسيرا.. وهو كألم من يشرب الدواء المر؛ فهـو يعلم أن صـبره على مرارته هي التي ستوفر له الشفاء.

وفوق ذلك؛ فإن المؤمن الذي يعيش بقلبه في الآخرة، كما يعيش بجسـده في الـدنيا، يشـعر بـأن كـل لحظـة من لحظـات الآلام ستعوض له بأزمنة لا حدود لها من السعادة، كمــا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ، حيث قال: (يـود أهـل العافيـة يـوم

---
(1) البيهقي في شعب الإيمان.

القيامـة حين يعطى أهـل البلاء الثـواب لـو أن جلـودهم كـانت قرضت في الدنيا بالمقاريض)(1)

ولذلك لا تنتقل آلام جسده لروحه، مثلما يحصل للمغبونين في هذا النوع من التجارة، وإنما تنتقل أفراح روحه لآلام جسـده لتضمدها، وتملأها بالفرح والسعادة، لأنهـا تعلم أن ربهـا الكـريم الرحيم لن يتركها فريسة للآلام، وإنمـا سـيجعل من كـل لحظـة ألم قصرا من قصور السعادة الأبدية.

والمؤمنون أصحاب الدرجات العليا، لا يكتفون بأمثال ذلـك العوض، وإنما يحصل لهم نفس مـا حصـل للنسـوة عنـدما رأين يوسف عليه السلام، فشغلن بـالنظر إليـه، وتأمـل محاسـنه عن تلك الدماء التي كانت تسيل من جراحهم.. فإذا كان هذا حـالهم مـع مظهـر من مظـاهر الإبـداع الإلهي؛ بـل مـع صـورته فقـط؛ فكيف يكون حال من شغل بالبديع الذي اجتمع فيه كل جمال؟

وقـد روي في هـذا عن بعضـهم أنـه قـال: كـان رجـل بالمصيصة ذاهب نصفه الأسفل لم يبق منـه إلا روحـه في بعض جسده، ضرير على سرير مثقوب فدخل عليه داخل، فقـال لـه: كيف أصبحت؟ قال: (ملك الدنيا، منقطع إلى الله عز وجـل، مـا لي إليه من حاجة إلا أن يتوفاني على الإسلام)

ولهـذا؛ فـإن هـؤلاء لا ينظـرون إلى البلاء باعتبـاره محكـا لاختبارهم، أو آلة لتطهيرهم، وإنما ينظرون إليه باعتباره وسـيلة لوصلهم بربهم، وهو معنى صلاة الله تعالى على عبـاده الـواردة في قوله تعـالى: وَبَشِّـرِ الصَّـابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَـابَتْهُمْ مُصِـيبَةٌ قَـالُوا إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْـهِ رَاجِعُـونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَـلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَـةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَـدُونَ (البقـرة:155 ـ 157)؛ فالآيـة الكريمة تخبر عن صلاة الله على عبده الصابر على بلائه.. وهي تعني توفير فرص للتواصـل معـه.. ذلـك أن المـؤمن عنـد ألمـه يزداد تواصله مع ربه، ويزداد تواصل ربه معه، وهو مقدمة لنيـل الـدرجات العاليـة، والـتي لا تتمـيز بالمزيـد من النعيم، وإنمـا بالمزيد من القرب.

ولهـذا كـان من أعظم مـواهب اللـه تعـالى للنـاجحين في اختبارات البلاء تقريبهم من ربهم، والقـرب لا يسـاويه جـزاء ولا يطاوله ثواب، فهو إخراج من الظلمات إلى النور، ومن الحجاب إلى المشاهدة، كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ

(1) رواه الترمذي.

لِيُخْـرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ وَكَـانَ بِـالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمـاً﴾ (الأحزاب:43)؟

وبذلك؛ فإن البلاء نافذة عظيمة من نوافذ التعـرف على اللـه والتقـرب منـه، والتعـرف على اللـه هـو النـور الـذي يرفـع كـل الظلمات، والحق الذي يقضي على كل باطـل، كمـا عـبر عن ذلـك بعض الحكماء، فقال: (إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معهـا أن قل عملك؛ فإنه ما فتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليـك.. ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك، والأعمال أنت مهديها إليــه، وأين ما تهديه إليه مما هو مورده عليك)

وقد ورد في الحديث عن رسـول اللـه ﷺ مـا يـدل على هـذا المعنى، فقد قال: (إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة لم يبلغهـا بعمله ابتلاه الله في جسده أو في ماله أو في ولده، ثم صبره على ذلك، حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى)[1]

وقال: (مـا من مسـلم يصـاب بشـيء في جسـده فيصـبر إلا رفعه الله به درجة، وحط عنه به خطيئة)[2]

ولهذا أخبر أن (عظم الجزاء مع عظم البلاء)[3]، وقد سئل: أي الناس أشد بلاء؟ فقـال: (الأنبيـاء ثم الأمثـل فالأمثـل.. يبتلى الرجل على حسب دينـه؛ فـإن كـان دينـه صـلبا اشـتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه اللـه على حسـب دينـه فمـا يـبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)[4]

1() رواه أحمد وأبو داود وأبو يعلى والطبراني في الكبير والأوسط.
2() ابن جرير.
3() الترمذي وقال حديث حسن غريب.
4() أحمد والبخاري وابن ماجة والترمذي وابن حبان والحاكم.

الموت السعيد

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [المـوت السـعيد]، وهي تسمية مستغربة من أولئك الذين يقصـرون الحيـاة على الـدنيا، ويحسـبون أنهـا الحيـاة الوحيـدة، مـع أنهـا في حقيقتهـا أضـعف حلقات الحياة، وأوهنها وأشدها ضعفا.

ولهذا يـرد في النصـوص المقدسـة تسـمية هـذه الحيـاة بـ [الدنيا] أي الهينـة البسـيطة المملـوءة بالضـعف والقصـور، وأن هناك حياة أخرى أكمل وأجمل، وهي التي تكون بعد الموت.

ولـذلك؛ فـإن المـوت ليس نهايـة رحلـة الحيـاة، وإنمـا هـو الفاصـل بين حيـاتين: دنيـا وعليـا.. أو حيـاة مكـدرة مملـوءة بالشـقاء، وحيـاة أخـرى مملـوءة بالسـعادة.. لمن وفـر لنفسـه القابلية لذلك النوع من الحياة.

ولهذا يرسم الله تعالى صورة مغايرة لأولئك الـذين بُقـرت بطونهم، أو جُزت رقابهم في سبيل الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللـه أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـــوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَـــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِـرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـه وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169 - 171]

فهؤلاء فرحون في كل أحوالهم، متفائلون أمام ذلـك الـذي يراه الغافلون غولا يريد أن يجتث سعادتهم، فهو يتربص بهم كل حين، لينغص لهم كل لذة، ويكدر لهم كل صفو.

ولهذا يُقبل الصـالحون على المـوت إقبـال السـعداء، وقـد روي أنه لما مرض حذيفة مرضه الـذي مـات فيـه قيـل لـه: مـا تشتهي؟ قال: أشتهي الجنة. قالوا: فما تشتكي؟ قال: الــذنوب. قـالوا: أفلا نـدعو لـك الطـبيب؟ قـال: الطـبيب أمرضـني، لقـد عشت فيكم على خلال ثلاث: الفقر فيكم أحب إلي من الغــنى. والضــعة فيكم أحب إلي من الشــرف، وإن من حمــدني منكم ولامني في الحق سواء. ثم قال: أصبحنا؟ أصـبحنا؟ قـالوا: نعم. قـال: (اللهم، إني أعـوذ بـك من صـباح النـار، حـبيب جـاء على

فاقة، فلا أفلح من ندم) [1]

وروي أنه حين حضره الموت، قال: (مرحباً بـالموت وأهلاً، مرحبـاً بحـبيب جـاء على فاقـة، لا أفلح من نـدم، اللهم إني لم أحب الدنيا لحفر الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن لسـهر الليـل وظمأ الهواجر، وكثرة الركوع والسجود، والـذكر للـه عـز وجـل كثيراً، والجهاد في سبيله، ومزاحمة العلماء بالركب)

وروي أنه قال حينها: (اللهم، إنك تعلم لولا أني أرى أن هذا اليوم أول يـوم من أيـام الآخـرة، وآخـر يـوم من أيـام الـدنيا لم أتكلم بما أتكلم به، اللهم، إنك تعلم أني كنت أختـار الفقـر على الغنى، وأختار الذلة على العز، وأختار الموت على الحياة، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم)

وروي عن الإمـام علي أنـه كـان يقـول: (واللـه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه)[2]

وكان يطوف بين الصفين في غلالة رقيقـة، فقـال لـه ابنـه الحسين: ما هذا بـزي المحـاربين؟ فقـال لـه: (يـا بـني لا يبـالي أبوك على الموت سقط، أم سقط الموت عليه) [3]

وقـد قـال قبـل موتـه: (واللـه مـا فجـأني من المـوت وارد فكرهتـه، ولا طـالع أنكرتـه، ومـا كنت إلا كقـارب ورد، وطـالب وجد، وما عند الله خير للأبرار) [4]

وروي عن الإمام السجاد أنه كان يقول في دعائـه إذا ذكـر الموت: (اللهم اكفنا طـول الأمـل، وقصـره عنـا بصـدق العمـل حتى لا نأمل استتمام ساعة بعد ساعة ولا استيفاء يوم بعد يوم، ولا اتصـال نفس بنفس، ولا لحـوق قـدم بقـدم، وسـلمنا من غروره، وآمنـا من شـروره، وانصب الموت بين أيـدينا نصـبا، ولا تجعل ذكرنا له غبا، واجعل لنا من صالح الأعمال عملا نسـتبطئ معه المصير إليـك، ونحـرص لـه على وشـك اللحـاق بـك حـتى يكون الموت مأنسنا الذي نأنس به، ومألفنا الـذي نشـتاق إليـه، وحامتنـا الـتي نحب الـدنو منهـا فـإذا أوردتـه علينـا، وأنزلتـه بنـا فأسعدنا به زائرا، وآنسنا به قادما، ولا تشقنا بضيافته، ولا تخزنـا بزيارته، واجعلـه بابـا من أبـواب مغفرتـك، ومفتاحـا من مفـاتيح

1() مختصر تاريخ دمشق (6/ 262)
2() نهج البلاغة: ص ٥٢.
3() التفسير الكبير للفخر الرازي: ج ٣ ص ١٩٠.
4() نهج البلاغة: ص ٣٧٨ الرسالة 23.

رحمتـك.. أمتنـا مهتـدين غـير ضـالين طـائعين غـير مسـتكرهين تـائبين غـير عاصـين ولا مصـرين يـا ضـامن جـزاء المحسـنين، ومستصلح عمل المفسدين)(1)

وكـل هـذه المقـولات وغيرهـا تـدل على تصـور المؤمـنين للمـوت، والممتلئ بالمعـاني الجميلـة في نفس الـوقت الـذي يتشاءم منه الغافلون، ويمتلئـون حزنـا، لأنهم يـرون فيـه صـورة الوحش الذي ينقض على الحياة الوحيـدة الـتي يملكونهـا، بينمـا يـراه المؤمنـون في صـورة المـركب الـذي يحملهم إلى الحيـاة السعيدة التي تنتظرهم.

ولهذا اختبر الله تعالى إيمان اليهـود الـذين زعمـوا الولايـة لأنفسهم بقوله: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَـاءُ للـه مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الجمعـة: 6]، ثم أخبر أن إيمانهم الهزيل المملـوء بالتحريفـات لن يسـمح لهم بذلك؛ ذلك أنهم في قرارة نفوسـهم لا يؤمنـون إلا بتلـك الحيـاة البسـيطة الـتي يعيشـونها، قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَـهُ أَبَـدًا بِمَـا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: 7]

وأخبر عن سر ذلك في آية أخرى، فقـال: ﴿قُـلْ إِنْ كَـانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ الله خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 94]، أي أن المـوت لا يسـعد بـه إلا من يعرف الدار الآخرة، وما فيها من الحياة الحقيقية، أما من لا يعرفها؛ فيستحيل أن يراه إلا بتلك الصورة المملوءة بالتشاؤم.

ولهذا أخـبر اللـه تعـالى أن هـؤلاء اليهـود، ومن هـو مثلهم، يفضلون أي حياة مهما كـانت على المـوت، قـال تعـالى: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَــدًا بِمَــا قَــدَّمَتْ أَيْــدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (95) وَلَتَجِــدَنَّهُمْ أَحْــرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَـاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْــرَكُوا يَـوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 95، 96]

ولذلك كان الإيمان وتزكية النفس وتطهيرها هـو السـر في تحويل الموت هبة من الله تعالى لعبـاده، وليس غـولا أو وحشـا يجتث سعادتهم، وكيف يكون كذلك، وهم في اللحظة الـتي يـرد عليهم فيهـا يـرون مشـاهد الجنـان الـتي أعـدت لهم، ويشـمون ريحها، قال تعـالى: ﴿فَلَـوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُـومَ (83) وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُـرُونَ (84) وَنَحْنُ أَقْـرَبُ إِلَيْـهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِـرُونَ (85)

(1) الصحيفة السجادية، ص195.

فَلَـوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْـرَ مَـدِينِينَ (86) تَرْجِعُونَهَـا إِنْ كُنْتُمْ صَـادِقِينَ (87) فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (88) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (89) وَأَمَّا إِنْ كَـانَ مِنْ أَصْـحَابِ الْيَمِينِ (90) فَسَـلَامٌ لَـكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (91) وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَـذِّبِينَ الضَّـالِّينَ (92) فَنُـزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ (93) وَتَصْـلِيَةُ جَحِيمٍ (94) إِنَّ هَـذَا لَهُـوَ حَـقُّ الْيَقِينِ (95) فَسَـبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (96)﴾ [الواقعـة: 83 ـ 96]

ولهذا يرد في النصوص المقدسة وصف كيفيـة قبض أرواح المؤمنين بطريقة هينـة لينـة سـهلة، لأن النفس لا تنـازع أولئـك الملائكة الذين يريدون تحويلها إلى العالم الجديد الذي هيئ لها؟ وكيـف ينـازعونهم، وهم في اللحظـة الـتي تُقبض أرواحهم فيهـا يشاهدون عوالم الجمال، ويشمون ريحهـا، قـال تعـالى: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَـلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُـوا الْجَنَّةَ بِمَـا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 32]

وفي مقابل ذلك يصف الله تعالى النفوس المنازعة لربهـا، المعارضة له، وكيف تحاول أن تمنـع الملائكـة من أداء أدوارهـا، وكيف لا تفعل ذلك، وهي تتلقى منهم كل أصـناف الإهانـة، قـال تعـالى: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذْ يَتَـوَفَّى الَّذِينَ كَفَـرُوا الْمَلَائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 50، 51]

وقال في مشهد آخر: ﴿ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُـوا مَـا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْـرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْـرَارَهُمْ (26) فَكَيْـفَ إِذَا تَـوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَـةُ يَضْـرِبُونَ وُجُـوهَهُمْ وَأَدْبَـارَهُمْ (27) ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمُ اتَّبَعُـوا مَـا أَسْـخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُـوا رِضْـوَانَهُ فَأَحْبَـطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: 26 - 28]

وقال في مشهد آخر: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَـرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَـوْمَ تُجْـزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللـه غَيْـرَ الْحَـقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: 93]

وبذلك؛ فإن كل الإهانات الـتي تعـرض لهـا الصـادقون مـع الله، وكل التعب والكد الذي أصابهم سيزول مـع تلـك الكلمـات الطيبة التي يسمعونها من الملائكة، وهي تردد على مسـامعهم: ﴿يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِـيَةً مَرْضِـيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَـادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجـر: 27 -

[30

بخلاف غــيرهم؛ فــإن كــل التكريمــات الكاذبــة، والجــاه العريض، والأموال الضخمة، والقصور الفارهة، والحياة الرغــدة، لا تســاوي تلــك اللحظــات الــتي يســمعون فيهــا الملائكــة وهي تهينهم أو تضربهم أو تستل أرواحهم، وتنتزعها بشدة، كمــا قــال تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: 1]، وقد قال ابن مســعود وابن عبــاس في تفســيرها أن المــراد من [النازعــات غرقــا]: (الملائكــة، حين تــنزع أرواح بــني آدم، فمنهم من تأخــذ روحــه بعنف فتغرق في نزعها، ومنهم من تأخذ روحــه بســهولة وكأنمــا حلته من نشاط) (1)

وقال الإمام علي: ([وَالنَّازِعَــاتِ غَرْقــاً] هي الملائكــة تــنزع أرواح الكفّار، و[النَّاشِـطَاتِ نَشْـطاً] هي الملائكــة تنشــط أرواح الكفّار، ما بين الأظفار والجلد حتّى تخرجها، و[السَّابِحَاتِ سَبْحاً] الملائكة تسبح بـأرواح المؤمـنين السـماء والأرض، [فَالسَّـابِقَاتِ سَبْقاً] هي الملائكة تسبق بعضها بعضاً بأرواح المؤمنين إلى الله تعالى) (2)

وهذا لا يعني ـ أيها المريد الصادق ـ عــدم كراهيــة المــؤمن للموت.. فهو لا يكرهه لذاته، بــل إنــه يحبــه لذاتــه؛ فلا يمكن أن يصل إلى رغباته الحقيقية من دونه، وإنما يكره تعجيله لأنه يريد أن يضيف إلى نفسه المزيد من النقاء والطهارة والترقي.. وهــو لــذلك لا يســتغل الحيــاة ليمعن في لــذاتها، وإنمــا ليســتزيد من باقياتها الصالحات.

ومثاله في ذلــك مثــال من أتيح لــه أن يلقى محبوبــه الــذي اشتاق إليه، لكنه عندما يــؤذن لــه بالــدخول لا يســرع إلى ذلــك، وإنما يسرع إلى هندامه يهذبه، وشعره يمشطه ويكرمه، حتى لا يدخل على حبيبه في صوره لا تليــق بــه.. وقــد يتــوهم من يــراه كذلك أنــه يكــره لقــاءه، لأنــه لم يطلــع على قلبــه، وهــو يحــترق شوقا إليه.

وهكذا فإن سلوى المؤمن هي تلك اللحظــات الــتي يســمع فيهــا الملائكـــة، وهي تـــدعوه إلى لقـــاء ربـــه، ولقـــاء الأنبيـــاء والصالحين الذين كان متلهفا للقائهم.. ولقــاء ذلــك النعيم الــذي أعد له، والذي يزيل عنه كل تعب السفر الذي عانــاه في حياتــه

1() تفسير ابن كثير (8/ 312)
2() كنز العمال 2: 545 ح 4686.

الدنيا.

ولكنه مع ذلك لا يستعجله، ولا يطلب أن يمـوت في سـبيل الله في أسرع وقت، وإنما يطلب أن يحيا في سـبيل اللـه قبـل ذلك، حتى يستزيد من الأنوار والأعمال الصالحة التي ترفعه عند ربه، وتهيئ له منازل أكثر رفعة، وأعلى درجة.

الحياة الخالدة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الحيـاة الخالـدة]، وهـو مستنبط من حقيقـة من الحقـائق الكونيـة الكـبرى الـتي نصـت عليها النصوص المقدسة، وهي أن الله تعـالى لم يخلـق الحيـاة ليفنيهـا، ويزيلهـا، وإنمـا خلقهـا ليرفعهـا ويطورهـا ويزكيهـا، في مراحل كثيرة لا نهاية لها.

ولذلك كان في فطرة كل إنسان حب الخلود، والهرب من المـوت، وكراهيتـه، كمـا قـال تعـالى عن اليهـود والمشـركين: ﴿وَلَتَجِـدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَـاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْـرَكُوا يَـوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: 96]

واللــه تعــالى لم يعــاتبهم على حرصــهم على الحيــاة، أو كراهيتهم للموت، وإنما على انشغالهم بها عما خلقوا له، ولذلك عقب على ذلك بقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَـذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِـيرٌ بِمَـا يَعْمَلُـونَ﴾ [البقـرة: 96]، أي أن طلبهم للعمـر الطويـل ليس للقيـام بالأعمـال الصـالحة الـتي تزحـزحهم عن العذاب، وإنما للانشغال بالحياة، أي حياة، رغبة فيها.

ومثل ذلك أخبر الله تعـالى عن إبليس وأنـه دعـا آدم عليـه السلام للأكل من الشجرة، حتى يتحقق له الخلود، لأنه علم حبه له فطريا، قال تعالى: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَاآدَمُ هَـلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَـجَرَةِ الْخُلْـدِ وَمُلْـكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طـه: 120]، وقـال: ﴿فَوَسْـوَسَ لَهُمَـا الشَّـيْطَانُ لِيُبْـدِيَ لَهُمَـا مَـا وُورِيَ عَنْهُمَـا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَـا رَبُّكُمَـا عَنْ هَـذِهِ الشَّـجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَـا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: 20]

والواقع كله يدل على هذا[1]؛ ذلك أننا نجـد الشـيخ الكبـير، والذي قد هـرم جسـده، وانحـل أكـثر خلايـاه لا يـزال يملـك في نفسه ومشاعره كل همم الشباب ورغباتهم.. بل إننـا قـد نجـده يخطط ويدخر لسنوات كثيرة لا يطمـع لأن يعيش لهـا.. ولـو أن نفسه كانت تابعة لجسده، لمـا فكـر مثـل هـذا التفكـير، ولا هم بمثل هذه الهمم.

---

[1] ذكرنا الأدلة الكثيرة على ذلك في كتاب: أسرار ما بعد الموت بين الـدين والعقـل (ص: 19)، وما نذكره هنا من أدلة مقتبس منه، وببعض الاختصار والتلخيص.

وهكـذا نـرى الإنسـان يسـتعمل كـل الوسـائل للفـرار من الموت، ومن أسبابه.. وهذه الرغبة لا يمكن أن تكون ناشئة عن فراغ، ذلك أن لكل رغبة من الرغبات الموجـودة في النفس مـا يغطيها، ويلبي حاجتها؛ فـالعطش والرغبـة في المـاء دلتنـا على وجود الماء.. والرغبة في الطعام دلتنا على وجود كـل الأطعمـة التي نشتهيها، وبحسب الأذواق التي ركبت في طباعنـا.. وهكـذا نجد كل الرغبات لها ما يلبيها في الواقـع، وبـأنواع كثـيرة جـدا.. تفوق حد الضرورة والحاجة.

ومثـل هـذا الرغبـة في الخلـود والسـعادة الأبديـة.. فهي موجودة فينا، ويكذب على نفسه من يزعم عدم إحساسه بهـا.. ولذلك كانت هذه الرغبة دليلا على وجود ما يمثلهـا في الواقـع.. مثلما نستدل بوجود الماء والطعام وكل ما نشعر بحاجتنا إليه.

بل إن الشعور بالرغبة في الخلود أعظم من كل الرغبات.. ولذلك لم يؤسس الطب ولا كل العلوم المرتبطة به إلا للسـعي لتحقيق بعض متطلبات تلك الرغبة.

وقد أشـار إلى هـذا المعـنى بعض الحكمـاء، فقـال: (يـرى العلماء المحققون أن أفكار البشر وتصـوراتِه الإنسـانيةَ الـتي لا تتناهى المتولّـدةَ من آمالـه غـير المتناهيـة، الحاصـلةَ من ميولـه التي لا تُحد، الناشئةَ من قابلياته غير المحصورة، المندمجــةَ في استعداداته الفطرية غير المحدودة، المندرجةَ في جوهر روحــه، كلٌّ منها تمدّ أصابعَها فتشير وتحـدُق ببصـرِها فتتوجّـه إلى عـالم السعادة الأبدية وراء عالم الشهادة هذا. فالفطرةُ التي لا تكذب أبدا والتي فيها مـا فيهـا من ميـلٍ شـديد قطعي لا يـتزحزحُ إلى السعادة الأخرويـة الخالـدة تعطي للوجـدان حدسـا قطعيـا على تحقق الحياةِ الأخرى والسعادة الأبدية) (1)

ويقول: (نعم، إنّ دارَ الـدنيا القصـيرة هـذه لا تكفي ــ كمـا أنها ليست ظرفا ـ لإظهار ما لا يحدّ من الاستعدادات المندمجــة في روح الإنسـان وإثمارِهـا، فلابـدّ أن يُرسَـل هـذا الإنسـان إلى عالم آخر.. نعم، إنّ جوهر الإنسان عظيم، لذا فهو رمـز للأبديـة ومرشّـح لهـا.. وإنّ ماهيتَـه عاليـة وراقيـة؛ لـذا أصـبحت جنايتُـه عظيمة؛ فلا يشبه الكائنـات الأخـرى، وإن نظامَـه دقيـق ورائـع، فلن تكونَ نهايتُه دون نظام، ولن يُهمَل ويذهب عبثـا، ولن يُحكم عليـه بالفنـاء المطلـق ويهـرب إلى العـدم. وإنمـا تفتح جهنمُ

(1) الكلمات، ص 607.

أفواهَها فاغرةً.. تنتظره.. والجنة تبسط ذراعيها لاحتضانه..) (2)

وهذه ليست عقدة نفسية كما يتوهم الذين يجعلون من الحياة بعد الموت نوعا من التفكير الرغبوي، ذلك أن هذه الرغبة متفق عليها بين البشر جميعا، وفي جميع العصور، وهي تدل على أن لها واقعا لم نكتشفه لأننا لم نرحل بعد إلى ذلك العالم.

ولو كانت تفكيرا رغبويا لانحصرت في أشخاص دون أشخاص، أو طائفة دون طائفة، مثلما نرى الكثير من النزغات الشاذة، أو العقد النفسية التي يحاول المرضى أن يحولوا منها حقائق واقعية، ولو كانت كذلك لاشترك البشر جميعا في الانفعال لها، مثلما يشتركون في عطشهم وجوعهم وأشواقهم المختلفة.

ومع أن الخلق جميعا يشتركون في هذه الموهبة إلا أن المؤمنين وحدهم من يلتذ بها حق اللذة، ويسعد بها حق السعادة، ذلك أن الخلود ليس مقصودا لذاته، وإنما هو مقصود بقدر ما يتحقق فيه من الرغبات؛ فإن كانت الحياة سببا لنقض تلك الرغبات فُضل الموت عليها، كما قال تعالى حكاية على الظالمين في الآخرة: ﴿ وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ﴾ [الزخرف: 77]

ولهذا اعتبر الله تعالى الخلود في حقهم نوعا من العذاب المتناسب مع أعمالهم وطبائعهم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر: 36]

وفي مقابل ذلك يذكر الله تعالى الخلود باعتباره نوعا من أنواع نعيم أهل الجنة، وفي آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 15]، وقال: ﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ الله وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: 198]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: 57]

---

(2) المرجع السابق، ص 612.

وغيرها من الآيات الكريمة التي تجعل الخلود من نعم الله الكبرى على المؤمنين، وذلك متوافق مع ما تتذوقه الفطر السليمة، ذلك أن الموت هو المكدر الأعظم للسعادة، ولا يمكن أن يهنأ له عيش حتى لو كان في الجنة، إن كان يعلم أن الموت يتربص به، وينتظره، وأن الأيام لا تزيده منه إلا قربا.

ولذلك ورد في الحديث أن الله تعالى يذكر عباده كل حين بخلودهم، لتزداد بذلك فرحتهم وسعادتهم، قال ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟.. فيشرئبون، فينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت.. فيقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟.. فيشرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت.. فيؤمر به، فيذبح، ويقال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39]، ثم أشار ﷺ بيده، وقال: (أهل الدنيا في غفلة الدنيا) (1)

وفي رواية أخرى وصف رسول الله ﷺ فرح أهل الجنة، وحزن أهل النار، فقال: (ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتا من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتا من شهقة ماتوا) (2)

وهذه الرواية تدل على أن القصد من هذا المشهد هو توفير المزيد من السرور للمحسنين، والمزيد من الحزن للمتألمين، وهو ما حصل بالفعل..

ولهذا أيضا نجد القرآن الكريم لا يكتفي بذكر خيرية الحياة الأخرى، وكونها أفضل من حيث النعيم من الحياة الدنيا، ولكنه يضيف إليها البقاء، والذي يُفتقد في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: 131]، وقال: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: 60]، وقال: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ

1() رواه البخاري (4453) ومسلم (2849)
2() رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير ابن كثير (5/ 234)

آمَنُــوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُــونَ﴾ [الشــورى: 36]، وقــال: ﴿ بَــلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِـرَةُ خَيْـرٌ وَأَبْقَى ﴾ [الأعلى: 16، 17]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تـدعو العقـول إلى التأمـل والمقارنة بين الحياة الدنيا الممتلئـة بالغصـص والكـدر ثم تنتهي بـالموت.. والحيـاة الأخـرى المملـوءة بالسـعادة والنعيم، ثم لا موت فيها، ولا فناء.. بل هي باقية أبد الآباد.

وإياك ـ أيها المريد الصادق ـ بعد هذا أن يخطـر على بالـك مـا يخطـر على بـال الغـافلين الـذين تركـوا قلـوبهم لوسـاوس الشـياطين، الــذين أوهمــوهم أن الخلــود قــد يســبب الملــل والسآمة؛ فكل ذلك غير صحيح، والـذين يـرددون ذلـك يرددونـه بناء على ذلك التثاقل الشديد الذي يربطهم بالدنيا، حتى صـاروا يرون أنها الجنة، ويـرون أنـه لا يمكن للـه تعـالى أن يخلـق دارا أجمل، ولا أكمل منها.

وربما يكون مصدر هـذه الشـبهة هـو ذلـك التعلـق والهيـام بـالانحراف أو المنحـرفين، ولـذلك يتوهمـون أنهم في الجنـة لن يجدوا الفرصة للقيام بكل تلك الانحرافـات الـتي كـانوا يعجبـون بها في الدنيا.

أو ربما يكون مصدر هذه الشبهة ذلـك الحب للصـراع ومـا يرتبط به.. وقد ذكر الله تعـالى أن الجنـة ليس فيهـا شـيء من الصراع، لأن كل من فيها طيبون ومتشاكلون ومتجانسـون؛ فهم ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْـوًا وَلَا تَأْثِيمًـا (25) إِلَّا قِيلًا سَـلَامًا سَـلَامًا ﴾ [الواقعة: 25، 26]

ومهما كان مصدر هذه الشبهة، فهو مرتبـط بهـذه النشـأة، وبتلك النفس التي أملت تلك الشبهة، أمـا في النشـأة الأخـرى، وبعد التطهيرات الكثيرة الـتي تمـر بهـا النفس ابتـداء من عـالم الـبرزخ؛ فإنهـا سـتؤهل لتلـك الحيـاة الجديـدة، الـتي لا تحب إلا السلام، وتكره كل أصناف اللغو.

ولذلك نـرى في الـدنيا الشـاب في مرحلـة المراهقـة يحن لكل أصناف الصـخب، لكن العمـر إن امتـد بـه، ومـر بالتجـارب الكثيرة، تجده أكثر ميلانا إلى الهدوء والسلام، وربمـا يختـار بيتـا ريفيا يقضي فيه باقي عمره حرصا على الحياة الهادئة.

بالإضافة إلى هذا، فإن أوهامنـا عن الجنـة ناشـئة من تلـك التصورات البسيطة التي نتصورها بهـا، وهي أن يكـون لسـاكنها

قصر أو مجموعة قصور، يعيش في وسطها، دون أن يتحرك أي حركة، أو تكون له أي علاقة، أو يسمع بأي أحداث، والأمر مختلف تماما.. فالجنة فيها كل ذلك.

ولهذا يصف الله تعالى الجنة بكونها دار الرضوان التي يعشقها أهلها، ولا يبغون عنها أي بديل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (107) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: 107، 108]

ولهذا؛ فإن تلك الحركة التي كانت في الدنيا، والتي يترقى فيها الإنسان من مرتبة إلى مرتبة، ستظل هناك أيضا، لأنها من مقتضيات ربوبية الله لعباده، ولذلك قد يترقى أهل الجنة بحسب مواقفهم وسلوكاتهم والاختبارات التي يتعرضون لها، فينزلون مراتب أعلى من المراتب التي كانوا فيها، وكل ذلك مما ينفي السأم والملل.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى بعض هذه المعاني في قوله: (إن في الجنة لسوقا ما فيها شراء ولا بيع إلا الصور من الرجال والنساء، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها)(1)

وفي رواية: (إن لأهل الجنة سوقا، يأتونها كل جمعة، فيها كثبان المسك، فإذا خرجوا إليها هبت الريح؛ فتملأ وجوههم وثيابهم وبيوتهم مسكا، فيزدادون حسنا وجمالا، قال: فيأتون أهليهم فيقولون: لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا، ويقولون لهن: وأنتم قد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا)(2)

ولذلك فإن نعيم الجنة متجدد، ولا نهاية لتجدده، ذلك أن قدرة الله المطلقة، وإبداعه العظيم لا نهاية له، ولذلك يعيش أهل الجنة في كل لحظة سعادة جديدة، وكيف لا يشعرون بذلك، وهم دائمو التواصل مع الله.

ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25]

وقد ذكر بعض العلماء في تفسير هذه الآية أنه (عندما يؤتى بالثمار إلى أهل الجنة ثانية يقولون: هذا الذي تناولناه من

(1) الترمذي رقم (2553)
(2) رواه مسلم 8/145 (7248)

قبل، ولكنهم حين يأكلون هذه الثمار يجدون فيها طعما جديدا ولذة أخرى، فالعنب أو التفاح الذي نتناوله في هذه الحياة الدنيا مثلا له في كل مرة نأكله نفس طعم المرة السابقة، أما ثمار الجنة فلها في كل مرة طعم وإن تشابهت أشكالها، وهذه من إمتيازات ذلك العالم الذي يبدو أنه خال من كل تكرار)[1]

ومنها أن (المقصود من ذلك أنهم حين يرون ثمار الجنة يلقونها شبيهة بثمار هذه الدنيا، فيأنسون بها ولا تكون غريبة عليهم، ولكنهم حين يتناولونها يجدون فيها طعما جديدا لذيذا)

أما قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: 25]، فلا يعني التشابه في الطعم أو الشكل، وإنما يعني (متشابها في الجودة والجمال؛ فهذه الثمار بأجمعها فاخرة بحيث لا يمكن ترجيح إحداها على الأخرى، خلافا لثمار هذا العالم المختلفة في درجة النضج والرائحة واللون والطعم)

بالإضافة إلى ذلك كله؛ فقد ذكر بعض العلماء حقيقة الملل الذي يصيبنا في الحياة الدنيا وسببه، فقال: (الملل هو هرمون يفرزه الجسم لكي يتوقف عن الاستجابة للمثير بعد الاكتفاء بكمية معينة.. وبذلك فإنه ليس حالة توقف الاستثارة والمتعة، ولكنه هو هرمون يفرز في المخ ليوقف الإنسان عند حده ويقول له (كفى).. ذلك أنه عندما يكون أحد الأشخاص جائعا، ويتوق لأكل الأطعمة الحلوة مثل الكعك أو البسكويت أو غيره.. بعد ان يبدأ الشخص بوضع الطعام في فمه ويتذوق قطعة أولى يشعر باستثارة بالغة ومتعة فائقة، ومع توالي القطع الأخرى يشعر ببعض المتعة لكنها تقل تدريجيا) [2]

والسبب في ذلك أن (جسم الانسان مخلوق ومصمم لكي يحافظ على توازنه؛ فعندما ترتفع الحرارة يتعرق الجسم للابقاء على درجة البرودة، وعندما يقوم الشخص بحمية غذائية لانقاص الوزن يقوم الجسم باستخدام الدهون الزائدة لتوليد الطاقة وابقاء الجسم على قيد الحياة، كذلك عندما يدخل فايروس يبدأ بتكوين خلايا مضادة وهكذا.. وما يحدث في حالة الأكل هو أنه بعد كمية معنية من أكل الطعام يقوم المخ بإفراز مادة مضادة للمادة التي تسبب الاستثارة لكي تعادل أو تحايد المادة

---

[1] تفسير الأمثل، (1/ 130)

[2] انظر مقالا بعنوان: قد أشعر بالملل في الحياة الاخرة، محمد أحمد السلامي، منتدى التوحيد.

المسـببة لهـا؛ فيشـعر الشـخص بالاكتفـاء والملـل من الطعم ويتوقف عن ذلك، ويبدو هذا واضحا اذا قارنت الأطعمـة الحلـوة والمالحة؛ فتجد أن المنفعة الحدية فى الأطعمـة الحلـوة أسـرع من المالحـة لأن الإكثـار منهـا يضـر الجسـم، ونفس المنطـق ينطبق على المـاء؛ فالشـخص العطشـان عنـدما يشـرب المـاء يشعر باستمتاع كبـير في أول ميليجرامـات من المـاء، وتسـتمر الاسـتثارة بالانخفـاض كلمـا اسـتمر في الشـرب إلى أن يصـل لمرحلة لايقبل معها مزيدا من الماء بتاتا، بل يصـبح طعم المـاء كأنه سم افعى)

ونتيجة لهذا، فإنه (إذا كان الخـالق قـادرا على كـل شـيء، ويقـدر أن يغـير كيميائـات المخ؛ فعنـدها لن يشـعر أي شـخص بالممل من أصغر حالة إمتاعية، وقـد تسـتمر معـه لسـاعات أو أيام أو سنين.. ولا ننسى أن المشاعر السلبية جميعها قد ربطها العلماء بهرمونات معينة تعكر صفو حياة الانسـان، ولـو اعتقـدنا أن الخالق قادر على خلق مخ لايفرز المـواد الكيميائيـة الضـارة المسببة للمشاعر السلبية، ومن ضمنها الملل، فسـيكون لـديك شخص سعيد إلى الأبد)

وهذا نوع من التقـريب لمـا يكـون هنـاك، والحقيقـة أعظم من ذلــك كلــه.. فلــذلك ســلم لربــك، واعلم أن ســعادتك في التسليم له.. واحذر أن تقضي أيامـك المحـدودة في الـدنيا على سعادتك العظيمـة الخالـدة في الآخـرة.. فكـل ثانيـة من ثـواني الدنيا يمكنك أن تشتري بها مئات الملايير من سنين الآخرة.. بل أعظم من ذلــك.. فلا يمكن مقارنـــة المحـــدود بـــاللا محـــدود، والمنتهي باللا منتهي.

الفأل الصالح

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الفـأل الصـالح]، وهي تسمية سماها بها رسول اللـه ﷺ، ففي الحـديث: (لا عـدوى ولا طيرة، وأحب الفأل الصالح) [1]

وقال ﷺ: (لا طيرة، وخيرها الفأل)، قيـل: يـا رسـول اللـه. وما الفأل؟ قال: (الكلمة الصّالحة يسمعها أحدكم) [2]

والمقصود بالفأل الصالح النظرة الإيجابية للحياة، والتطلـع الجميل للمستقبل، وتقليل كل ما نراه من آلام، واعتبارها آلامـا محدودة موقوتة، وأن الخير في طياتها، والرحمة في جنباتها..

ولا يمكن أن ينال هذه المعاني الممتلئة بالسعادة إلا أولئك الذين اطمأنت نفوسهم لربهم، ووثقوا به، وسلموا أمورهم إليه، بعد أن زكوا نفوسهم من كل تلك المثالب التي تملؤهـا بـالحزن والكآبة والأسى، والاستماع لوساوس الشيطان الذي يبذر بـذور التشـاؤم في المسـتمعين لـه، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 175]

وقد ذكر الله تعالى قبل تلـك الآيـة الكريمـة أولئـك﴿الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانًـا وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيـلُ ﴾ [آل عمـران: 173]؛ فهـؤلاء المؤمـنين، وفي ذروة المـؤامرات الـتي تحـاك ضـدهم، والتي تدعوهم إلى اليأس والتشـاؤم كـانوا ينظـرون إلى فضـل الله العظيم، ويوقنون أن اللـه تعـالى سـيكون معهم، وذلـك مـا ملأهم بالأمل، بدل الإحباط الذي أراد عدوهم نشره فيهم.

وقد ذكر الله تعالى نتيجـة ذلـك الاسـتناد إلى اللـه، فقـال: ﴿فَـانْقَلَبُوا بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـه وَفَضْـلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُـوا رِضْوَانَ اللـه وَاللَّهُ ذُو فَضْـلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمـران: 174]، وهي تشير إلى أن اللـه تعـالى يعامـل عبـاده بحسـب معـاملتهم لـه، وحسن ظنهم به؛ فالذي وثق في الله وفضله سينال ثواب ذلـك الظن في الدنيا قبل الآخرة.

1() مسلم (2223) (114)

2() البخاري (5755) ومسلم (2223)

ولهذا ورد النهي عن كل ما يـدعو إلى التشـاؤم، والنظـرة السلبية للأمور، وأول ذلك القنـوط من رحمـة اللـه تعـالى، كمـا قال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللـه إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الـذُّنُوبَ جَمِيعًـا إِنَّهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53]؛ فالآية الكريمة ــ كما تـدعو إلى الرجـوع إلى الله ـ تدعو إلى تجاوز الذنوب، وعدم إعطائها فـوق حقها، بحيث تؤثر في علاقة صاحبها بربه.

ذلك أن اليأس والقنوط من رحمة اللـه، قـد تكـون أخطـر من الذنوب نفسها، كما قال تعـالى: ﴿ وَلَا تَيْأَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللـه إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ الله إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87]

وسـر ذلـك يعـود إلى أن اليـأس والقنـوط نـاتج عن سـوء الظن باللـه تعـالى، وهـو علامـة على الجهـل بـه، ذلـك أننـا في العادة لا نسيء الظن إلا بالضعيف العاجز، أو بالقاسي الظـالم، أو بالذي يعـد ولا يفي، أو يعاهـد ثم يغـدر بـك.. وهكـذا لا يكـون سـوء الظن إلا عن علـة نجـدها في الـذين وقفنـا منهم ذلـك الموقـف، ولـذلك قـال الإمـام علي لرجـل أخرجـه الخـوف إلى القنوط لكثرة ذنوبـه:(يـا هـذا يأسـك من رحمـة اللـه أعظم من ذنوبك)

ولهذا ورد الأمر بتحبيب الله إلى عبـاده، وذلـك لا يكـون إلا بذكرفضـله ورحمتـه، وقـد روي أن اللـه تعـالى أوحى إلى داود عليـه السـلام: (أحبـني وأحب من يحبـني وحببـني إلى خلقي)، فقال:(يا رب، كيف أحببك إلى خلقك؟)، قال:(اذكـرني بالحسـن الجميل، واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك، فـإنهم لا يعرفـون مني إلا الجميل)

ولهذا أرجـع اللـه تعـالى سـبب الكفـر والضـلال إلى سـوء الظن باللــه، فقــال:﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِـرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (فصلت:23)، وقـال:﴿ بَـلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُـولُ وَالْمُؤْمِنُـونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَـداً وَزُيِّنَ ذَلِـكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ (الفتح:12)

وذلك لأن استشعار رحمة الله يحبب في لقاء اللـه، بخلاف اليأس من رحمته، فإن الإنسان يكره لقاء من لا يحبه، قـال ﷺ: (إن شئتم أنبأتكم: ما أول ما يقـول اللـه تعـالى للمؤمـنين يـوم القيامة، وما أول ما يقولون له؟ قلنا: نعم يا رسـول اللـه. قـال: إن الله تعالى يقول للمؤمنين هل أحببتم لقائي؟ فيقولـون: نعم

يا ربنا. فيقول: لم؟ فيقولون رجونـا عفـوك ومغفرتـك، فيقـول: قد وجبت لكم مغفرتي) [1]

ولهـذا ورد الأمـر بحسـن الظن باللـه، وخاصـة في تلـك المواقـف الـتي تبعث على التشـاؤم، وممـا يـروى في هـذا أن رسول الله ﷺ دخـل على شـاب وهـو في المـوت فقـال: كيـف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وإني أخاف ذنوبي، فقـال ﷺ:(لا يجتمعان في قلب عبد في مثـل هـذا المـوطن إلا أعطـاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف) [2]

وقـال ﷺ: (لا يمـوتن أحـدكم إلا وهـو يحسـن الظن باللـه تعالى) [3]

وأخبر ﷺ عن تأثير حسن الظن بالله ـ والذي هـو الأسـاس الـذي يقـوم عليـه التفـاؤل الصـالح ــ في الـدعوة إلى العمـل والسلوك، فقال: (حسن الظن من حسن العبادة) [4]، وقال ﷺ: (إن أفضل العبادات حسن الظن بالله تعالى، يقول اللـه لعبـاده أنا عند ظنك بي) [5]

وسر ذلك يعـود إلى أن فضـل اللـه تعـالى مرتبـط بقابليـة العبد له، كما يشير إلى ذلك قوله ﷺ: (قال الله تعالى: أنـا عنـد ظن عبدي بي وأنا معه حيث يذكرني) [6]، وفي رواية:(قال اللـه جـل وعلا: أنـا عنـد ظن عبـدي بي إن ظن خـيرا فلـه، وإن ظن شرا فله) [7]

وأخبر ﷺ عن تـأثير حسـن الظن باللـه في الآخـرة بقولـه: (أمر الله تعالى بعبد إلى النـار فلمـا وقـف على شـفيرها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك لحسنا، فقال الله تعالى ردوه، أنا عند ظن عبدي بي) [8]

ومثل ذلك نُهي عن التشاؤم والتطير، وهـو نـاتج أيضـا عن سـوء المعرفـة باللـه، وسـوء الظن بـه، وتـوهم أن هنـاك من يشـترك معـه في التـدبير والتـأثير، ولهـذا وصـف اللـه تعـالى المشركين بالتطير؛ فقال حاكيا عن قول ثمود لنبيها صالح عليـه

1() رواه أحمد الطبراني في الكبير وفيه عبيد الله بن زحر وهو ضعيف.
2() رواه الترمذي، وقال: غريب.
3() رواه أحمد ومسلم.
4() رواه أبو داود والحاكم.
5() رواه البغوي.
6() رواه البخاري.
7() رواه أحمد.
8() رواه البيهقي.

السلام: اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ [النمل: 47]
وقد رد عليهم صالح عليه السلام، فقال: طَائِرُكُمْ عِنْدَ الله بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ [النمل: 47]، أي أن كل شيء من الله، وبالله؛ فهو الذي بيده مقادير كل شيء.

ومثل ذلك أخبر عن قوم موسى عليه السلام أنهم إِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ [الأعراف: 131]، أي أنهم ينسبون ما يأتيهم من الخير لأنفسهم، بينما كانوا يلحقون المصائب بموسى عليه السلام ومن معه.

وقد رد الله تعالى عليهم بقوله: أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [الأعراف: 131]، أي أن مصدر الخير والشر الناتج عن الفأل أو الشؤم إنما هو من عند الله بسبب شؤمكم وعدم توكلكم على الله وحده.

ومثل ذلك أخبر عن أهل القرية المكذبين للمرسلين، أنهم قالوا لهم: إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ [يس: 18]، وقد رد عليهم المرسلون بقولهم: طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ [يس: 19]، أي أن حظكم وما أصابكم من شرك بسبب أفعالكم، وكفركم بربكم، وليس بسببنا، ولا من أجلنا، بل ببغيكم وعدوانكم.

ولهذا، فإن جاز لامرئ أن يتشاءم؛ فليتشاءم بذنوبه وجرائمه التي هي سبب كل بلاء، وفي إمكانه أن يتوقف منها، ليملأ حياته بالتفاؤل، كما قال تعالى: وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ [الشورى: 30]

ولهذا نهى ﷺ عن التشاؤم بأي شيء أو سبه أو لعنه، أو النظر إليه نظرة سيئة، لأن ذلك دال على الجهل بالله؛ ولهذا نهى عن سب الريح، وأخبر بأنها لا تتحرك حسب رغبتها، وإنما تتحرك بهدي الوحي الإلهي الذي يسير كل شيء، فقد روي أن رجلا لعن الريح عند النبي ﷺ فقال:(لا تلعن الريح فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه)[1]

وعلمنا ﷺ الطريقة الصحيحة في التعامل معها، فقال: (الريح من روح الله، فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من

---
[1] رواه أبو داود والترمذي.

شرها)(1)

ومثل ذلك ورد النهي عن سب الدهر والذي يعـني تقلبـات الحوادث، قال ﷺ: (قـال اللـه عـز وجـل يؤذيـني ابن آدم يسـب الدهر وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار)(2)

وقال:(لا تسموا العنب الكرم ولا تقولوا خيبـة الـدهر؛ فـإن الله هو الدهر)(3)

وقـال: (إن اللـه عـز وجـل قـال استقرضـت عبـدي فلم يقرضني وسبني عبدي ولا يدري يقول: وادهـراه وادهـراه، وأنـا الدهر)(4)

ومثل ذلك ورد النهي عن كل أنـواع التطـير والتشـاؤم إمـا بالأيام أو بالأشهر أو بغيرها، وكـل مـا ورد في ذلـك من روايـات مختلـق ومدسـوس ومتنـاقض مـع مـا ورد في القـرآن الكـريم والسنة الصـحيحة(5)، وقـد روي أن بعضـهم كـان يتشـاءم بيـوم الأربعاء، فكتب إلى الإمام الرضا يسـأله عن الخـروج فيـه، فـرد عليه الإمـام: (من خـرج يـوم الأربعـاء لا يـدور خلافـا على أهـل الطيرة، وقي من كل آفة، وعوفي من كل عاهة، وقضى الله له حاجته)(6)

ولذلك احذر ـ أيها المريد الصادق ــ من أن تقـع فيمـا يقـع فيه المتطيرون من تلك الطقوس الشركية التي يمارسـونها في أشهر أو أيام معينة، متـوهمين أنهـا تصـرف عنهم البلاء والشـر؛ فالأيام بيد الله، واللـه تعـالى هـو الـذي يـدير كـل شـيء.. ومن اعتمد عليه وُقي من كل سوء، وأمن من كل آفة.

ولذلك ليس هناك ما يـدعو إلى التشـاؤم سـوى المعاصـي والذنوب، والتي تضع الحجب بين العبـد وربـه.. وهي ممـا يمكن التخلص منـه، أمـا مـا عـدا ذلـك؛ فأوهـام شـيطانية، ووسـاوس نفسية، ولا علاقة لها بالواقع.

1() رواه البخاري في الأدب، وأبو داود والحاكم.

2() رواه البخاري ومسلم.

3() رواه مسلم.

4() رواه ابن جرير والحاكم.

5() وقد قال بعضهم في ذلك: (وردت روايـات كثـيرة عن الرسـول الكـريم ﷺ وأهـل بيته تنسب النحس والشؤم لبعض الأيام والشهور إلا أن هذه الروايات على كثرتها إمـا أن تكون ضعيفة السند بل في أشد مراتب الضعف، وإمـا أن تكـون موضـوعة اختلقهـا بعض الكذابين ونسبها للرسول ﷺ أو أحد الأئمة من أهل البيت)

6() بحار الأنوار (59/ 43)

الصحبة الصالحة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الصـحبة الصـالحة]، وأقصـد بهـا مـا وردت الإشـارة إليـه في قولـه ﷺ: (إنمـا مثـل الجليس الصالح وجليس السـوء كحامـل المسـك ونـافخ الكـير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منـه، وإمـا أن تجـد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إمـا أن يحـرق ثيابـك، وإمـا أن تجـد منه ريحا منتنة)(1)

فهذا الحديث يشـير إلى أن الظفـر بالصـاحب الصـالح من النعم العظيمة، وخاصة إذا ما قورن بأصـحاب السـوء؛ فهـو قـد يـؤثر فيـه وفي سـلوكه، ويكـون عونـا لـه إذا مـا احتـاج إليـه، ومستشارا صادقا وأمينا إذا طلب مشورته.. وبذلك يكـون عونـا له في دينه ودنياه.

وفوق ذلك يكسـبه السـمعة الطيبـة، بخلاف تلـك السـمعة التي يكسبها أصحاب السوء، كمـا ورد في الحـديث عن رسـول الله ﷺ: (الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل)(2)

وفوق ذلك كله، ينال أجر صـحبته لـذلك الصـاحب الصـالح، والتي عبر عنها رسول الله ﷺ، فقال:(إن من عبـاد اللـه لأناسـا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشـهداء يـوم القيامـة بمكانهم من الله)، قـالوا يـا رسـول اللـه تخبرنـا من هم؟ قـال: (هم قـوم تحـابوا بـروح اللـه على غـير أرحـام بينهم ولا أمـوال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم على نـور، لا يخـافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس)، وقـرأ هـذه الآيـة: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (يونس: 62) (3)

فهذا الحديث يشير إلى أن الصحبة الصالحة تبقى مستمرة في الآخرة، كما كانت في الدنيا، لأنها كانت في اللـه، ومـا كـان لله دام واتصل، ومـا كـان لغـيره انقطـع وانفصـل، بخلاف تلـك الصحبة السيئة التي إن لم تنقطع في الدنيا بأنواع الخصـومات؛ فإنها تنقطع في الآخرة، بل تتحول إلى عداوة وصراع، كما قـال

(1) رواه البخاري ومسلم.
(2) رواه أبو داود.
(3) رواه الطبراني بإسناد حسن.

تعـــــالى: الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُـــــهُمْ لِبَعْضٍ عَـــــدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ [الزخرف: 67]

وذكــر اللــه تعــالى نموذجــا عن ندامــة أهــل النــار بســبب اختيارهم لأصحاب السوء، فقال: وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْـهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَـا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا [الفرقان: 27 - 29]

وهذه النعمة ـ أيها المريـد الصـادق ـــ ليسـت قاصـرة على أولئك الذين رزقهم الله تعالى أصحابا من عالم الشهادة، أولئـك الذين وصفهم رسول اللـه ﷺ بقولـه ـــ لمن سـأله: أي جلسـائنا خـير؟ ـــ: (من ذكـركم اللــه رؤيتــه، وزاد في علمكم منطقــه، وذكركم في الآخرة عمله)(1)

أو ذلك الذي وصفه الإمام علي بقولـه ـــ وهـو يصـف بعض إخوانه ـ: (كان لي فيمـا مضـى أخ في اللّـه، وكـان يعظمـه في عيني: صغر الدّنيا في عينه، وكان خارجا من سلطان بطنــه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان أكثر دهره صامتا، فإن قال بذّ القائلين، ونقع غليل السّائلين، وكـان ضـعيفا مستضـعفا، فإن جاء الجدّ فهو ليث غاب، وصلّ واد، لا يدلي بحجّة حتّى يأتي قاضـيا، وكـان لا يلـوم أحـدا على مـا يجـد العـذر في مثلـه حتّى يسمع اعتذاره، وكان لا يشكو وجعا إلّا عند برئه، وكان يقول مــا يفعل، ولا يقول ما لا يفعل، وكـان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السّكوت، وكان على ما يسمع أحرص منــه على أن يتكلّم، وكان إذا بدهه أمران ينظر أيّهما أقرب إلى الهوى فيخالفه) (2)

وإنمــا يشــمل غــيرهم أيضــا ممن هم في عــالم الغيب، وخاصــة إذا انقطعت بــالمؤمن الســبل، ولم يجــد من أصــدقاء الشهادة من تتوفر فيهم تلك الصفات..

وأولهم الله تعالى؛ والذي أخـبر عن حضـوره المطلـق مـع كل شيء، وحضوره الخاص مع المؤمنين، كما قال تعالى: إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُــدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَــيْئًا وَلَــوْ كَثُــرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَــعَ الْمُؤْمِنِينَ [الأنفال: 19]

أو حضوره مع المتقين والمحسنين، كما قـال تعـالى: إِنَّ

1() رواه أبو يعلى.
2() نهج البلاغة: الحكمة (289)

اللَّهَ مَـعَ الَّذِينَ اتَّقَـوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِـنُونَ [النحـل: 128]، وقال: وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ [البقرة: 194]

أو حضوره مـع الصـابرين، كمـا قـال تعـالى: يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَـعَ الصَّـابِرِينَ [البقـرة: 153]

وهـذا الحضـور لـه تـأثيره الكبـير في تـنزل السـكينة والطمأنينة، وما يصحبهما من السعادة، كمـا قـال تعـالى: إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَـارِ إِذْ يَقُـولُ لِصَـاحِبِهِ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَـا فَـأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْـهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُـودٍ لَمْ تَرَوْهَـا وَجَعَـلَ كَلِمَـةَ الَّذِينَ كَفَـرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [التوبة: 40]

ويمكنـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ أن تحصـل على هـذه الصـحبة الشـريفة من خلال ذكـرك لربـك، وتلاوتـك لكلماتـه، ومناجاتك له وشعورك بصحبتك لـه، كمـا قـال بعض الصـالحين يخاطب ربه:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي — وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليس مؤانس — وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنـه قـال: (إن موسـى بن عمران لما ناجى ربـه قـال: يـارب أبعيـد أنت مـني فاناديـك، أم قـريب فاناجيـك، فـأوحى اللـه جـل جلالـه إليـه: أنـاجليس من ذكـرني. فقـال موسـى: يـا رب إني أكـون في حـال أجلـك أن أذكرك فيها. فقال: يا موسى اذكرني على كل حال) (1)

في الأثـر الإلهي: (أنـا مـع عبـدي مـا ذكـرني وتحـركت بي شفتاه) (2)

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول إذا أسحر في سفر: (سـمع سامع بحمد الله وحسن بلائه علينا، ربنا صـاحبنا وأفضـل علينـا، عائذا بالله من النار) (3)

ويقـول في دعائـه إذا سـافر: (اللهم أنت الصـاحب في السفر، والخليفة في الأهل) (4)

1() بحار الأنوار (3/ 329)

2() رواه ابن ماجه وابن حبان والبيهقي.

3() رواه مسلم: 4/ 2086 ح 2718.

4() رواه مسلم رقم (1342)

وكان الإمام علي يقول ـ مناجيا ربه ـ: (وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل الى معدن العظمة، وتصير أرواحنا معلقة بعز قدسك) (1)

وكان الإمام السجاد يقول: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك، فرام منك بدلا؟ ومن ذا الذي أنس بقربك، فابتغى عنك حولا؟ إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك، وأخلصته لودك ومحبتك، وشوقته إلى لقآئك، ورضيته بقضائك، ومنحته بالنظر إلى وجهك، وحبوته برضاك، وأعدته من هجرك وقلاك، وبوأته مقعد الصدق في جوارك، وخصصته بمعرفتك، وأهلته لعبادتك، وهيمت قلبه لارادتك، واجتبيته لمشاهدتك، وأخليت وجهه لك، وفرغت فؤاده لحبك، ورغبته فيما عندك، وألهمته ذكرك، وأوزعته شكرك، وشغلته بطاعتك، وصيرته من صالحي بريتك، واخترته لمناجاتك، وقطعت عنه كل شيء يقطعه عنك) (2)

ويمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تحصل بعد هذا على صحبة الأنبياء والمرسلين وأئمة الهدى والصالحين من خلال صلاتك عليهم، أو ذكرك لهم، أوترديدك لهديهم.

ولهذا أمرنا أن نخاطبهم في أثناء سلامنا عليهم في الصلاة، لنستشعر حضورهم معنا، وقد قال الله تعالى مشيرا إلى ذلك: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 105]

وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تصحب المؤمنين، وفي كل العصور، بقدر محبتك لهم، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (69) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ الله وَكَفَى بِالله عَلِيمًا ﴾ [النساء: 69، 70]

ذلك أن الحجاب الذي يحول بينك وبينهم ليس سوى هذا الجسد؛ فإذا ما تخليت عن التعلق به، صرت معهم، وطرت معهم في تلك الجنان التي يتنعمون بها.

وبعد هذا كله يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تصحب ملائكة الله؛ فقد أخبر الله تعالى عن تنزلهم على الصالحين

---

(1) هذا الدعاء من المناجاة المشهورة في شهر شعبان، انظر: الإقبال: ص 687..

(2) الصحيفة السجادية الكاملة، ص 294.

بقدر صلاحهم؛ فلكل عمـل من الأعمـال ملائكتـه الخاصـين بـه، وبقــدر إكثــارك من الأعمــال الصــالحة، تكــون صــحبتك لهم، وتأثيرهم فيـك، كمـا قـال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت: 30، 31]

أما غيرهم من الـذين آثـروا دنيـاهم على دينهم، وأنفسـهم على ربهم، فقد أخبر الله تعالى عن الصديق الذي يعيش معهم، ويأنسون به، لكنهم يكتشـفون في الأخـير أنـه سـبب كـل البلاء الـذي وقـع لهم، قـال تعـالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴾ [الزخـرف: 36 - 38]

وبـذلك فـإن هـؤلاء بـدل أن يصـحبوا اللـه تعـالى صـحبوا أهـواءهم؛ وانغمسـوا بسـببها في المسـتنقعات المظلمـة، الـتي ملأتهم بالحجب.. وملأتهم بعـدها بالكآبـة.. وقـد كـان ذلـك سـببا لإسـراع الشـياطين إليهم وتقـربهم منهم، لأن الطيـور على أشكالها تقع.. وبذلك يزدادون ظلمة على ظلمـة، وحجابـا فـوق حجـاب.. ومن كـان قرينـا للشـياطين لا يمكنـه أن ينـال صـحبة الملائكة، وكيف يصحبهم، وليس لديه أدنى قابلية لذلك.

وبذلك فإن هذه الموهبة لا تشمل فقـط مـا ينالـه المـؤمن من آثار تلك الصحبة الشريفة لله وملائكتـه ورسـله والصـالحين من عباده، وإنما تشمل أيضـا حمايـة اللـه لـه من تلـك الصـحبة السيئة التي لا تزيد صاحبها إلا عذابا.

المغفرة الواسعة

من مــواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [المغفرة الواسـعة]، وهي التي وردت الإشارة إليها، بل التصريح بها في مواضع كثـيرة من القرآن الكـريم، كمـا قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِـعُ الْمَغْفِـرَةِ ﴾ [النجم: 32]

وهي من أعظم المـــواهب الـــتي تملأ قلـــوب المؤمـــنين سعادة، ذلك أن الله تعـالى برحمتـه بعبـاده ولطفـه بهم، مكّنهم من تصحيح أخطائهم، ومراجعة سلوكهم ومـواقفهم، ليصـير في إمكانهم ليس تصحيح مسارهم المستقبلي فقـط، وإنمـا العـودة إلى ماضيهم، وتصحيح ما وقعوا فيـه من أخطـاء، وعـبر أعمـال بسـيطة يقومـون بهـا، ليغسـلوا آثـار مـا تركتـه الـذنوب في نفوسهم.

ولهـذا آثـاره الكبـيرة في السـعادة والأمـل.. ذلـك أن من مصـادر الإحبـاط والكآبـة الاهتمـام بالماضـي، والحـزن على الأخطاء التي وقعت فيه، بل تحولها إلى عقبة كبـيرة تحـول بين النفس والتزكية والترقي.. فكيف تتهـذب نفس تشـعر كـل حين أن بينهـا وبين ربهـا آلاف الحـواجز الـتي لا يمكن إزالتهـا، وهـل يمكن لأحد أن يرجع للماضي حتى لا يقع فيما وقع فيه؟

ولذلك كان من رحمة الله تعالى أنـه جعـل لعبـاده القـدرة على محو كل ذنوبهم، وآثارهـا، للاسـتمرار في السـير إلى اللـه بنفس مملـوءة بالنقـاء والطهـارة، بـل يمكنهـا أن تنـافس من سبقها، إن أحسنت استثمار توبتها، والاستفادة من أخطائها..

ولذلك بشر الله تعالى المستفيدين من أخطـائهم بأنـه لن يمحو سيئاتهم فقط، وإنما يستبدلها بحسنات، قال تعـالى: ﴿ إِلَّا مَنْ تَـابَ وَآمَنَ وَعَمِـلَ عَمَلًا صَـالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 70]

وأخبر فوق ذلك أن كـل سـيئة يمكنهـا أن تمحى أو تعـوض بحســنة تــذهب بآثارهــا في النفس والمجتمــع، فقــال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ (هود: 114)

وحتى يحصل كـل هـذا لا يحتـاج المـؤمن إلى الـذهاب إلى الكهنة أو رجـال الـدين لتتحقـق لـه المغفـرة، مثلمـا حصـل في

الأديان المحرفة، والـتي صـارت تـبيع صـكوك الغفـران، وتـدعو أتباعها إلى الاعتراف المذل المخزي أمام الكـاهن حـتى تتحقـق لهم المغفرة.

بل يكفي المـؤمن أن يلتجئ إلى ربـه، بصـحبة النـدم على الـذنوب الـتي وقـع فيهـا، ثم يسـأله بصـدق وإخلاص وتجـرد أن يغفرها له، ويعده بعدم العود إليها، ويعده بأن يسعى لمحـو كـل آثارها المتعدية إلى الآخرين؛ فـيرد حقـوقهم الـتي سـلبها منهم، ويطلب منهم براءة ذمته.

وبذلك فإن تلك المغفرة لا تساهم فقط في تزكيـة نفسـه، وجعلهـا مسـتعدة للترقيـة، وإنمـا تسـاهم في عودتـه للمجتمـع، وتقبلـه لـه، ليصـبح سـندا ومسـاعدا لـه في تحقيـق توبتـه في الواقع.

ولهذا ورد في النصوص المقدسة وعد الله الجازم بمغفـرة الـذنوب مهمـا كـثرت، وذلـك ليجعـل المجتمـع مسـتعدا لتقبـل الخاطئين إن تـابوا، وتجعـل الخـاطئين مسـرعين إلى التوبـة إن رجعوا إلى نفوسهم وعرفوا قبح أفعالهم.

ومن أمثلة تلك الآيات التي تخاطب النفس والمجتمع قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَـيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت:7)

فالآيــة الكريمــة تــدعو المؤمــنين إلى النظــر في حاضــر الإنسان، ومدى اهتمامه وممارسته للعمل الصالح، وغض النظـر عن ماضيه الذي تاب منـه، ذلـك أن اللـه تعـالى محـاه وكفـره، وبذلك لم يبق في صحيفة عمله إلا الأعمال الصالحة التي يقـوم بها..

وهي بذلك تجعل المدعين عليـه أو التهمين لـه كـاذبين في دعواهم؛ لأنهم يتهمونه بذنوب لا وجود لها في صـحيفته، وكأنهـا تقول لهم: إن كان الله قد كفرهـا ومحاهـا؛ وهـو صـاحب الحـق المطلـق في العقوبـة عليهـا؛ فكيـف لكم أنتم أن تعـاقبوه، ولـو بذكرها؟

ومثل ذلك ورد في قوله تعـالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَـاوَزُ عَنْ سَـيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْـحَابِ الْجَنَّةِ وَعْـدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (الاحقاف:16)

وهي تخبر أن الله تعالى بفضله ورحمتـه ينتقي من أعمـال عباده أفضلها وأحسنها، ليجزيه على أساسها، أما ذنوبـه فيكفيـه

توبته منها، وصدقه في ذلك.

وهكـذا تـرد الآيـات القرآنيـة الكثـيرة تـدعو المـذنبين إلى استئناف حياة الطهارة الجديدة، بعيـدا عن ذلـك الألم الـذي قـد يحول بينهم وبين مواصـلة حيـاتهم؛ فيكفيهم تـذكرهم لـذنوبهم، وإقرارهم بها، وندمهم عليها، وتصحيحهم لآثارها.

بل إنها تنهاهم عن التشاؤم أو الوقوع في الإحباط واليـأس بسببها، لأن من يفعل ذلك يسـيء إلى ربـه، حين يتـوهم عجـزه عن مغفـرة ذنـوب عبـاده، قـال تعـالى: ﴿قُـلْ يَاعِبَـادِيَ الَّذِينَ أَسْـرَفُوا عَلَى أَنْفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِنْ رَحْمَـةِ اللـه إِنَّ اللَّهَ يَغْفِـرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: 53]

ولهذا كان من العقائد الأساسية للمؤمن معرفة اسـم اللـه تعـالى [الغفـور]، ومـا يرتبـط بـه من أسـماء كـالعفو والحليم والتواب وغيرها.. والتي لا يتم إيمان المؤمن إلا بها، قال تعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِـذُكُمُ اللَّهُ بِـاللَّغْوِ فِي أَيْمَـانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِـذُكُمْ بِمَـا كَسَـبَتْ قُلُـوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقـرة:225)، وقـال: ﴿ قُـلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَـاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُـوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران:31)، وقال: ﴿ أَفَلا يَتُوبُونَ إِلَى الله وَيَسْـتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة:74)

ولهذا أمر رسول الله ﷺ وكل من سار على قدمـه وسـنته بتبشـير المخطـئين، وبث الأمـل في نفوسـهم بمغفـرة اللـه خطاياهم، وتوبته عليهم إن هم عـادوا إليـه، قـال تعـالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُـونَ بِآياتِنَـا فَقُـلْ سَـلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام:54)، وقال:﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْـدِيكُمْ مِنَ الْأَسْـرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُـوبِكُمْ خَيْـراً يُـؤْتِكُمْ خَيْـراً مِمَّا أُخِـذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُـورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنفال:70)

وفي مقابل ذلك نُهي نهيا شديدا من زرع اليأس في قلوب المذنبين، ففي الحديث عن رسول الله ﷺ: (أن رجلا قال: والله لا يغفـر اللـه لفلان، فقـال اللـه: من ذا الـذي يتـألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك) (1)

وفي حديث آخـر، قـال ﷺ: (ألا أحـدثكم حـديث رجلين من بني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر يراه

(1) مسلم، (2621)

بنو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فـذكر عنـده صاحبه، فقال: لن يغفر الله لـه، فقـال اللـه لملائكتـه: ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فـاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فـذا تتـألوا على الله) (1)

وقال ﷺ: (قال رجل لا يغفـر اللـه لفلان، فـأوحى اللـه إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليستقبل العمل) (2)

وقال: (كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فـوطئ على رقبته، فقال الذي تحته: والله لا يغفر لك اللـه أبـدا، فقـال اللـه عزوجل: تألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له) (3)

وقد سمى رسـول اللـه ﷺ هـؤلاء الـذين زعمـوا لأنفسـهم امتلاك خـزائن الجنـان (المتـألين)، فقـال: (ويـل للمتـألين من أمتي، الذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)(4)

وأخبر عن هلاك هذا النوع من النـاس، فقـال: (إذا سـمعت الرجـل يقـول: هلـك النـاس فهـو أهلكهم)(5)، وقـال: (إذا قـال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم) (6)

وسر ما وقع فيه هؤلاء الذين يقنطون الخطائين من رحمـة الله تعالى عدم معرفتهم باللـه، وقياسـهم لأنفسـهم عليـه، ولـو أنهم عرفـوه حـق معرفتـه، وعظمـوه حـق تعظيمـه، لاعتـبروا مغفرته أعظم من أن تغلبها الذنوب.

ولهذا يرد في النصوص المقدسة الكثيرة تبشير الخطـائين بأنه لا توجد ذنوب يمكنها أن تعظم على اللـه؛ بـل يمكن للتوبـة الصـادقة النصـوح أن تمسـح كـل آثـار الخطيئـة، ففي الحـديث القدسـي قـال تعـالى: (يـا ابن آدم إنـك مـا دعوتـنى ورجوتـنى غفرت لـك على مـا كـان منـك ولا أبـالى.. يـا ابن آدم لـو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك.. يـا ابن آدم إنـك لـو أتيتـنى بقـراب الأرض خطايـا ثم لقيتـنى لا تشـرك بى شـيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)(7)

1() أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.
2() الطبراني في الكبير.
3() الطبراني في الكبير.
4() البخاري في التاريخ.
5() مالك وأحمد ومسلم وأبو داود.
6() أحمد ومسلم وأبو داود.
7() رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح.

وفي حديث آخر قال ﷺ: (والذى نفسى بيده لو أخطـأتم حـتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم الله لغفـر لكم) [1]

وأخبر ﷺ عن إقبـال اللـه تعـالى على عبـده إن تـاب إليـه، وفرحه بذلك، فقال: (لله أفرح بتوبة العبد من رجل نـزل مـنزلا وبه مهلكة ومعه راحلته، عليهـا طعامـه وشـرابه، فوضـع رأسـه فنام نومة فاستيقظ، وقد ذهبت راحلته، فطلبها حـتى إذا اشـتد عليه الحـر والعطش، قـال: أرجـع إلى مكـاني الـذي كنت فيـه، فأنام حتى أموت فرجع فنام نومة، ثم رفـع رأسـه فـإذا راحلتـه عنده، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحا بتوبـة العبـد المؤمن من هذا براحلته وزاده) [2]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض النصوص المقدسـة الـتي تـبين فضـل اللـه تعـالى على عبـاده بقبولـه لهم، من دون أن يشـترط عليهم الطهـارة المطلقـة؛ فيكفي أن يعـودوا إليـه، ويصححوا ما وقعوا فيه، ليدخلوا الميدان مع غـيرهم، يتنافسـون في الأعمال الصالحة.

ولن تعـرف قيمـة هـذه الموهبـة إلا إذا ذهبت إلى أولئـك الـذين وقعـوا في الجـرائم الـتي دخلـوا بسـببها إلى السـجون.. لكنهم بعـد خـروجهم منهـا لم يجـدوا من يتقبلهم أو يـوظفهم، وذلك ما قد يعيدهم إلى الحـال الـذي كـانوا عليـه؛ فاليـأس من المغفرة سبب للعودة للذنوب.

ومما يروى في هذا أن لصـاً كـان يقطـع الطريـق في بـني إسرائيل أربعين سنة، فمـر عليـه عيسـى عليـه السـلام وخلفـه عابد من عباد إسرائيل من الحـواريين، فقـال اللص في نفسـه: هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثـاً؛ فـنزل يريـد أن يـدنو من الحـواري، ويـزدري نفسـه تعظيمـاً للحـواري، ويقـول في نفسـه: مثلي لا يمشـي إلى جنب هـذا العابد؛ وأحس الحواري بـه، فقـال في نفسـه: هـذا يمشـي إلى جانبي، فضم نفسه، ومشى إلى عيسـى عليـه السـلام، فمشـى بجنبه فبقي اللص خلفه، فـأوحى اللـه تعـالى إلى عيسـى عليـه السلام: (قل لهما ليستأنفا العمل)

ويروى أنه كـان في بـني إسـرائيل شـاب عبـد اللـه تعـالى

---

[1] () رواه أحمد.
[2] () رواه البخاري ومسلم.

عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشـيب في لحيتـه، فسـاءه ذلـك، فقـال: (إلهي إني أطعتـك عشـرين سـنة، ثم عصـيتك عشـرين سـنة، فـإن رجعت إليـك أتقبلـني؟) فسـمع قـائلاً يقـول ــ ولا يـرى شخصـاً ــ: (أحببتنـا فأحببناك، وتركتنا فتركناك، وعصيتنا فأهملنـاك وإن رجعت إلينـا قبلناك)(1)

1() انظر هذه الآثار وغيرها في: إحياء علوم الدين، 4/190.

الطهارة الشاملة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الطهـارة الشـاملة]، وأقصد بها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَـاسَ أَمَنَـةً مِنْهُ وَيُنَـزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّـمَاءِ مَـاءً لِيُطَهِّـرَكُمْ بِـهِ وَيُـذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْــزَ الشَّــيْطَانِ وَلِيَرْبِــطَ عَلَى قُلُــوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِــهِ الْأَقْــدَامَ ﴾ [الأنفال: 11]

فالآيـة الكريمـة تشـير إلى أن الطهـارة من مـواهب اللـه تعالى للمؤمنين، وتربطها بالنزول، لتشير بذلك إلى أنـه لا يمكن أن تتحقق بصورتها الكاملة الصحيحة إلا بمـا ينزلـه اللـه تعـالى بناء على عنايته بعباده.

وما ينزله الله تعالى لتطهير عباده نوعان: نـوع حسـي هـو ذلـك المـاء الطهـور الـذي يسـتعمله الخلـق جميعـا في تطهـير القسم الحسـي من حقيقتهم.. كمـا قـال تعـالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَـا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (48) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْـقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَـا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾ [الفرقان: 48، 49]

ونوع معنوي، وهو ذلك الهدي الذي جعله الله تعالى وسيلة لتطهير القسم المعنوي من الإنسان، وهو روحـه ونفسـه وقلبـه وعقلـه، ومـا يصـدر عن هـذه اللطـائف من أفكـار ومشـاعر ومواقف وأعمال.

وهذا النوع خاص بالصادقين من المؤمنين الذين لم يكتفـوا برعاية طهارة أجسادهم، وحرصهم على نظافتهـا الدائمـة، عملا بتلـك الوصـايا الإلهيـة الكثـيرة الـتي تـأمرهم بـذلك، بـل تقـرن الشعائر التعبدية بها، وإنما أضافوا إليها تطهير كل لطـائفهم من كل النجاسات والأقذار التي ترتبط بها.

وهو المعنى الذي أشار إليـه أهـل سـدوم وعموريـة حينمـا وصفوا لوطا عليه السـلام وأهلـه بالطهـارة، وكـأنهم يشـتمونهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُـوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: 82]

وهي نفس الشـتيمة الـتي لا تـزال الشـعوب الـتي تـدعي النظافة والطهارة تسم بها المؤمنين الصالحين الذين لا يرضون بالفحشاء والمنكر، ولا بالعلاقات الممتلئـة بالنجاسـة والقـذارة؛

فيشتمونهم بذلك مع علمهم أنهم يمثلون العفة والأخلاق العالية التي لا يمكن أن تتحقق الطهارة من دونها.

ولذلك؛ فإنك ـ أيها المريد الصادق ــ لـو سـرت في العـالم أجمع، ودرست كل المـذاهب والأديـان، لم تجـد طهـارة شـاملة حقيقية مثل تلك الطهارة التي شرف الله تعـالى بهـا المؤمـنين بسبب التزامهم بوصايا ربهم وهديه.

فعقـول المؤمـنين مطهـرة من رجس الخرافـة والشـعوذة والدجل.. فهي تستند لكل ما يسلم له العقل المجرد، ولن تجــد في دينك جميعا، في حقائقه أو شرائعه ما يرفضـه العقــل، أو لا يتناســب معـــه.. ولـــذلك لم يشـــعر الحكمـــاء ولا الفلاســـفة المسلمون بأي صراع بين دينهم وعقلهم، بـل رأوا دينهم مزكيـا لعقولهم، وموجها لها، ومصححا لمسارها.

وهكذا تجد مشاعر المؤمنين مملوءة بالطهارة.. فــالمؤمن لا يحقد ولا يحسد ولا يعرف البغضـاء أو القطيعـة.. وهـو يتمـنى الخير لكل إخوانه، ولذلك تمتلئ علاقتـه بهم بـالمودة والرحمـة، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]

وقـــال رســـول اللـــه ﷺ: (مثـــل المؤمـــنين في تـــوادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منـه عضـو تـداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (1).. وقال: (المـؤمن للمـؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (2)

وهكـذا تجـد سـلوك المـؤمن مملـوءا بالطهـارة، وفي كـل جوانب حياته؛ فهو إن باع أو اشترى كان سمحا لينـا هينـا سـهلا، كمـا قـال ﷺ: (رحم اللـه رجلا سـمحا إذا بـاع وإذا اشـترى وإذا اقتضى) (3)

وهو لذلك لا يقع فيمـا وقـع فيـه أصـحاب الأنظمـة الماليـة البشعة التي أعطت الحرية المطلقة لأرباب الأمــوال لممارســة كل أنواع البغي والظلم على المستهلكين الضعفاء؛ فـالمؤمن لا يحتكر ولا يغش ولا يخدع ولا يغبن ولا يأكـل الربـا.. لاعتقـاده أن المال مال الله، وأنه مجـرد خليفـة عليـه، وأنـه مختـبر في تلـك الخلافة، وأن العقاب الشديد ينتظره إن قصر في ذلك.

ولذلك لا يكـنز أموالـه، ويحـرم منهـا المؤمـنين، خشـية أن

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه مسلم.

تتحول تلك الأموال إلى ما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ الله فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: 34، 35]

ولهذا تراه يسارع بها في المشاريع الصالحة التي تفيد المجتمع، وتحقق له حاجاته، وتقضي على فقره وعوزه بأشرف الأساليب والوسائل.

وفوق ذلك تراه يعيش كسائر الناس، مع ما قد يُرزق به من مال، خشية أن يكون من أصحاب الترف الذين ورد ذمهم والتحذير منهم، فلذلك ينتفع بماله بقدر حاجته، ولا يزيد على ذلك.

ولذلك لا يراه سائر الناس مختلفا عنهم، بل إنهم يرونه أجيرا في ماله مثلما هم أجراء في معامله ومصانعه.. ولذلك لا يتمنون أن يزول المال عنه، وكيف يتمنون ذلك، وهم يستفيدون من ذلك الغنى، سواء بالعمل والكسب أو بالصدقة والإحسان؟

وهكذا حال المؤمن في فقره وحاجته؛ فلا تعتريه تلك الآفات التي تعتري الفقراء الخالين من الإيمان، والذين يتوهمون أنهم منبوذون في الأرض، وأن الله تعالى قد تخلى عنهم، وإنما ينظر إليه باعتباره تفريغا له من الاختبارات الخاصة بالغنى، ولذلك يحمد الله على ذلك التفريغ، ويعتبره دعوة له للمزيد من العمل الصالح.

ولذلك لا يحسد الأغنياء والمترفين، لأنه يعلم أنهم مثله واقعون في اختبار خاص بهم، بل يكل أمرهم إلى الله تعالى؛ فإن أحسنوا إليه أو إلى غيره، كان في ذلك نجاتهم، وإن لم يحسنوا، وأساءوا استخدام أموالهم كان في ذلك هلاكهم.. وهو لا يمكنه أن يحسد الناجي، ولا الهالك.. فاهتمامه بنفسه ونجاته ينسيه كل ذلك.

وهو فوق ذلك لا ينظر إلى الدنيا باعتبارها نهاية الرحلة، وإنما ينظر إليها باعتبارها محطة من محطات الحياة، ولذلك لا يجعل الفقر وسيلة لملأ نفسه بتلك القاذورات والمثالب التي تملأ قلوب الغافلين نتيجة تصوراتهم الخاطئة عن حقيقة الحياة الدنيا.

وهكذا ترى المؤمن في كل أحواله مملوءا بالطهارة، لأنه

يستند لربه وهديه، لا لهواه، ولا لوساوس الشياطين الـتي ترفّـع عنها.

وتلـك الطهـارة هي الـتي تؤهلـه للقـرب الإلهي، وتـرقي الدرجات العليا في سلم السائرين إلى الله.. ولذلك تراه ممتلئا سـعادة ورضـا وفرحـا.. وكيـف لا يكـون كـذلك، وباطنـه ممتلئ بالطهارة؟

أمـا غـيره من الـذين يهتمـون برعايـة طهـارة أجسـادهم وثيابهم وبيـوتهم وشـوارعهم، ويكتفـون بهـا؛ فـإنهم وإن فرحـوا بتلـك الطهـارة الحسـية الـتي يـوافقهم المـؤمن فيهـا إلا أن النجاسات والقاذورات التي تعمـر قلـوبهم وأرواحهم ونفوسـهم تجعلهم ممتلئين بالتأفف والضجر.

وحـالهم في ذلـك حـال من غسـل ظـاهر ثيابـه، وبـالغ في غسلها، لكنه ترك باطنها قذرا تفوح منـه الـروائح المنتنـة.. فهـو قد يبدو أمام الناس نظيفـا حسـن الهيئـة، لكن كـل من يقـترب منـه يشـعر بروائحـه الكريهـة الـتي لا تسـتطيع تلـك الطهـارة الخارجية أن تسترها.. بل إنه هو نفسه يشعر بذلك، ويتأذى به.. لكنـه لن يهتـدي إلى الطريقـة الخاصـة لغسـل ذلـك البـاطن إلا بالتسليم للهدى الإلهي.

فاحمد الله تعـالى ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ على توفيقـك لتطهير نفسك، فليس هناك سبب للسـعادة والسـلام والسـكينة مثل طهارة النفس.

الخَلاص والتخلص

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الخَلاص والتخلص]، وأقصـد بهمـا مـا وردت الإشـارة إليـه في مواضـع من القـرآن الكريم كقوله تعالى حكاية عن المجرمين عندما يعـاينون فضـل اللـه تعـالى على المؤمـنين: ﴿ لَـوْ أَنَّ عِنْـدَنَا ذِكْـرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ (168) لَكُنَّا عِبَادَ الله الْمُخْلَصِينَ ﴾ [الصافات: 168، 169]

وقوله حكاية عن الشـيطان وتهديـده لبـني آدم، واسـتثنائه المخلَصــين منهم: ﴿رَبِّ بِمَــا أَغْــوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِـينَ ﴾ [الحجـر: 39، 40]، ورد الله تعالى عليـه بعـد ذلـك بقولـه: ﴿ إِنَّ عِبَـادِي لَيْسَ لَـكَ عَلَيْهِمْ سُـلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَـكَ مِنَ الْغَـاوِينَ﴾ [الحجـر: 42]

وقوله عن السبب الذي خلّص يوسف عليه السلام من تلك الفتنة العظيمة التي تعـرض لهـا: ﴿كَـذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: 24]

وقوله في مواقف البشـر من الهـداة الـذين أرسـلهم اللـه إليهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (72) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُنْذَرِينَ (73) إِلَّا عِبَادَ الله الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 72 - 74]

وقولـه عن أحـوال النـاس في عرصـات القيامـة، وخلاص المخلصين بينهم: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (38) وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَـادَ اللـه الْمُخْلَصِـينَ﴾ [الصـافات: 38 - 40]

وكـل هـذه المواضـع تشـير إلى شـرف تلـك الهبـة الإلهيـة العظيمـة هبـة [الخلاص والتخلص]، وهي تعـني أن صـاحبها قـد تخلص من كيـد الشـيطان ومكـره.. وتخلص من مثـالب النفس وآفاتها.. وتخلص من تبعية قومه وجميع الحجب التي تحول بينـه وبين اتبـاع الهـدي الإلهي.. وتخلص بعـد كـل ذلـك من العـذاب العظيم المُعد للذين انتكسوا وارتكسوا، ولم يستطيعوا التخلص من الأوزار التي أوقعتهم فيها أنفسهم وشياطينهم.

لـذلك كـان الخلاص نعمـة كـبرى.. وكـان مرتبطـا بالصـدق والإخلاص.. فلا يمكن لمن لم يكن صادقا مـع ربـه، ومخلصـا لـه

أن يتخلص من كل تلك الفتن والاختبارات الـتي جعلت لتمحيص حقيقته، وإظهار ما في سريرته.

ولذلك كان الخلاص ليس نعمة مرتبطة بجنس دون جنس، أو بطينة دون طينة، أو ببلد دون بلـد.. كمـا تـزعم ذلـك الأديـان المحرفة.. وإنما هـو مرتبـط بالصـدق والإخلاص وحـدهما.. فمن صدق مع الله وكان مخلصا في طلب الحقيقة هـداه اللـه إليهـا، بل جاء به من بعيد ليذعن لها في نفس الوقت الـذي يفـر عنهـا أقرب الناس منها.

وقد ذكر القرآن الكريم الأمثلـة عن ذلـك عنـدما حكى عن اليهود الذين قدموا للمدينة في انتظار النبي الموعود الذي كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.. لكنه بمجـرد أن حـل بهم تركـوه وحاربوه ونصبوا له العداء في نفس الـوقت الـذي اتبعـه أولئـك الأميون الذين لم يكن لهم من العلم بـه مـا كـان لأولئـك الـذين أنكروه بعد المعرفـة، وجحـدوه بعـد اليقين، قـال تعـالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَـابٌ مِنْ عِنْـدِ اللـه مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَهُمْ وَكَـانُوا مِنْ قَبْـلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَـا عَرَفُـوا كَفَـرُوا بِـهِ فَلَعْنَةُ الله عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: 89]

ثم ذكر سبب ذلك الحرمان، وهو الحسد الذي ملأ قلـوبهم؛ فأعمـاهم عن رؤيـة الحـق والإذعـان لـه، قـال تعـالى: ﴿بِئْسَـمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ بَغْيًـا أَنْ يُنَـزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَـاءُوا بِغَضَـبٍ عَلَى غَضَـبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (90) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَـا أَنْـزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ الله مِنْ قَبْـلُ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 90، 91]

وهذا ما حصل لأكثر القرشيين الذين كانوا يعرفون رسـول الله ﷺ، ويعرفون أخلاقـه، وقـد سـمعوا قبـل ذلـك أنـه صـاحب شـأن.. وكـان في إمكـانهم أن يكونـوا من المخلصـين، بـل من الحواريين، لكنهم بسبب عدم تخلصـهم من أمراضـهم النفسـية رفضوه ليتبعه أولئك المستضعفون الذين احتقـروهم واسـتهانوا بهم.. لكن اللـه شـرفهم بـأن يكونـوا من المخلصـين؛ فلا ينـال الخلاص إلا من تخلص من تلك العقد التي تحول بينه وبينه.

وقد وصف الله تعالى سبب ذلك الارتكاس الذي وقـع فيـه القرشيون، حين راحوا يقترحون على ربهم الرسول الذي ينبغي

أن يرسله لهم، قال تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـذَا الْقُـرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ [الزخرف: 31]

وقد رد الله تعـالى عليهم بقولـه: أَهُمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْـرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ [الزخرف: 32]

وهذا ما حصل لامرأة نوح ولوط اللـتين شـرفتا بـأن تكونـا زوجتين لنبيين كريمين، لكنهما بدلا أن يقبلا هــذا الخلاص الإلهي الذي أتيح لهما راحا يقعان في الخيانة، قال تعالى: ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَـا مِنَ اللـه شَـيْئًا وَقِيـلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ [التحريم: 10]

وعلى الجهة المقابلة لهما خلص الله تعالى امرأة فرعـون، مع كونها كـانت في بيئـة مملـوءة بـالكفر والضـلال، لكن السـر الـذي عمـر قلبهـا، والإيمـان الـذي اسـتنارت بـه روحهـا، جعلهـا تتخلص وتكـون من المقـربين، قـال تعـالى: وَضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْـدَكَ بَيْتًـا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَـوْنَ وَعَمَلِـهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَـوْمِ الظَّالِمِينَ [التحريم: 11]

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ـ تجد قوانين الخلاص الإلهي لا ترتبط بالأقوام، ولا المناطق، ولا من يزعم النـاس لهم الشـرف والمجـد، أو الحسـب والنسـب.. وإنمـا ترتبـط بتلـك النفـوس الطاهرة الـتي تخلصـت من كـل القيـود الـتي تحـول بينهـا وبين الرحلة إلى ربها.

ومـا أقـل هـؤلاء في الخلـق.. فهم العملـة النـادرة.. وهم الكبريت الأحمر.. فلذلك اجتهـد في أن تكـون منهم ومعهم.. فلا ينجو إلا من كان منهم أو معهم.

فإن شئت أن تكون منهم ـ أيها المريـد الصـادق ــ فتخلص من كل ما يحول بينك وبين ربك، ولا تـدع نفسـك عبـدا للأغيـار، فما عند ربك خير وأبقى.. وكل ما حجبك عن الله شـؤم عليـك، وإن بدا لك في صورة جميلة؛ فالشيطان يزين لـك ذلـك، مثلمـا زين لأبويـك الأكـل من الشـجرة، وأخرجهمـا من الجنـة بسـبب ذلك.

فتخفف من كل الأثقال، ولا تجعل قلبـك معلقـا بمـا يحـول

بينه وبين السير والتزكيـة؛ فمـا فـاز بسـعادة الـدنيا والآخـرة إلا أولئك الذين خلصوا أنفسهم من أن يكونوا عبيدا للأشياء.

وقـد روي أن بعض الأمـراء قـال لبعض الصـالحين: سـلني حاجتك، فقال له: كيف تقول لي هذا، ولي عبدان همـا سـيداك، فقال: ومن هما؟ قال: الحرص والهـوى، فقـد غلبتهمـا وغلبـاك، وملكتهما وملكاك..

وقال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصـني، فقـال لـه: كن ملكـا في الدنيا تكن ملكا في الآخرة، قال: وكيف أفعل ذلـك؟ فقـال: ازهد في الـدنيا تكن ملكـا في الآخـرة؛ فـإن الملـك في الحريـة والاستغناء)

وقـال آخـر: (نحن واللـه الملـوك الأغنيـاء، نحن الـذين قـد تعجلنا الراحة في الدنيا، لا نبالي على أي حال أصـبحنا وأمسـينا إذا أطعنا الله عز وجل)

وقال آخر يذكر تخلص قلبه من كل تلك الصور التي كـانت تحجبه عن رؤية الحقائق وجمالها:

كان يسبى القلب فى	بل تسعون نفساً
يهيم بهذا ثم يألف غيره	ويسلوهم من فوره
وقد كان قلبى ضائعاً	فكان بحب الخلق
فلما دعا قلبي هواك	فلست أراه عن
حرمت الأماني منك إن	وإن كنت فى الدنيا
وإن كان شيء فى	يقرَّ به القلب الجريح

هذا هو طريق الخلاص ـ أيها المريد الصادق ـ وهو مرتبـط بإرادتك وعزيمتك وهمتك.. فالحق عزيـز، ولن يخلص لـه إلا من تخلص من كل الشوائب التي تحول بينه وبينه.

سلام الأقوياء

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [سلام الأقوياء]، وأقصد به أمرين، كلاهما وقع فيه الخطأ، ولا يجتمع كلاهما إلا في المؤمن:

أما أولهما؛ فالسلام، وهو يعـني مواجهـة الصـراع ومـا ينتج عنه بكل حكمة وهدوء ولطف وسماحة.

وأما ثانيهما؛ فالقوة، وتعني عدم العجز والضعف والـوهن.. وكل ما لا يتناسب مع حقيقة الإنسان وكرامته.

وكلاهما نتـاج للمنـازل الـتي تحـل فيهـا النفس المطمئنـة؛ فهي نفس هادئة ساكنة، لا بسبب ضعفها، وإنمـا بسـبب قوتهـا، مثل الأشجار القوية الثابتة الـتي لا تحركهـا الريـاح العاتيـة، كمـا قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَـرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَـةً طَيِّبَـةً كَشَـجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُـلَّ حِينٍ بِـإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (ابراهيم:24 ـ 25)

ولهذا وصف رسول الله ﷺ المؤمن بالنخلـة؛ فقـال: (مثـل المؤمن مثل النخلة ما أخذت منها من شيء نفعك) [(1)]

وهذا ما لا يكاد يوجد في غير المـؤمن؛ ذلـك أن قـوة أكـثر الخلق تغلب سلامهم، حيث تجعلهم يبغون ويظلمون ويعتـدون.. ومثل ذلك سـلامهم تجـده مملـوء بـالوهن والضـعف، لأنـه ليس ناشئا عن نفس مطمئنة، وإنما عن نفس مصارعة لم تجـد قـوة تصارع بها؛ فراحت تختبئ وراء ضعفها ووهنها.

أما نفس المؤمن المطمئنة؛ فيجتمع لها كلا الأمرين: القوة والسلام..

أما القوة؛ فلأنها تستند إلى الله تعالى، وتعلم أن كل شيء بيده، وأنها تحت رقابتـه وعنايتـه، وأن عنايتـه مرتبطـة برقابتـه؛ فلذلك لا تتحرك حركة إلا وفق مـا طلبـه منهـا، وتعلم أنـه معهـا في ذلك؛ فلذلك تكون كل حركاتها موزونة بالعقل والشـرع؛ فلا تتهور ولا تنهار، ولا تجبن ولا تخاف..

وأما السلام؛ فلأنها تعلم أن كـل تصـرفاتها ضـمن الاختبـار الإلهي؛ فلذلك تتورع عن كل اعتداء وبغي وظلم.. بل تتورع عن

---

(1) الطبراني في الكبير.

كل عجب وغرور وزهو وكل مـا يملأ النفس بالأنـا الكاذبـة الـتي تريد أن تمحو غيرها.

ولذلك؛ فإن سلام المـؤمن لا يبـدأ من الخـارج، وإنمـا يبـدأ بالـداخل.. بـل إن مـا يحصـل في الخـارج ليس سـوى آثـار من سلامه الداخلي.

فالمؤمن صاحب النفس المطمئنة هو الـذي يخلص نفسـه من كل المثالب التي تثير فيه الصـراع؛ فهـو لا يحقـد ولا يحسـد ولا يحمل البغضاء والحقد.. وكل تلك المثالب الـتي هي السـبب في كل ما نراه من صراع خارجي.

والمؤمن هو الذي يسارع إلى العفـو عمن ظلمـه، بـل قـد يحسن إليه، ليمتص بسلامه كل أسـباب الصـراع والعـداوة كمـا قال تعـالى: ﴿ وَلَا تَسْـتَوِي الْحَسَـنَةُ وَلَا السَّـيِّئَةُ ادْفَـعْ بِـالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَـكَ وَبَيْنَـهُ عَـدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (34) وَمَـا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَـا إِلَّا ذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصـلت: 34، 35]

وكمـا فعـل ذلـك رسـول اللـه ﷺ حينمـا تمكن من أعدائـه الذين استعملوا كل الأسـاليب القـذرة لحربـه، لكنـه لم يتعامـل بالقوة، وإنما تعامل معهم بالسلام، فقال لهم: (يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟)، قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كـريم، قـال: (فـإني أقـول لكم كمـا قـال يوسـف لإخوتـه: ﴿لاَ تَثْـرَيبَ عَلَيْكُمُ﴾ اذهبوا فأنتم الطلقاء)

ومع أن الله تعالى أذن له أن يتعامل معهم بمثل جرائمهم، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْـلِ مَـا عُـوقِبْتُمْ بِـهِ وَلَئِنْ صَـبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:126)، لكنه ﷺ اختار أن يعفـو عنهم ويصـبر على مـا كـان منهم، وأن لا يعـاقب فقـال: (نصـبر ولا نعاقب)(1)

وروي أنـه أصـيب يـوم أحـد من الأنصـار أربعـة وسـتون، وأصيب من المهـاجرين سـتة وحمـزة، فمثلـوا بقتلاهم، فقـالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما من الدهر لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يعرف: لا قـريش بعـد اليـوم، فـأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَـا عُـوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّـابِرِينَ﴾ (النحـل:126)، فقـال نـبي

(1) أحمد (35/ 154)الترمذي (3129)، والنسائي في الكبرى (11279)

الله ﷺ: (كفوا عن القوم) (1)

وهكذا؛ فإن المؤمن يتعالى عن ذلك الصراع الذي شب بين الأغنياء والفقراء في المجتمعات المختلفة، ذلك أنه يعلم أن الأموال ليست هي المعيار الذي توزن به القيم.. بل هي مجرد متاع قليل، لم يقصد منه سوى الاختبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165]

ولذلك؛ فإن نفسه المطمئنة الممتلئة بالرضا عن الله، لا تشعر بما يشعر به أولئك الذين يتوهمون أن الله تعالى قصر في حقهم؛ فحرمهم من الثروة التي أعطاها لغيرهم؛ فلذلك تجدهم إما محتقرين لأنفسهم مزدرين لها خاضعين للأغنياء مستعبدين لديهم.. أو تجدهم ناقمين حاقدين ثائرين قد يرتكبون أبشع الجرائم في سبيل الانتقام من الذين توهموا أنهم سلبوهم أموالهم.

أما المؤمن؛ فهو ـ مع اجتهاده في السعي وطلب الرزق ـ إلا أنه يعلم أن غناه وفقره مرتبط بما يقدر الله له، وأن كلا من الفقر والغنى اختبار إلهي.. فالغنى يقتضي الشكر، والفقر يقتضي الرضا والصبر.. ولذلك لا يدبر مع ربه أمرا، لأنه يعلم أن مصلحته قد تكون في الفقر لا في الغنى، كما ورد في الحديث القدسي: (إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالغنى ولو أفقرته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالفقر ولو أغنيته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا بالسقم ولو أصححته لكفر، وإن من عبادي من لا يصلح إلا بالصحة ولو أسقمته لكفر) (2)

وقد ذكر الله تعالى نموذجا للمؤمن القوي المسالم، وهو يحاور غنيا ممتلئا بالصراع؛ فذكر موقفه من ثروته، فقال: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (37) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (38) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (39) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (40) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا

---

(1) أحمد (35/ 154)الترمذي (3129)، والنسائي في الكبرى (11279)

(2) رواه الخطيب.

غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا [الكهف: 37 - 41]

وهذه المعاني الـتي ذكرهـا هي الـتي تقـوم عليهـا مواقـف المؤمن من كل ما يجلب الصراع؛ فهو يرى أن الـثروة هبـة من الله تعالى لعباده، وأنها لا تتعلق بالسـعي وحـده، وأن المقصـود منها ليس الهبة المجـردة، وإنمـا الاختبـار والامتحـان؛ فمن نجح في امتحانها كانت بالنسبة له فضلا إلهيا، ونعمة ربانية، لكنــه إن سقط في الاختبار كانت استدراجا وإملاء يعقبه كل أنواع العنــاء والألم.

وهكذا ذكر الله تعالى سر اجتماع السلام مـع القـوة الـذي يتحلى به المؤمن؛ وذلك عند عرض المواقف من ثـروة قـارون، حيث قـال: فَخَـرَجَ عَلَى قَوْمِـهِ فِي زِينَتِـهِ قَـالَ الَّذِينَ يُرِيـدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَـظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَـالَ الَّذِينَ أُوتُـوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَـوَابُ اللـه خَيْـرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ [القصص: 79، 80]

فالآيات الكريمة تـذكر أن أهـل الـدنيا تمنـوا أن يكـون لهم مثلمـا كـان لقـارون، وهـذا التمـنى يـدل على كـونهم يحتقـرون الحال التي هم عليها، وأنهم لم يرضوا بما قسم الله لهم، وذلك يجرهم لا محالة إلى الحسد والحقد وكل الأمراض النفسية، وقد يملـؤهم بعـدها بالمهانـة والضـعف لاحتقـارهم لأنفسـهم، أو قـد يجعلهم لصوصا ومجرمين إن غلبت قواهم السبعية.

بخلاف المؤمنين الذين لم ينظروا إلى مـا حرمـوا منـه من ذلك النعيم المادي، وإنما نظروا إلى ما مكنهم الله من تحصـيله من ثواب الله وأجوره ونعيمه.. فلذلك انشغلوا بالنعيم الحقيقي عن ذلــك النعيم المزيــف الــذي حــاول قــارون أن يظهــر بــه أمــامهم.. لكنهم نظـروا إليـه كمـا ينظـرون إلى الأطفـال، وهم يفرحون بلعبهم، والتي لا تساوي عند العقلاء شيئا.

وكل هذه المعاني أشار إليها قوله ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك أمـر، فقـل: قـدر اللـه ومـا شـاء صنع، وإياك واللو، فإن اللو تفتح من الشيطان) [1]

فهذا الحديث يدل على جميـع أركـان القـوة الـتي يتأسـس عليها بنيان المؤمن؛ وقد بدأ رسول الله ﷺ ببيان خيرية المؤمن

---

[1]() النسائي في عمل اليـوم والليلـة (623) و(624)، والطحـاوي في شـرح مشـكل الآثار (260) و(261)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (348)

القوي، وهي خيرية مطلقة من كل قيد، تجعل كل مـؤمن يبحث عن كل أسباب القوة لتتجلى فيه الخيرية بكمالها وشمولها.. ثم أمر ﷺ بالحرص على ما ينفع، وذلك لأن القوة قد تسـتغل فيمـا لا ينفـع، فتكـون وبـالا على صـاحبها.. فلا يكفي أن تكـون لـدينا قوة، بل يجب أن نعرف أي نضعها، وكيـف نسـتثمرها، وإلى من نوجهها.. وهذا هو السلام عينه.

ذلك أن السلام قد يقتضي اسـتعمال القـوة والعنـف، كمـا قال تعالى في تبرير الأمر بالجهاد مع كونه إزهاقـا للأرواح الـتي جاءت الشريعة لحفظهـا: ﴿وَمَـا لَكُمْ لا تُقَـاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللـه وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَـلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيّـاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ (النساء: 75)

وقد ورد هذا التبرير في مواضع مختلفة، وكلها تنطلــق من أن الغرض من القتال في الإسلام ليس المقصود منه التوسع أو الاستعمار أو السيطرة مثلما يفعل المصارعون، وإنمـا المقصـد منه نصرة المستضعفين، كما قـال تعـالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْـرِهِمْ لَقَـدِيرٌ﴾ (الحج:39)، وقـال: ﴿وَقَـاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـه الَّذِينَ يُقَـاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (البقرة:190)

ولهذا؛ فإن الـذين يتوهمـون أن السـلام يتنـافى مـع الأخـذ بأسباب القوة مخطئون، لأن الأخذ بأسباب القوة هو الذي يردع المجرمين والمصـارعين عن مواجهـة المسـالمين، ولهـذا طلب من المؤمـنين الاسـتعداد الـدائم، أمـام العـدو المسـتكبر، قـال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْـلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ ﴾ [الأنفال: 60]

وأخـبر عن تـربص المصـارعين بالمسـالمين، فقـال: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُـونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ [النساء: 102]، وقال: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُـوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُـونَكُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَتَـأْبَى قُلُـوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (8) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللـه ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَـدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُـونَ (9) لَا يَرْقُبُـونَ فِي مُـؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 8 - 10]

هذه هي المعاني التي تتأسس عليهـا القـوة المسـالمة، أو سلام الأقوياء، والتي تفـرق المـؤمن صـاحب النفس المطمئنـة

عن غيره.. وهي تتوافق مع الفطر السـلمية، والعقـل المسـدد، الذي لم يغمره طوفان الأهواء؛ فاحرص ـ أيها المريد الصـادق ـ على أن تـوفر لنفسـك القابليـة لحلـول هـذه القـوة العظيمـة المصاحبة للسلام الجميل.

العقل المسدد

من مــواهب اللــه تعــالى لعبــاده لتحفــيزهم للســير إليــه، وإعانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [العقـل المسـدد]، وهـو العقل الذي لا يوجد عند غير المؤمن بالله.. وهـو يقـوى ويشـتد بحسب قوة الإيمان وطمأنينة النفس، ذلك أن أعظم مــا يحــول بين العقل وسداده هو ذلك الاضـطراب الـذي يعتريـه؛ فلا يـرى الحقائق بصورتها الحقيقية، وإنما يراها مضطربة مثل اضطرابه.

ولهذا يطلق العقل على معنيين: المعنى الذي يستطيع من خلاله الإنسان أن يحلـل ويسـتنتج ويقـارن وينتقـد، وهـو مرتبـط بالجانب الفكري والنظري.. ومعنى مرتبـط بالسـلوك والأخلاق؛ فالذي يكون صـاحب حلم وسـكينة وأنـاة ورويـة يسـمى عـاقلا، وغيره يسمى جاهلا، لا لكونه جاهلا بالعلوم، فقـد يكـون حافظـا له، ولكنـه جاهـل لأن عقلـه لم يعقلـه ولم يمنعـه من تصـرفات الجاهلين.

ولهذا؛ فإن مفردة [الجاهليـة] في القـرآن الكـريم لا تعـني الجهل بالعلوم، وإنما تعني تلك السلوكات الـتي لا تتناسـب مـع العقلاء.

ولهذا كانت الحكمة التي هي النتاج الأصفى للعقل نوعــان: حكمة نظرية تتكفـل بـالعلوم ودقائقهـا، وحكمـة عمليـة تتكفـل بالسلوك ومراتبه.

إذا عــرفت هــذا ــ أيهــا المريــد الصــادق ــ فــاعلم أن كلا الحكمـتين وكلا العقلين مترابطـان، ولا يقـوى أحـدهما إلا بقـوة الآخر، ولا يضعف إلا بضعفه.

وهنا يتميز المـؤمن الـذي يسـتند عقلـه إلى الـوحي الإلهي عن غير المؤمن الذي لا سند له.. ذلـك أن الـوحي بمثابـة النـور الهادي للعقل؛ فيدرك بـه الحقـائق بسـهولة ويسـر، بخلاف غـير المـؤمن، والـذي قـد يكـون حـاد الـذكاء، حاضـر البديهـة، كثـير العلوم، ولكنه محجوب عن الكمال العقلي بسبب دهاليز الظلام التي يريد عقله أن يراها، وأنى لـه أن يراهـا.. وهـل يمكن لحـاد البصر أن يرى في الظلام المطبق.

وقـد ذكـر بعض الحكمـاء لهـذا تشـبيها بليغـا، بين فيـه دور الــوحي الإلهي في تسـديد العقـل، فقـال: (اعلم أن العقــل لن

يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كـالأس، والشرع كالبناء، ولن يغني أس مـا لم يكن بنـاء، ولن يثبت بنـاء ما لم يكن أس)(1)

ثم شبه العلاقة بينهما تشبيها آخر، فقـال: (وأيضـا فالعقـل كالبصر والشرع كالشـعاع، ولن يغـني البصـر مـا لم يكن شـعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر)

ثم شبه العلاقة بينهما تشبيها ثالثا، فقـال: (وأيضـا فالعقـل كالسـراج، والشـرع كـالزيت الـذي يمـده فمـا لم يكن زيت لم يحصل السراج، وما لم يكن سراج لم يضئ الزيت)

ثم استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْـبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَـةٍ الزُّجَاجَـةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَـةٍ زَيْتُونَـةٍ لَا شَـرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَـادُ زَيْتُهَـا يُضِـيءُ وَلَـوْ لَمْ تَمْسَسْـهُ نَـارٌ نُـورٌ عَلَى نُـورٍ﴾ [النور: 35]

وعلق على الآية الكريمة بقوله: (فالشرع عقل من خـارج، والعقل شرع من داخل، وهما متعاضدان بـل متحـدان.. ولكـون الشرع عقلا من خارج سلب الله تعالى اسم العقـل من الكـافر في غير موضع القرآن نحو قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقـرة: 171] ولكـون العقـل شـرعا من داخـل قـال تعالى في صفة العقل: ﴿فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، فسمى العقـل دينا ولكونهما متحدين قـال: ﴿نُـورٌ عَلَى نُـورٍ﴾ [النـور: 35]﴾ أي نور العقل ونور الشرع، ثم قال: ﴿يَهْدِي اللـه لِنُـورِهِ مَنْ يَشَـاءُ﴾ [النور: 35] فجعلها نورا واحدا، فالشرع إذا فقد العقل لم يظهر به شيء وصار ضائعا ضياع الشعاع عند فقد نور البصر، والعقل إذا فقد الشرع عجز عن أكثر الأمور عجز العين عند فقد النـور)(2)

ولهذا تجد كبار الفلاسـفة وقعـوا في التيـه الـذي نجـا منـه عوام المؤمنين البسـطاء الـذين لم تكن لهم مثـل تلـك العقـول الجبارة، ولكنهم لتواضعهم لربهم، أُلهموا وسُددوا؛ فظفـروا بمـا حُرم منه من زعم لنفسه الذكاء، واغتر به، كما قـال تعـالى عن أقوام الأنبياء الذين رفضوا الإذعان لهم مع الحجج العظيمة التي

(1) معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)
(2) معارج القدس في مدارج معرفه النفس (ص: 57)

أتوهم بها: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ (غافر:83)، مع أن علمهم ليس إلا مرحلة بسيطة في التطور العلمي، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (النجم:30)

ولا أريد أن أذكر لك أمثلة على ذلك؛ فأنت تعرف تاريخ الفلسفة والعلوم.. وكيف وقع بعض البشر مع ذكائهم الشديد في كل ألوان السفسطة؛ فراحوا يجحدون الحقائق مع وضوحها وظهورها، فنزلوا إلى مرتبة أدنى من مراتب العوام، بل مراتب الحيوانات التي تقر بوجود العالم الذي تراه وتعيش فيه.

أما المؤمن؛ فإنه لاستضاءته بالنور الإلهي لم يقع في كل تلك السراديب المظلمة التي وقعت فيها العقول المكتفية بنفسها البعيدة عن ربها.

وذلك لا يعني أن تلك العقول قد سبقته، وأن لها ما ليس لديه؛ فالأمر ليس كذلك؛ فكل ما لتلك العقول هو للمؤمن، مع إضافة التسديد الإلهي.

ومن الأمثلة على ذلك أنه في الوقت الذي قد تقبل فيه بعض العقول بالخرافات والدجل الذي لا سند له تجد المؤمن متحريا محتاطا لا يقبل أي شيء من دون أن يدل عليه البرهان، استنادا إلى قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الاسراء: 36)

وفي الوقت الذي يعزل فيه بعضهم مداركه الحسية احتقارا لها بسبب بعض الأخطاء التي تقع فيها، تجد المؤمن يحترم تلك المدارك، مع إقراره بمحدودية دورها؛ فهو لا يستند إليه استنادا كليا، ولا يعزله عزلا كليا، وهو يستند في ذلك إلى قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل: 78)

وهكذا تجد المؤمن في الوقت الذي تعتبر فيه بعض الأديان التفكير ضلالا، وإعمال العقل حجابا عن الحق، يرى أن التفكير عبادة، بل أعظم عبادة، وكيف لا يقف ذلك الموقف، وهو يقرأ قوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالفلك الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ

اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ لأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَلأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: 164)

وهكذاً تجد المؤمن في الوقت الذي كان هناك من يشــكك في المنطــق وبراهينــه، يجــد المنطــق في كتابــه، ويتعلم أنــواع الحجج من آيــات ربــه، ومن الأمثلــة على ذلــك أنــه كــان من مجادلات اليهود لرسول الله ﷺ قولهم:﴿ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: 91)

وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم ذلك بقوله:﴿ قلِ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِـهِ مُوسَـى نُوراً وَهُـدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَـهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُـونَ كَثِـيراً وَعُلِّمْتُمْ مَـا لَمْ تَعْلَمُـوا أَنْتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: 91)

فالقرآن الكريم استعمل المنطق هنا للرد عليهم، ذلك أنــه يلزم من دعواهم تلـك أن اللـه لم يـنزل التـوراة على موسـى.. لكن اليهود يؤمنون بأن التوراة كلام الله؛ ولذلك سألهم القــرآن الكريم سؤالاً استنكارياً، فقال:﴿ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَـاءَ بِـهِ مُوسَى ﴾ (الأنعام: 91)

ولهذا نزه الله تعالى القـرآن الكـريم من التنـاقض، فقـال: ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْـرِ اللـه لَوَجَـدُوا فِيـهِ اخْتِلافاً كَثِيراً ﴾ (النساء:82)؛ فهذه الآية لا تدل فقـط على عـدم تناقض القرآن الكريم، وإنما تجعل عدم هذا التنــاقض دليلاً على كونه من عند الله تعالى؛ لأنــه لا يمكن لمخلـوق أن يكتب كتابـاً في حجم القرآن الكـريم بتعـدد موضـوعاته وخطورتهـا والمـدة الطويلة التي نزل فيها، ثم لا يكون فيما قال تناقض.

وبعد هذا كله؛ فـإن عقـل المـؤمن ليس عقلا متحجـرا، ولا متقوقعا على نفسه، بل هو منفتح على العـالم أجمـع، ويسـتفيد من جميع الخبرات، ومن جميع العقول، حتى لو اختلف معها في بعض النتائج، أو في بعض القضايا، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَـا بَيْنَهُمَـا فِي سِـتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْـتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: 59]، وقـال: ﴿وَمَـا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَـالًا نُـوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْـأَلُوا أَهْـلَ الـذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: 43]

ولهذا تراه يستفيد من الخبرات المختلفة؛ فالعلوم يخدم بعضها بعضا، وهي لا وطن لها، ولذلك كانت الحكمة ضالة المؤمن، أين وجدها فهو أحق بها.

ولهذا أمر الله تعالى بالسير في الأرض والبحث فيها عن الحقائق، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]

وقص علينا القرآن الكريم قصة موسى عليه السلام، والذي لم تمنعه نبوته ورسالته وإمامته لقومه من أن يسير المسافات الطويلة للقاء الخضر عليه السلام ليستفيد منه من العلم ما لم يكن لديه.

وبعد هذا كله؛ فإن عقل المؤمن عقل متواضع، يعرف محدودية المدارك التي وهبت له، ومحدودية العالم الذي يعيش فيه، لذلك يتوقف عن البحث فيما لا دليل عليه إلا الحدس والهوى المجرد، لأنه يعتقد أن الجهل البسيط بالحقائق خير من الجهل المركب بها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (101) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: 101، 102]

ولهذا؛ فإن المؤمن بدل أن يفكر في ذات الله، والتي يستحيل إدراكها، يفكر في أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وسننه وقوانينه في خلقه، لأنها المعارف الوحيدة المتاحة له في هذا العالم، وهي التي يمكنه أن يقوّم بها سلوكه وحياته، ليستقيم عقله العملي كما استقام عقله النظري.

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ بعض مظاهر فضل الله تعالى على المؤمنين أصحاب النفوس المطمئنة بمثل هذه العقول المسددة التي لا تقع في أوحال الهوى، ومستنقعات الدجل، لأنها لا تسير في الظلام المطبق، وإنما تسير بسراج الهداية الإلهية، وعلى ضوئها.

الإشراق الروحي

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الإشـراق الـروحي]، وأقصد به تلك الأنوار التي تتـنزل على قلـوب السـالكين الـذين طهروا مرائيهم من كـل الشـوائب، لتتجلى فيهـا صـور الحقـائق بجمالها وبهائها.. فيمتلئون سعادة بإدراكهم لها.

وهي التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُـورًا يَمْشِـي بِـهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُـهُ فِي الظُّلُمَـاتِ لَيْسَ بِخَـارِجٍ مِنْهَـا كَـذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـافِرِينَ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ﴾ [الأنعام: 122]

فقد أخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن من مواهبـة للصالحين من عباده ذلك النور الذي يمكنهم من أن يعيشوا بين النـاس، أو في العـالم، وهم على بصـيرة من أمـرهم، بحيث يستطيعون التمييز بين الحـق والباطـل، وبين أنـواع الاختبـارات الإلهيـة، وفي نفس الـوقت يمكنهم من إدراك جمـال الحقـائق الوجودية، والتي يمتلئون بسببها سعادة وفرحا.

ذلك أن الروح لا يمكنها أن تبصر الحقائق، وهي تعيش في عالم الظلمات.. ولا يمكنها اكتساب الأنوار إلا بعد رفع الغشـاوة والشوائب عنها.

ولهذا كانت الأنـوار مـواهب إلهيـة تـوزع مجانـا لمن جاهـد نفسه وأزال عنها كـل الحجب الـتي تحـول بينهـا وبين اسـتقبال الأنوار، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69]

ولذلك كان كل سـير السـائرين، وكـل مجاهـداتهم هي في رفع تلك الحجب التي تحول بين بصائرهم وإدراك الحقائق، كمـا يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]، والتي تشير إلى أن الحجب الحائلة بين القلب ورؤيـة الأنـوار هي بسـبب الـذنوب والمعاصـي والمثالب.

ولهـذا؛ فـإن المؤمـنين الـذين امتلأوا بـالأنوار في الـدنيا، يطلبون من الذين قصروا في التماس الأنوار في الدنيا بـالعودة إليها لشحن أنفسهم منها، قال تعـالى: ﴿يَـوْمَ يَقُـولُ الْمُنَـافِقُونَ

وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا [الحديد: 13]

ولهذا أخبر الله تعالى أن النور مبثوث في كل شيء؛ فكل شيء يدل على الله، ويعرف به، ولكن العقول المملوءة بالدخن، والنفوس المملوءة بالهوى، تضع الغشاوات والحجب عن العقول لئلا تبصر ذلك، قال تعالى: اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ [النور: 35]

ثم أخبر أن هذه النور مثل السراج يحتاج أن يوضع في محل بحيث يتمكن من الإضاءة، لمن يريد أن يستضيء به، قال تعالى: مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ [النور: 35]

ثم أخبر أن ذلك النور بسبب حاجته للمبصر والمدرك، لا يهتدي إليه إلا الصادقون المخلصون الذين نزعوا الحجب التي تحول بينهم وبين الرؤية، فقال: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ [النور: 35]

والقلب في ذلك ــ أيها المريد الصادق ــ يشبه المرآة الصقيلة التي تتجلى فيها صور الأشياء؛ فيكون تجليها واضحا بقدر صفائها وخلوها من الشوائب.. فإن لم تكن كذلك، لم تر الحقائق بصورتها الجميلة، وإنما تراها مشوهة، لا تعبر عن الواقع بدقة.

ولعلك رأيت ـ أيها المريد الصادق ـ كيف تكون صورتك في مرآة مقعرة أو محدبة أو مكورة.. أو غيرها من الأشكال.. وكيف أنها تؤثر في سلامة الصورة التي تعرضها لك عن نفسك.

وهكذا؛ فإن كل الذين يقعون في تصورات خاطئة، أو أوهام كاذبة، لا يكون ذلك بسبب الحقائق كما هي في الواقع، وإنما بسبب مرائي قلوبهم التي وجهوها لغير الوجهة الصحيحة، أو وضعوها في غير المحل الصحيح، أو ملأوها بأصناف التشويهات التي حولت صور الحقائق إلى صور مملوءة بالقذارة.

وبذلك فإن النور الإلهي الموهوب لعباده يحتاج إلى وسائل لإدراكه، مثلما نحتاج إلى المراصد والمجاهر للتعرف على حقائق الكون؛ ولا يمكن أن تتوفر تلك المراصد والمجاهر

للنفس من دون تزكيتها وتطهيرها.
ولهذا أخبر الله تعالى أن القرآن الكريم يتنزل نورا خالصا صافيا على المؤمنين؛ فيملؤهم بالإيمان والتقوى، في نفس الوقت الذي يتنزل فيه على من ملأوا نفوسهم بالران، وعقولهم بالأهواء، فيتحول إلى فتن وشبه تزيدهم ضلالا على ضلالهم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 124، 125]
وقال: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: 44]
وقد ضرب الله مثالا على ذلك بالماء الذي يتنزل على الأرض، لكن الوعاء المستقبل له هو الذي يحدد نوع النبات الذي ينبت به.. فالماء واحد، والثمار مختلفة.. قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: 4]
ولهذا؛ فإن السر في كل ذلك يرجع إلى تلك الأنوار التي تغمر القلوب؛ فتتشربها، وتستوعب بها الحقائق، وبقدر تشربها لها تكون قناعتها ويقينها، وبقدر يقينها يكون سلوكها وصلاحها.
وقد ذكرت لك في رسائل سابقة ما ذكره أئمة الهدى والحكماء من أنواع الأنوار التي يهبها الله لعباده ليتيسر السلوك عليهم، وزيادة هدايتهم، ومنها ما أشار إليه الإمام الصادق، بقوله: (الأنوار مختلفة: أولها نور حفظ القلب، ثم نور الخوف، ثم نور الرجاء، ثم نور التذكر، ثم نور النظر بنور العلم، ثم نور الحياء، ثم نور حلاوة الإيمان، ثم نور الإسلام، ثم نور الإحسان، ثم نور النعمة، ثم نور الفضل، ثم نور الآلاء، ثم نور الكرم، ثم نور العطف، ثم نور القلب، ثم نور الإحاطة، ثم نور الهيبة، ثم نور الحيرة، ثم نور الحياة، ثم نور الأنس، ثم نور الاستقامة، ثم نور الاستكانة، ثم نور الطمأنينة، ثم نور العظمة، ثم نور الجمال، ثم نور القدرة، ثم نور الجلال، ثم نور الألوهية، ثم نور الوحدانية، ثم نور الفردانية، ثم نور الأبدية، ثم نور السرمدية،

ثم نور الديمومية، ثم نور الأزلية، ثم نور البقاء، ثم نـور الكليـة، ثم نور الهوية.. ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل، وكلها من أنوار الحق التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿اللـه نُـورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ولكل عبد من عبيده مشرب من نور هـذه الأنوار، وربما كـانَ لـه حـظ من نـورين أو ثلاثـة.. ولن تتم هـذه الأنوار لأحد إلا للمصطفى، لأنـه القـائم مـع اللـه تعـالى بشـرط تصحيح العبودية والمحبة. فهو نور وهو من ربه على نور)(1)

وفسر ذلك بعض الحكماء، فقـال: (الحـق سـبحانه إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليـه أولا بنـور حلاوة العمـل الظـاهر، وهو مقام الإسلام فيهتدي إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوتـه، ثم يتوجه إليه بنور حلاوة العمل الباطن وهـو مقـام الإيمـان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس باللّه والتوحش مما سواه، فيهتدي إليـه ويفـنى فيـه ويـذوق حلاوتـه ويتمكن من المراقبـة، وهذا النور أعظم من الأول وأكمـل، ثم يتوجـه إليـه بنـور حلاوة المشاهدة، وهو عمـل الـروح وهـو أول نـور المواجهـة، فتأخـذه الدهشة والحيرة والسـكرة، فـإذا أفـاق من سـكرته وصـحا من جذبتـه وتمكن من الشـهود وعـرف الملـك المعبـود ورجـع إلى البقاء، كان للّه وباللّه فاستغنى عن النور بمشـاهدة نـور النـور، لأنه صار عين النور، فصار مالكا للأنوار بعد أن كـانت مالكـة لـه لافتقاره لها قبل وصوله إلى أصلها، فلما وصل صـار عبـدا للّـه، حـرّا ممـا سـواه، ظـاهره عبوديـة وباطنـه حريـة، والحاصـل أن المريد ما دام في السير فهو يهتدي بأنوار التوجـه مفتقـرا إليهـا لسيره بها، فـإذا وصـل إلى مقـام المشـاهدة حصـلت لـه أنـوار المواجهــة فلم يفتقــر إلى شــي ء لأنــه للّــه لا لشــي ء دونــه. فالراحلون وهم السائرون للأنوار لافتقارهم إليهـا وفـرحهم بهـا، وهؤلاء الواصـلون الأنـوار لهم لاسـتغنائهم عنهـا باللّـه، فهم للّـه وباللّه لا لشي ء دونه) (2)

وذلك يشبه ـ أيها المريد الصادق ـ من يسير في الظلمـات صحبة سراج مضيء، لكنه كلما اقترب من الهدف، كلما ازدادت الأنوار تألقا وإشـعاعا إلى أن يـرى نفسـه غـير محتـاج للسـراج الذي كان يسير به، لأنه صار مغمورا بالأنوار.

أو بتعبير آخر ـ ربما يكون أدق ـ يصبح نتيجة صـقله لنفسـه

1() نقلا عن: التفسير الصوفي للقرآن عند الصادق، ص 176.
2() إيقاظ الهمم فى شرح الحكم، ص: 110.

وتهذيبه لها مرآة عاكسة للأنـوار؛ فلـذلك يسـتغني بتلـك الأنـوار المنعكسة عليها عن غيرها.

فاجتهد ـ أيهـا المريـد الصـادق ــ في تهـذيب نفسـك حـتى تصبح أهلا لتنزل الأنـوار عليهـا، وحينهـا لن تحتـاج إلى كـل تلـك الأدلة التي ذكرها المتكلمـون أو الفلاسـفة، ولن تطـرق نفسـك كـل تلـك الشـبهات الـتي بحثـوا فيهـا.. لأنـك تصـبح مشـاهدا للحقائق، لا مجرد عالم بها.

وحينها تتحقق بالوراثة الشريفة لمـا ذكـره اللـه تعـالى عن إبـراهيم عليـه السـلام حين قـال عنـه: ﴿ وَكَـذَلِكَ نُـرِي إِبْـرَاهِيمَ مَلَكُـوتَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُـونَ مِنَ الْمُـوقِنِينَ ﴾ [الأنعـام: 75]

فليس ذلك خاصا بإبراهيم عليه السـلام، وإنمـا هـو شـامل لكل من سار في طريق الأنبياء والهداة، واشتغل بتهذيب نفسه وتزكيتها لتتجلى فيها الحقائق بصـورتها الجميلـة، بعيـدا عن كـل التأثيرات والأهواء.

الصبغة الحسنة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسـميته [الصـبغة الحسـنة]، وهي التي وردت الإشارة إليها بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ الله وَمَنْ أَحْسَـنُ مِنَ الله صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: 138]

وهي تشير إلى تلك الألوان التي يتلون بهـا المـؤمن باللـه، ليثبت من خلالهـا عبوديتـه المطلقـة للـه، في مقابـل الألـوان الأخــرى الــتي اختارهــا البشــر لأنفســهم، أو اختارتهــا لهم الشياطين.

والفرق بين ألوان الله التي يختارها لعباده، والألـوان الـتي يختارها البشر لأنفسهم تكمن في امتـداد صـلاحية تلـك الألـوان وثباتهـا.. ذلـك أن كـل الألـوان الـتي يختارهـا البشـر لأنفسـهم سرعان ما تُغير عليها الأيام والليالي لتكشف حقيقتها، وصـورتها البشعة، بخلاف الألوان الإلهية الثابتة، والـتي لا تزيـدها الأيـام إلا لمعانا وبريقا وجمالا.

ولهذا يخاطب الله تعالى البشر يوم القيامة، أولئـك الـذين رغبـوا أن يتلونـوا بـألوان الإيمـان والتقـوى والعبوديـة، والـتي اختارها الله لهم، وراحوا يتلونون بألوان الحسب والنسـب قـائلا لهم: (ألا إني جعلت نسبا وجعلتم نسبا، فجعلت أكرمكم أتقاكم، فــأبيتم إلا أن تقولــوا فلان ابن فلان خــير من فلان بن فلان؛ فاليوم أرفع نسبي، وأضع نسبكم أين المتقون) (1)

وهكـذا كـل تلـك النسـب الكثـيرة الـتي يفخـر بهـا البشـر، ويتوهمون أنهم بسببها على شيء، سـرعان مـا يكتشـفون أنهـا مجرد أهواء غرهم بها الشيطان، أو غرتهم بهـا أنفسـهم، لأنـه لا يمكن أن تبقى راية إلا راية الله، ولا نسبة إلا النسـبة المسـتندة لله، قـال تعـالى: ﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَـيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَـتِ الْيَهُـودُ عَلَى شَـيْءٍ وَهُمْ يَتْلُـونَ الْكِتَـابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُـونَ مِثْـلَ قَـوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [البقرة: 113]

فالآية الكريمة تشير إلا أن كلا من اليهود والنصارى ــ وقـد يكون مثلهم الكثير من المسلمين ـ توهموا أن تلك الأهواء الـتي

(1) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي.

أقحموها في دين الله هي من دين الله، مع أنها ليست كذلك، بل هي دين بشري معجون بالأهواء، وليس بالحقائق.

وهكذا صار الدين ــ مثل النسب تماما ــ سببا للخيلاء والفخر والزهو، كما قال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 111]، ثم رد عليهم بقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: 112]

وكل هذه الآيات الكريمة تشير إلى أن صبغة الله الحقيقية، لا ينبغي أن تخلط بأي صبغة أخرى.. فالمؤمن هو الذي ارتضى صبغة ربه، لا يرتضى بعدها أي صبغة أخرى تنافسها.. ولذلك يسلم وجهه لله تسليما مطلقا، لا كما فعلت اليهود والنصارى وما انحرف من الأديان حين خلطوا أديانهم بشعوبهم وقبائلهم والكثير من أهوائهم، قال تعالى: ﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ الله وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 140]

وصبغة الله الحسنة، والتي اكتست بها روح المؤمن في الدنيا هي نفسها التي تظهر في الآخرة في تلك الصور الجميلة التي يبدو بها المؤمنون، مقابل تلك الصور الكالحة التي يظهر بها غيرهم، كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (22) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (23) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ (24) تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: 22 - 25]

وقال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (38) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (39) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (40) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (41) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (42)﴾ [عبس: 38 - 40]

وقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2)﴾ [الغاشية: 1، 2]، وفي مقابلها: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9)﴾ [الغاشية: 8 - 10]

وقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ الله هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 106، 107]

ولذلك فإن كل معايير الجمال التي نراها في الدنيا ترتفع هناك، حيث تصبح [صبغة الله] هي المتحكم في ألوان ذلك العالم؛ فمن صبغ في الدنيا نفسه بصبغة الله، واكتفى بها، ولم يخلطها بأي ألوان أخرى، سيكون ملك جمال ذلك العالم، أما من عداه، فهو ممتلئ بالكدورة والغشاوة والغبرة.. لأنه حرف حقيقته وصورته.. ولذلك رأى نفسه هناك بصورته الحقيقية التي كان يسترها في الدنيا بألوان الطلاء.

بل إن النصوص المقدسة تشير إلى أن الأمر أخطر من ذلك؛ فهو لا يرتبط بالألوان فقط، وإنما بالماهيات أيضا.. ذلك أن من حافظ على صبغته الإنسانية في الدنيا، والتي لا يمكن تحققه بها إلا بإسلامه لله، ستبقى له في الآخرة، وستظهر بصورة أجمل وأكمل، أما من تحول عنها؛ فراح ينافس البهائم والسباع؛ فإنه سيُحشر على صورها، كما يصطبغ بصبغتها.

وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: 5]، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 34]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 34]، قال ـ بعد أن رأى استغرابهم في ذلك وسؤالهم عنه ــ: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) (1)

إذا عرفت هذا ــ أيها المريد الصادق ــ فاحذر من تلك الألوان التي يدعوك إليها شياطين الإنس والجن، والتي تحول بينك وبين تلك الصبغة التي ارتضاها الله لك، والتي عبر عنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]، وقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]

فالله تعالى لم يرتض لك دينا سوى الإسلام.. فاحذر أن ترغب عنه إلى غيره، واحذر من كل نسبة تحول بينك وبينه.. فكل النسب مستهلكة فيه، وكل نسبة تحول بينك وبينه افتراء على الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِبَ

(1) رواه البخاري (6158)، ومسلم (7265)

وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: 7]

ولهذا أُمر رسول الله ﷺ بأن يتسمى باسم الإسلام، لا بأي اسم آخر كتلك الأسماء التي انحرف بسببها أصحاب الأديان، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: 11ـ 12]، وقال: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: 91، 92]

وهكذا كان أفضل أتباعه وأشرفهم أولئك الذين لم يرغبوا عن اسم الإسلام، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى الله وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: 33]

وهؤلاء هم الذين يحافظون على ملة إبراهيم ورسول الله ﷺ وكل الأنبياء عليهم السلام الذين جاءوا بالإسلام والتسليم المطلق لله تعالى، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي الله حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِالله هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: 78]

وارتضاؤك ـ أيها المريد الصادق ـ لهذه التسمية لا يعني رفعها كشعار فقط، وإنما تعني أن تنصبغ حياتك كلها بصبغته.. فعقيدتك وشريعتك وسلوكك ومواقفك وحياتك جميعا كلها تنطلق من التسليم المطلق لله، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِله رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162، 163]

ولذلك، لا تجعل دينك مجرد طقوس توهم نفسك من خلالها أنك على الحق، مثلما تفعل بعض فرق النصارى حين يغسلون أبنائهم بعد ولادتهم بماء أصفر اللون، ويسمونه غسل التعميد، ويجعلون ذلك تطهيراً للمولود من الذنب الذاتي الموروث من آدم عليه السلام.

فكل ذلك كذب على النفس، وعلى الواقع، وعلى آدم عليه

السلام.. فآدم عليه السلام لم يورث ذنوبه لأبنائه، بل كل إنسان مسؤول عن نفسه.. والماء الأصفر لا يمكن أن يكون مطهرا للذنوب.. بل الندم المصحوب بالأعمال الصالحة هو الذي يطهر الإنسان.. أما الماء بألوانه المختلفة؛ فلا يمكنه أن يفعل شيئا.

ولهذا احذر ــ أيها المريد الصادق ــ من أن تجعل دينك مجرد صبغة ظاهرية تكسوك، مثلما فعل بعض قومك حين توهموا أن التزامهم لا يعدو لحية طويلة، أو قميصا قصيرا، أو بعض المظاهر التي يستطيع كل إنسان أن يظهر بها حتى لو كان قلبه قلب ذئب، وعقله عقل حمار.

الفطرة النقية

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الفطـرة النقيـة]، وهي التي وردت الإشارة إليهـا في قولـه تعـالى: ﴿فِطْـرَتَ الله الَّتِي فَطَرَ الناسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الـروم: 30]

ولعل أقرب شبه يدل على كون الفطرة النقية موهبــة من مواهب الله تعالى لعباده، تلـك الخاصـية الـتي توضـع في بعض الأجهزة الإلكترونية أو الكثير منهـا، والـتي تـتيح لهـا العـودة إلى وضعها الافتراضي، بعد أن يدب إليها الفساد، وتقتحمها الآفــات، ويصـعب التعامـل معهـا.. حينهـا يلجـأ صـاحبها إلى ضـغط الـزر المرتبطة بوضعها الافتراضي لتعود كما كـانت، ومثلمـا اشـتراها بالضبط.

وهكذا؛ فإن الفطرة النقية ـ كما تدل النصوص المقدســة ـ هي الوضع الافتراضـي للإنسـان، أو الجبلـة الأصـلية الـتي جُبـل عليهــا، والــتي تجعلــه يتعــرض للفســاد والانحلال والانتكــاس والارتكاس بقدر بعده عنها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تهديد الشيطان للإنسان بــأن يبعده عن تلك الفطرة، ليتحول إلى كائن غريب عن نفسه، قال تعـالى: ﴿إن يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلَّا إِنَاثًـا وَإِنْ يَـدْعُونَ إِلَّا شَـيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (118) وَلَأُضِــلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُــرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَــامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ الله﴾ [النساء: 117 - 119]

وأخبر أنه استعمل لذلك كل وسائل الإغراء والتزيين، حـتى ينتقل الإنسان تدريجيا من صورته الإنسانية المكرمـة إلى صـور أخرى بعيدة عن الإنسان، قـال تعـالى: ﴿فَلَـوْلَا إِذْ جَـاءَهُمْ بَأْسُـنَا تَضَـرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَـتْ قُلُـوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ مَـا كَـانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: 43]، وقال: ﴿ تَالله لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: 63]، وقـال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّـيْطَانُ أَعْمَـالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَـوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَـارٌ لَكُمْ ﴾ [الأنفـال: 48]، وغيرها من الآيات الكريمـة الـتي تـبين دور الشـيطان في

تحريـف فطـرة الإنسـان، الـتي هي النظـام الـذي يتحـرك على أساسه.

ولذلك كان انحراف ذلك النظام، وتحوله عن حقيقته الــتي صنع عليها، انحرافا بالإنسان نفسه، بل خسارة للإنسان نفسه.. مثل الأجهزة التي تفسد أنظمتها بسبب اقتحام الفيروسات لها؛ فتتحــول عن عملهــا الــذي صــممت لأجلــه إلى أعمــال أخــرى تخريبية لا تتناسب معها.

ولهـذا يخـبر اللـه تعـالى المنحـرفين عن فطـرهم أنهم لم يخسروا سوى أنفسهم، قال تعـالى: ﴿قُـلْ إِنَّ الْخَاسِـرِينَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَلَا ذَلِـكَ هُـوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمـر: 15]، وقـال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِـرُوا أَنْفُسَـهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَـرُونَ (21) لَا جَـرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِـرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [هود: 21، 22]

والآيــات الكريمــة تربــط بين خســارة النفس وخســارة المصـير، وتعتـبر ذلـك من بـاب اللـزوم العقلي، لأن الآلـة الـتي تنحرف عن وظيفتها؛ أو تتحول إلى وظيفة مضادة لوظيفتهـا، لا يمكن لأحـد أن يحتفـظ بهـا، بـل إن مصـيرها الـرمي في سـلة المهملات، أو إعــادة تصــنيعها بعــد تفكيكهــا، وحــرق الأجــزاء الفاسدة منها.

وبناء على هذا كانت الدلالة على كيفية العودة إلى الفطرة النقية، أو الصنعة الأصلية للإنسان، نعمة من النعم الكبرى، لأنها تـتيح لـه أن يسـتعيد نفسـه الـتي خسـرها؛ فـيربح بـذلك دنيـاه وأخراه.

ولا يمكن تحقيق ذلك إلا بتلك الشـريعة الحكيمـة الـتي من الله تعالى بها على عباده، ليتمكنوا من خلال الالتزام بها العـودة إلى حقيقتهم وجبلتهم وفطرتهم.

ولهذا سـمى اللـه تعـالى شـريعته الخاتمـة بكونهـا شـريعة الفطرة، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ الله الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللـه ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30]

وهذا لا يعني أن سائر الشرائع لم تكن دالة على الفطــرة، بـل كـل الشـرائع فعلت ذلـك، ولكن خصوصـية هـذه الشـريعة، بسبب كونها للناس كافة، وكونها خاتمـة الشـرائع، أنهـا لم تحـو تلك الخصوصيات التي اختصت بهـا بعض الشـعوب الـتي نـزلت

الرسائل الإلهية خاصة بها، والتي قد لا تتناسب مع غيرها.

ولعل أقرب مثال لهـذا تلـك الأجهـزة الـتي تصـمم لجهـات معينة، أو ذوي الاحتياجات الخاصة، والتي تتناسب مـع طبـائعهم وحاجاتهم، ولا تتناسب مع غيرهم.

ومن الأمثلـة على هـذا مـا ورد في شـريعة موسـى عليـه السلام من التشديدات الـتي تتناسـب مـع الفطـرة الإسـرائيلية التي انتكست وانحرفت عن مسارها، كما قال تعـالى: فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَـدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللـه كَثِـيرًا (160) وَأَخْـذِهِمُ الرِّبَـا وَقَـدْ نُهُـوا عَنْـهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْـوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَأَعْتَـدْنَا لِلْكَـافِرِينَ مِنْهُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا [النساء: 160، 161]

أي بسبب ظلمهم وصدهم عن سـبيل اللـه وغـير ذلـك من الآثام شـدد عليهم، فحـرمت عليهم الطيبـات الـتي كـان أصـلها حلالا.. وهــذا يــدل على أن الطبيعــة القاســية المتأبيــة لبــني إسرائيل هي السر فيما لحـق شـريعتهم من التشـديد، وإلا فـإن شريعة الله واحدة.

وقــد ذكــر اللــه تعــالى بعض النمــاذج عن هــذه الطيبــات المحرمة، فقال: وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُــرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَـا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَـا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَـاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَـادِقُونَ [الأنعام: 146]

فعلة هذا التحريم كما نصـت الآيـة الكريمـة هـو أنـه جـزاء يتناسب مع بغيهم وعدوانهم، كما قال تعـالى في الآيـة الأخـرى: وَعَلَى الَّذِينَ هَـادُوا حَرَّمْنَـا مَـا قَصَصْـنَا عَلَيْـكَ مِنْ قَبْـلُ وَمَـا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [النحل: 118]

والقرآن الكريم ينص على أن هذه المحرمـات كـان أصـلها حلالا لبــني إســرائيل لــولا أن تــدخلوا بــأهوائهم أو ألحــوا في السـؤال فحـرم عليهم مـا أحـل لهم، كمـا قـال تعـالى: كُـلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْـرَائِيلُ عَلَى نَفْسِـهِ مِنْ قَبْـلِ أَنْ تُنَـزَّلَ التَّوْرَاةُ قُـلْ فَـأْتُوا بِـالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَـا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (93) فَمَنِ افْتَرَى عَلَى الله الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ [آل عمران: 93، 94]

ولهذا أخبر الله تعالى أن من أهداف رسالة المسـيح عليـه السلام رفع بعض تلك الشـرائع المشـددة الـتي لم تكن شـرائع

دائمة، وإنما مؤقتة تتناسب مع طبيعة بني إسرائيل في تلك الأزمنة الخاصة، كما قال تعالى على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: 50]

وهذا أمر غير مستغرب عقلا ولا واقعا، فالقوانين المنظمة لحياة المساجين ليست نفس القوانين المنظمة لحياة الطلبة، لأن طبيعة كل واحد تحتم أن يوضع لها قانون خاص يتناسب معها.

ومن رحمة الله أن الشريعة الخاتمة، والتي لم تكن معلقة بطائفة معينة أو زمن معين كان من خصائصها رفع الإصر الذي وجد في الشرائع السابقة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: 157]

ولذلك عُبر عنها بأنها شريعة الفطرة، أي تتناسب مع الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالمؤثرات الخارجية، وقد روي في الحديث أنه عرض على رسول الله ﷺ ليلة الإسراء الخمر واللبن، فتناول رسول اللّه ﷺ اللبن، فقال له جبريل عليه السلام: (أصبت الفطرة) (1)، ذلك أن اللبن باق على أصل خلقته، بخلاف الخمر الذي تحول بالتخمر عن طبيعته.

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

شفاء الصدور

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [شـفاء الصـدور]، وهي التي وردت الإشارة إليها بقوله تعالى في وصف القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَـا النَّاسُ قَـدْ جَـاءَتْكُمْ مَوْعِظَـةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِـفَاءٌ لِمَـا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]

وهي تدل على أن القرآن الكريم فيـه كـل الحاجـات الـتي تتطلبهـا الحقيقـة الإنسـانية، وبـذلك يسـتطيع أن يسـد فراغهـا ويملأها بالسكينة والطمأنينة، ولا يدعها للحيرة والتيه.

وقـــد أشـــار الإمـــام علي إلى ذلـــك الـــدور في قولـــه: (فاستشفوه من أدوائكم، واسـتعينوا بـه على ولائكم، فـإنّ فيـه شفاء من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق، والغي والضلال) [1]

وهو في ذلك يشبه ما نطلق عليه الحاجـات الغذائيـة الـتي يتطلبها جسم الإنسان ليستطيع القيام بوظائفـه بشـكل سـليم، سواء تلك التي تؤمّن لـه مـا يحتاجـه من الطاقـة، أو تلـك الـتي تساهم في بنائه ووقايته.

وهو ما لا نجده في كل النظريات والفلسفات والمـدارس، لأنها تسبب لمعتنقيها فقرا غذائيا خطيرا لأرواحهم؛ ذلك أنها قـد تجيب عن بعض أسئلتهم، لكنها تعجز عن أكثرها، أو تجيب عنهـا إجابات خاطئة تملؤهم بالكآبة والإحبـاط، ولهـذا تظـل نفوسـهم تتســـاءل في حـــيرة عن هـــذا العلم وســـره، وعن حقيقتهم ومصيرهم وكل شيء يتعلق بهم.

والقرآن الكريم عندما يجيب على تلك التساؤلات، لا يجيب عنها بطريقة استعلائية لا تمنح العقول حظها من التأمـل، وإنمـا يجيب إليها وفق الفطرة الإنسانية، والبديهيات والمسلمات التي تعتقـد بهـا، وتسـتعملها في حياتهـا، ولـذلك يسـتعمل الـبراهين بأنواعها المختلفة.

ولا يكتفي بـذلك، وإنمـا يخـاطب النفس، بمـا تعتقـده من التأثيرات، ليجمع في خطابه لها، كل مـا تـذعن لـه من أسـاليب ووسائل.

ولذلك كان القـرآن الكـريم هـو الحيـاة الـتي تملأ الحقيقـة

1() نهج البلاغة، الخطبة 176.

الإنسانية بكل ما يسعدها ويسرها، لأنها لا يمكن أن تسعد أو تسر وهي تعيش في غياهب الظلمات، وسراديب الجهل.

ولهذا وصف الله تعالى القرآن الكريم بكونه روحا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]

ولذلك دعا إلى الاستجابة له وتفعيله والتأمل فيه لتتحقق الحياة الحقيقية به، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: 24]

ولذلك تطمئن نفوس المؤمنين، وتمتلئ بالرضا الصادق، ولا يصيبها ذلك التيه الذي يصيب أولئك الذين أعرضوا عن رسالة الله تعالى التي توضح لهم حقائق الأشياء، وتبين لهم كيفية التعامل معها.

ولهذا؛ فإنه في الوقت الذي يصيح فيه المؤمنون عند حضور الموت قائلين: (فزت ورب الكعبة)، يردد غيرهم ما ذكره بعض الفلاسفة الممتلئين بالشكوك حين حضرته الوفاة، فهاله الموت وما بعده، فأنشد يقول:

لعمرك ما أدري - وقد أذن [illegible] بعاجل ترحالي- إلى أين ترحالي؟

وأين محل الروح بعد خروجه عن الهيكل المنحل، والجسد البالي؟

وقد روي أن بعض الصالحين بلغه ذلك، فقال: (وما علينا من جهله؟ إذا كان لا يدري إلى أين ترحاله؟ فنحن ندري إلى أين ترحالنا وترحاله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: 13، 14]

ولعلك تعرف ـ أيها المريد الصادق ـ تلك القصيدة التي يسمونها [الطلاسم]، والتي تعبر عن الحيرة الشديدة التي يقع فيها أولئك الذين لم ينعموا بتلك الإجابات الشافية الواردة في كلمات الله المقدسة، فمما جاء فيها:

جئتُ لا أعلم من أين ولكني أتيتُ
ولقد أبصرت قُدّامي طريقا فمشيتُ
وسأبقى ماشيا إن شئت هذا أم أبيتُ
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟
لست أدري!

وقـــد رد عليـــه بعض الشـــعراء المؤمـــنين[1]، يجيبـــه عن تساؤلاته الحائرة، ويقول:

جئت من فيض إله وبنعماه أتيت
حيث أبصرت طريقي مظلما، ثم اهتديت
سائرا . ان شاء . لا إن شئت هذا أو أبيت
كيف غاض النور في عقل ذكي؟
لست أدري!

وعندما قال في مقطع آخر من القصيدة متسائلا وحائرا:

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجودْ
هل أنا حرٌ طليقٌ أم أسيرٌ في قيودْ
هل أنا قائدُ نفسي في حياتي أم مقود
أتمنّى أنني ادري ولكن
لست أدري!

رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:

ليس سراً ذا خفاءٍ أمرُ ذيّاك الوجودْ
كل ما في الكون إبداعٌ إلى الله يقودْ
كائنات البر والبحر على الخلق شهود
ليت شعري كيف ضلّ القوم رشدا!
ليت شعري!

وعندما قال في مقطع آخر متسائلا وحائرا:

أتراني قبلما أصبحتُ إنسانا سويا
أتراني كنت محواً أم تراني كنت شيئا
ألهذا اللغز حل أم سيبقى أبديا
لست أدري!، ولماذا لست أدري!؟
لست أدري!

رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:

قال ربي: كُن فكنتُ ثمّ صِرتُ اليوم حيا
وقواي مُشرعاتٍ كيف شئتُ في يديّا
دُمتُ حرا في اختياري إن عصياً أو رضياً
عن جلِيِّ الأمر ضلوا! كيف ضلوا!
ليت شعري!

وعندما قال في مقطع آخر متسائلا وحائرا:

1() بعض هذه الردود من الشاعر مهـدي الحكيم من شـعراء جبـل عامـل في جنـوب لبنان. ومنها ما هو من تأليف ربيع سعيد عبد الحليم، وهو طبيب وشاعر مصري.

إن في صدري يا بحرُ لأسراراً عجابا
نزل السِّتر عليها وأنا كُنت الحِجابا
ولِذا أزدادُ بُعداً كلّما ازددتُ اقترابا
وأراني كلمّا أوشكت أدري
لست أدري!
رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:
إن في صدري يا بحرُ لأنواراً عجابا
أشرق الإيمان منها وأنا كنتُ الرِّحابا
ولِذا أزدادُ حُبّا كلمّا ازددتُ اقترابا
ليت شعري! هل أرى الأقوام مثلي!
ليت شعري!
وعندما قال في مقطع آخر متسائلا وحائرا:
ولقد قلت لنفسي وأنا بين المقابر
هل رأيت الأمن والراحة الا في الحفائر
فأشارت؛ فإذا للدود عيث في المحاجر
ثم قالت: أيها السائل إني
لست أدري!
رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:
قد تأملت طويلا وأنا بين المقابر
كم عظيم وحقير غاب في هذي الحفائر
كم رؤى عاث بها الدود فغاضت في المحاجر
إنه العدل وكم من قال: إني
لست أدري!
وعندما قال في مقطع آخر متسائلا وحائرا:
إنني جئت وأمضي وأنا لا أعلم
أنا لغز وذهابي كمجيئي طلسم
والذي أوجد هذا اللغز لغز مبهم
لا تجادل يا ذو الحجى من قال: إني
لست أدري!
رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:
أنا موجود، ولاشك بأني اعلم
هل أنا أوجدت ذاتي؟ أم اله منعم؟
بعد ذاتي: أنا خلق قبل ذاتي: عدم
هل تراه ذا حجى من قال: إني

لست أدري!
جل بعين القلب في الكون رويدا وتطلع
فسيرتد إليك الطرف محسورا ويخشع
ملأت آياته الأفاق أنى حلت فابخع
أو ليس الجهل في قولك إني:
لست أدري!
عميت عينا جهود بخطاه تسرع
يرسل الأحكام لا يرنو الى الحق ويخضع
يدعي العلم غرورا وهو بالجهل مقنع
ان تسله موه الجهل بدعوى:
لست أدري!
وعندما قال في مقطع آخر متسائلا وحائرا:
قد سألت البحر يوما هل أنا يا بحر منكا؟
هل صحيح ما رواه بعضهم عني وعنكا؟
أم ترى ما زعموا زورا وبهتانا وافكا؟
ضحكت أمواجه مني وقالت:
لست أدري!
رد عليه الشاعر المؤمن بقوله:
أنت يا بحر شقيق الأرض لا تنفك عنكا
انما الأجساد أمشاج من الترب ومنكا
ليس هذا القول بدعا لا ولا غرورا وافكا
انه الصدق لماذا الشك فيه ؟
لست أدري!

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ نماذج عن تلك التساؤلات التي حارت فيها العقول التي لم تسلم لربها، ولم تستمع للكلمات المقدسة التي نزلت من عيون الرحمة والهداية الإلهية لتبين للبشر حقيقتهم ومصيرهم ووظائفهم، وغيرها من الإجابات التي لا يمكن أن يؤدوا وظائفهم من دونها.

ولو أن هؤلاء تواضعوا، وتخلوا عن ذلك الكبر الذي تفرزه نفوسهم، لعلموا أن الذي اعتنى بخلقه كل هذه العناية، فوفر لهم كل الحاجات، وسد كل الثغرات، يستحيل أن يتركهم هملا، لا يعرفون عن حقيقتهم ووظيفتهم ومصيرهم شيئا.

لكن الكبر هو الذي جعلهم يتوهمون أن تلك الحقائق لا يمكن أن تتنزل على رجل في بيئة بدوية مملوءة بالجهل في

نفس الوقت الذي يحرم منها من رُبوا في الحضارة وبين الكتب والمدارس.

وهؤلاء يكـذبون على أنفسـهم، ذلـك أن اللـه تعـالى العليم بكل شيء، لا يفرض عليه أحد ماذا يفعل، ولا كيف يدبر شــؤون خلقه.. ولا الطريقة التي يخاطبهم بها.

ولو أنهم أعملوا عقـولهم في الكـون الـذي يتوهمـون أنهم يعرفونه لوجدوا فيـه من الأسـرار مـا يـدلهم على أنـه يمكن أن يوضع الترياق الشافي فيما يحتقره الخلق، ويسخرون منه.

الأمل العظيم

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الأمل العظيم]، فالمؤمن لا يعرف اليأس، ولا الإحباط، وكيف يعرف ذلك، وهو يسـتند إلى إلـه عظيم حكيم رحيم لـه القـدرة على كـل شـيء.. ولـذلك لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء؟

ولهذا عندما حزن صاحب رسول الله ﷺ في الغار، قال لـه رسول الله ﷺ منبها ومبشرا: ﴿لَا تَحْـزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَـا﴾ [التوبـة: 40]

وعندما أصابت المسلمين بعض الانتكاسـة في غـزوة أحـد بسبب تخلفهم عن وصـايا رسـول اللـه ﷺ بشـرهم اللـه تعـالى قائلا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]

وكلا الآيتين تذكّران بمعية الله، والإيمان به، باعتبار الإيمان هو أكبر دافع للأمل.. ذلك أن غير المؤمن الذي لا يرى الكون إلا بصورته الصلبة الجافـة الجامـدة، لا يجـد مـا يدفعـه إلى الأمـل؛ فلـذلك يصـيبه الإحبـاط عنـد أدنى الحـوادث، وربمـا يلجـأ إلى الانتحار حتى يتخلص من يأسه وآلامه.

أما المؤمن فهو يرى الكـون بصـورة مختلفـة تمامـا؛ فهـو ليس كون هملا، وإنما هو كون مدار في كل تفاصـيله بإلـه عليم حكيم رحيم قادر على كل شيء، ولا يعجزه شيء، ولا يسـتحيل مع أمره شيء، بـل إن أمـره ﴿ وَاحِـدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَـرِ﴾ [القمـر: 50]

ولهذا عندما توقف الإسرائيليون حزنا على أنفسهم بعد أن صار البحر أمامهم والعدو وراءهم قال موسى عليه السلام بكل أريحية: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: 62]

وعنـدما عجـز الأطبـاء عن علاج أيـوب عليـه السـلام لم يستسـلم لليـأس، ولم يشـعر بالإحبـاط، وإنمـا راح ينـادي ربـه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: 83]

وعندما أحاط المشركون بكل عتـوهم وجـبروتهم بـإبراهيم عليه السلام، لم ييأس، ولم تصبه الكآبة ولا الأحباط، وإنما قال: ﴿أَفَـرَأَيْتُمْ مَـا كُنْتُمْ تَعْبُـدُونَ (75) أَنْتُمْ وَآبَـاؤُكُمُ الْأَقْـدَمُونَ (76)

فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (77) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (78) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (80) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (81) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ [الشعراء: 75 - 82]

وهكذا غرس الله تعالى الأمل في قلب رسول الله ﷺ وقلوب أمته من بعده، بعد أن أشاع المشركون أن الله تعالى قد هجر نبيه وقلاه بسبب انقطاع الوحي لفترة قصيرة، فقال الله تعالى مطمئنا له: وَالضُّحَى (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى [الضحى: 1 - 8]

وكل لفظة من هذه الآيات الكريمة تملأ النفس بالأمل.. وأولها ما أقسم الله تعالى به من الضحى والليل والتقلبات المختلفة التي تحصل في الكون.. فهي جميعا تدل على قدرة الله تعالى المطلقة.. فالذي خلق الليل هو الذي خلق النهار.. والذي خلق السعادة هو الذي خلق الشقاوة.. والذي خلق اليأس هو الذي خلق الأمل.. فلذلك يلجأ المؤمن في كل حاجاته إليه، لأنه صاحب كل شيء، وبيده كل شيء.

ولذلك لا يستسلم المؤمن للأشياء، ولا للأحداث، لأنه يعلم أنها لاتملك من أمرها شيئا، بل الله تعالى هو مديرها ومدبرها ومسيرها.. ولهذا يرى في الظلمات النور، وفي الموت الحياة، وفي العسر اليسر، وفي الشدة الفرج.

ولهذا ذكر الله تعالى خطابه لأم موسى عليه السلام، فقال: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [القصص: 7]

ولثقة أم موسى عليه السلام بربها، وضعت ابنها في اليم.. واستسلمت لأمر ربها.. وإذا به لا يسلم من القتل فقط، وإنما يربى في قصر فرعون، وتعود أمه إلى تربيته وحضانته، وبمرتب جزيل من الإدارة الفرعونية التي كانت تبحث عنه لقتله، كما قال تعالى: وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (12) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ [القصص: 12، 13]

وبهذا السر لم ييأس يعقوب عليه السلام من أن يعود إليـه ابنه، بل ظل على أمله في اللـه على الـرغم من أن كـل شـيء يتناقض مع ذلك الأمل، قال تعالى حكاية عن حديثـه مـع أبنائـه: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيـهِ وَلَا تَيْأَسُـوا مِنْ رَوْحِ اللـه إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللـه إِلَّا الْقَـوْمُ الْكَـافِرُونَ﴾ [يوسـف: 87]

وهــذا ليس خاصــا بالأنبيــاء عليهم الســلام، أو بمن ذكــرهم القرآن الكريم، بل هو عام لكل الخلق، وما ورد في القرآن الكريم ليس سوى نماذج تدعو إلى الاقتداء بها.

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ أن الأمل في اللـه، وانتظـار فرجـه من أعظم العبادات، فقال: (سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل، وأفضل العبادة انتظار الفرج)[1]

والسر في ذلك هـو أن القصـد من العبـادة خلاص القلب من كل الشوائب، وقطعه لكل العلائق، وذلك ما يحصل للعبد إذا خلص قلبه لله منتظرا فرجـه؛ فهـو في تلـك الحـال لا ينظـر إلا للـه.. ولا ينتظر إلا من الله.

وقد اعتبره ﷺ أفضل العبادة، لأن الإنسان قد يكـون غـافلا في صلاته، بينما هو في انتظار الفرج متعلق بالله تعلقا تاما.. لا يغفل عنه لحظة.. وكـذلك قـد تصـاب الصـلاة بنـوازع الشـرك.. بينما في الانتظار لا تحدثه نفسه بأي رياء أو مسمعة..

ولهــــذا ورد في بعض الكتب الإلهيــــة: (وعــــزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل غـيري باليـاس، ولألبسـنه ثـوب المذلـة عند الناس، ولأخيبنـه من قـربي ولأبعدنـه من وصـلي، ولأجعلنـه متفكرا حيران يؤمل غـيري في الشـدائد، والشـدائد بيـدي، وأنـا الحي القيوم، ويرجو غيري ويطرق بالفكر أبواب غـيري، وبيـدي مفاتيح الأبواب، وهي مغلقة، وبابي مفتوح لمن دعاني)، ذلك أن كل أمل في غير الله يـأس، وكـل رجـاء في غـيره طمـع، وكـل استعانة بغيره خذلان.

ولهذا كان من وصايا رسول الله ﷺ العظيمة قوله: (احفظ اللـه يحفظـك، احفـظ اللـه تجـده أمامـك، تعـرف إلى اللـه في الرخــاء، يعرفــك في الشــدة، فــإذا ســألت، فســل اللــه، وإذا استعنت، فاستعن بالله، جف القلم بما كان وما هـو كـائن، فلـو جهد العباد أن ينفعوك بشـيء لم يكتبـه اللـه عـز وجـل لـك، لم

1() الترمذي.

يقـدروا عليـه، فـإن اسـتطعت أن تعمـل للـه بالصـدق واليقين، فافعل، فإن لم تسـتطع، فـإن في الصـبر على مـا تكـره، خـيراً كثيراً، واعلم أن النصر مع الصـبر، وأن الفـرج مـع الكـرب، وأن مع العسر يسراً)[1]

فهذه الوصية النبوية العظيمة تعمق كل المعاني التي تدعو إلى الأمل في الله، ذلك أنه المـدبر لكـل شـيء.. فلا حفـظ ولا عون ولا رخاء ولا شدة إلا بيد الله تعالى، لذلك كان رجاء غيره، أو الخوف منه نوعا من الكذب، لأن الغير لا يملك مع الله تعالى شيئا.

ولهـذا عـاش الصـالحون بصـحبة هـذه المعـاني ممتلـئين بالأمـل، وهم في أسـوإ الظـروف وأقسـاها، لكنهـا لم تهن من عزائمهم، ولم تفل من قواهم، ذلك أنهم يعلمون أن كـل شـيء بيد الله، وأنه حتى لو لم تتحقق لهم بعض مطـالبهم في الـدنيا؛ فإن مـا ينتظـرهم في الآخـرة أعظم ممـا يتصـورون، كمـا قـال تعالى في خطابه الذي يدعو الخلق فيـه إلى الأمـل: وَلَلْآخِـرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى [الضحى: 4]

وقد قال بعض الشعراء معـبرا عن تلـك المعـاني القرآنيـة النبوية التي يدل عليها كل شيء:

يا صاحب الهم إن ... أبشر بخير فإن
إذا بليت فثق بالله ... إن الذي يكشف
اليأس يقطع أحيانا ... لا تيأسن فإن الفارج
الله يحدث بعد ... لا تجزعنّ فإن الكافي
والله ما لك غير الله ... فحسبك الله في كلّ

وقال آخر:

إذا ضـــاق أمـــر ... فأصـعب الأمرأدنـاه

وقال آخر:

كن عن أمـورك ... وكل الأمور إلى
فلربمـــا اتســـع ... وربمـــا ضـــاق

1() الحديث بهذا اللفظ رواه الطبراني في الكبير وابن حبان.

ولـــــرب أمــــــر | لك في عواقبـه
اللــه يفعــل مــا | فلا تكن
اللـــــه عـــــودك | فقس على مـــا

وقال آخر:

رب أمــر ضــاقت | جاءهـــا من قِبَـــل
لا تكن في وجــــه | ربمــا قــد فــرجت
بينما المرء كـئيب | جـاءه اللــه بــروح

هذه ـ أيها المريـد الصـادق ــ بعض البشـارات الـتي تـدلك على مصدر النور والرحمة والهداية واللطف؛ فلا تنحـرف عنهـا، واجعـل كـل أملـك فيهـا، واحـذر من أولئـك الـذين اسـتعبدتهم الأسـباب؛ فتوهمـوا أنهـا صـارت متحكمـة في خالقهـا وبارئهـا ومدبرها.. فالله تعالى وحده مدبر كل شيء، فلا شـيء إلا منـه، ولا شيء إلا به.

التوازن الدقيق

من مواهب الله تعالى لعباده لتحفيزهم للسير إليه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [التوازن الدقيق]، وأقصد به ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: 7 - 9]

فالآية الكريمة تدل على أن الله تعالى الذي أقام موازين السموات والأرض وكل شيء، بحيث لا يبغي شيء على شيء، ولا يطغى شيء على شيء، هو الذي عرّف عباده بالموازين التي يمكنهم إن أقاموها أن يحفظوا حقيقتهم من أن تتسرب إليها الأهواء؛ فتدنسها، وتنتكس بها.. وهذا من نعم الله العظمى.

وأنت ترى ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ في كل الأجهزة التي يصنعها البشر؛ فكلما كان الجهاز أكثر تعقيدا، كلما احتاج إلى شروح تفصل كيفية التعامل معه، بحيث لا تتجاوز الكهرباء والحرارة والرطوبة حدودها التي تضر بها.. وهم عادة يذكرون أن الأعطال أو العطب المرتبط بذلك غير مضمون، لأنه يمكن أن يتفاداه المشتري.

وهكذا ترى في صنعة الله تعالى في جسمك ذلك التوازن الدقيق الذي يحفظ عليك صحتك.. حتى أن الأطباء يتحدثون عما يسمونه [الميزان الصحي]، ويعتبرونه مع ما يسمونه [الرصيد الصحي] من أبعاد الصحة الكبرى.. وفى إطارهما يعرفون الصحة على أنها (المعافاة الكاملة، جسمياً ونفسياً واجتماعياً، لا مجرد انتفاء المرض أو العجز) [1]

ولذلك كان للإيمان والتزكية دورهما العظيم في حفظ الصحة، لأنهما يوفران البيئة المناسبة لها.. وفي جوانبها المختلفة.

ففي التغذية مثلا، تحض النصوص المقدسة على وجوب الأكل من الطيبات، ومن غير إسراف.. لأن في طقوس الجوع

1() نقلا عن الدكتور محمد هيثم الخياط، فقه الصحة، محاضرة ألقاها في المؤتمر الرابع للطب الإسلامي الذي عقد في كرا تشي سنة 1405 للهجرة [1984 للميلاد)، ونشرت في المجلد الذي أصدرته المنظمة الإسلامية عن المؤتمر.

الشديد الذي تدعو إليه بعض الأديان المحرفة ما يضـر بالصـحة، وفي الإسراف والبذخ والترف ما يضر بها أيضا، ولهذا قـال اللـه تعـالى: ﴿وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلَا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ ﴾ [الأعراف: 31]

وهكذا في أخـذ الزينـة؛ فـإن الشـريعة السـمحة لم تحـرم الزينة مطلقا، مثلما تفعل بعض الأديان المحرفة، وإنمـا تبيحهـا، ولكن في حدودها ووفق الضوابط التي لا تضر بالصحة النفسـية والاجتماعية، كمـا قـال تعـالى: ﴿ قُـلْ مَنْ حَـرَّمَ زِينَـةَ اللـه الَّتِي أَخْـرَجَ لِعِبَـادِهِ وَالطَّيِّبَـاتِ مِنَ الـرِّزْقِ قُـلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُـوا فِي الْحَيَاةِ الـدُّنْيَا خَالِصَـةً يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ كَـذَلِكَ نُفَصِّـلُ الْآيَـاتِ لِقَـوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 32]

لكن هذه الزينة إن بولغ فيها، وأدت بضـرر على المجتمـع، حرمت، ولهذا حـرم اللـه تعـالى الـترف، فقـال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَـا أَنْ نُهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُوا فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَـوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: 16]

فالآية الكريمة تشير إلى أن كثرة المترفين أو انتشــار قيم الترف والبذخ في مجتمع من المجتمعات [1] مؤذن بهلاكها..

ولهـذا فـرقت الشـريعة بين الغـنى المـوزون بـالموازين الأخلاقية، والغنى اللامنضبط بها، أمـا الأول؛ فهومشـروع، واللـه تعالى لم يحرم الكسب والعمل، وأما الغنى المبـني على الظلم والقسوة؛ فلا شك في حرمته.

وهكذا في كل الأمور تجد الشريعة تدعو إلى التوازن الذي لا تستقيم الحياة الصحية إلا به.

ولـذلك كـان التـوازن خاصـية من خصـائص الإسـلام في عقيدته وشـريعته ومواقفـه وكـل جوانبـه، ولـذلك كـان كـل من اشـتط أو وقـع في الغلـو منحرفـا عن الـدين بحسـب غلـوه وتطرفه.

ولهـذا لمـا تصـور بعضـهم أن حقيقـة العبـادة وكمالهـا في

1() الأقوال في تفسير كلمة (الأمر) الواردة في الآية الكريمة ثلاثة، وهي:

الأول: أنه من الأمر، وفي الكلام إضمار، تقـديره: أمرنـا مترفيهـا بالطاعـة، ففسـقوا، ومثله في الكلام: أمرتك فعصيتني، فقد علم أن المعصية مخالفة الأمر.

والثاني: كثَّرنا يقال: أمرت الشيء وآمرته، أي: كثَّرتـه، ومنـه قـولهم: مهـرة مـأمورة، أي: كثيرة النتاج، يقال: أَمِرَ بنو فلان يأمرون أمراً: إذا كثروا.

والثالث: أنَّ معنى أمرنا أمّرنا، يقال: أمرت الرجل، بمعنى، أمّرتـه، والمعـنى: سـلّطنا مترفيها بالإمارة.

التفرغ لها حسب بعض صورها أنكر رسول اللـه ﷺ ذلـك إنكـارا شديدا، مبينا لهم طريق الاعتدال، فقد روي أن ثلاثة سـألوا عن عبادته ﷺ، فلما عرفوها تقالوها[1]، ثم بـرروا ذلـك بقـولهم:(أين نحن من رسول الله، وقد غفر اللـه لـه مـا تقـدم من ذنبـه ومـا تأخر؟)، ثم قال أحدهم:(أما أنا فأصوم الدهر، ولا أفطر)، وقـال الثاني:(وأنا أقـوم الليـل فلا أرقـد)، وقـال الثـالث:(وأنـا أعـتزل النساء فلا أتـزوج أبـدا)، فلمـا سـمع النـبي ﷺ مقـالتهم جمعهم وخطب فيهم قائلا:(إنمـا أنـا أخشـاكم للـه وأتقـاكم لـه، ولكـني أصـوم وأفطـر، وأقـوم وأنـام، وأتـزوج النسـاء، فمن رغب عن سنتي فليس مني)[2]

وسر ذلك أن هـؤلاء غـابت عنهم كثـير من الفـرائض الـتي تجعل حياتهم متوازنة معتدلة لا يغلب فيها جانب جانبـا، فطلبـوا عبادة الله بما أحبوا لا بمـا أحب، مـع أن أفضـل العبـادة هي أن يؤدي المؤمن ما طلب منه أولا.

ومما يروى في هذا أنه لما آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلـة فقـال لها: مـا شـأنك؟ قـالت: أخـوك أبـو الـدرداء ليس لـه حاجـة في الدنيا؛ فجاء أبو الدرداء فصـنع لـه طعامـاً فقـال لـه: كـل فـإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل، فلما كـان الليـل ذهب أبو الدرداء يقوم فقال: نم. فنام، ثم ذهب يقـوم فقـال لـه: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. فصـليا جميعـا، فقـال له سلمان: إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليـك حقـاً، لأهلـك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه. فـأتى النـبي ﷺ فـذكر ذلـك له، فقال النبي ﷺ:(صدق سلمان)[3]

فأبو الدرداء في هذا الحديث لاحـظ ناحيـة تصـور أنهـا هي الأصل، وغابت عنه نواح أخرى لا تقل عن الناحية التي لا حظها، وهي حق زوجه، بل حق نفسه في الراحة لأن الله لم يخلق لنـا هذه الأجساد لنعذبها، بل لنطيعه بها، زيادة على أن قصـور هـذه الأجساد سيمنعه من عبادات أخرى كثيرة.

ولهـذا كـان ﷺ يلاحـظ في التكـاليف طاقـة البشـر، لأن العبادات موجهة للبشر، فعندما واصل بعضهم نهاه، فلما قـالوا:

1() عدوها قليلة.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه البخاري.

(إنك تواصل؟)قال:(إني لست كهـيئتكم إني أبيت يطعمـني ربي ويسقيني)[1]

بل كان ﷺ يدع العمل وهو يحب أن يعمل خشية أن يعمــل به الناس فيفرض عليهم[2].

ولما سمع ﷺ بمقولة بعض أصحابه:(واللـه لأصـومن النهـار ولأقومن الليل ما عشت)، قال رَسُول الله ﷺ:(أنت الذي تقـول ذلك؟)، قال عبـد اللـه: فقلت لـه:(قـد قلتـه بـأبي أنت وأمي يـا رَسُول اللـه)، قـال:(فإنـك لا تسـتطيع ذلـك؛ فصـم وأفطـر ونم وقم، وصـم من الشـهر ثلاثـة أيـام فـإن الحسـنة بعشـر أمثالهـا وذلــك مثــل صــيام الــدهر)، قلت:(فــإني أطيــق أفضــل من ذلك)قال:(فصم يوماً وأفطر يومين)، قلت:(فإني أطيـق أفضـل من ذلك)، قال:(فصم يوماً وأفطر يوماً فـذلك صـيام داود عليـه السـلام، وهـو أعـدل الصـيام) فقلت:(فـإني أطيـق أفضـل من ذلك)، فقال رَسُول الله ﷺ:(لا أفضل من ذلك)

وكـان ذلـك الصـحابي يقـول بعـد ذلـك:(ولأن أكـون قبلت الثلاثــة الأيــام الــتي قــال رَسُــول اللــه ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي)[3]

ولهذا كان ﷺ ينهى عن السلوكيات التعبديـة الـتي لا معـنى لها، والـتي هي مظهـر من مظـاهر تعـذيب الجسـد الـذي أمرنـا بحفظـه، فعن ابن عبـاس قـال: بينمـا النـبي ﷺ يخطب إذا هـو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبـو إسـرائيل نـذر أن يقـوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: (مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)[4]

فلم يترك لـه ﷺ إلا الصـوم لأنـه هـو العبـادة الوحيـدة من تصرفاته التي لها معـنى، أمـا مكوثـه في الشـمس وقيامـه، فلا معنى له.

بـل إنـه ﷺ نهى عن القيـام مـع فضـله العظيم إذا تعـارض ذلك القيام مع حاجة الإنسـان الطبيعيـة من النـوم، وعلـل ذلـك بعدم استفادة القائم من قيامـه، قـال ﷺ:(إذا نعس أحـدكم في الصلاة فليرقد حتى يذهب عنه النوم فإن أحدكم إذا صـلى وهـو

1() رواه البخاري ومسلم.
2() رواه البخاري ومسلم.
3() رواه البخاري ومسلم.
4() رواه البخاري.

ناعس لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه)[1]، وقال: (إذا قام أحدكم من الليل فاستعجم القرآن على لسانه فلم يدر ما يقول فليضطجع)[2]

ودخل ﷺ مرة على عائشة وعندها امرأة، فقال:(من هذه؟)، قالت: هذه فلانة، تذكر من صلاتها، فقال ﷺ:(مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل اللّه حتى تملوا[3]وكان أحب الدين إليه ما داوم صاحبه عليه)[4]

ولهذا، فإن التوازن الذي أرادته الشريعة من المسلم يتحقق بالأداء الأمثل لأوامر الشرع، فهي الوحيدة الكفيلة برده إلى جادة الاعتدال، لأن السلوك المتطرف ناتج عن الهوى، لا عن الشرع.

وأول من يمثل الشريعة المتوازنة هو رسول الله ﷺ، وقد قال بعض الحكماء مشيرا إلى التوازن الذي كانت عليه حياته ﷺ، والذي جعل كل طائفة من الطوائف تأخذ ببعض من هديه وتنسبه إليها: (وما ينبغي أن يعلم أن كل خصلة من خصال الفضل قد أحل الله رسوله ﷺ في أعلاها، وخصه بذروه سنامها، فإذا احتجت بحاله فرقة من فرق الأمة التي تعرف تلك الخصال وتقاسمتها على فضلها على غيرها، أمكن للفرقة الأخرى أن تحتج به على فضلها أيضا)[5]

ثم ذكر نماذج على ذلك، منها أنه إذا احتج به الزهاد والمتخلفون عن الدنيا على فضلهم، احتج به الداخلون في الدنيا والولاية، وسياسة الرعية، لإقامة دين الله، وتنفيذ أمره.. وإذا احتج به الفقير الصابر، احتج به الغني الشاكر.. وإذا احتج به أهل العبادة على فضل نوافل العبادة وترجيحها، احتج به العارفون على فضل المعرفة.. وإذا احتج به أرباب التواضع والحلم، احتج به أرباب العز والقهر للمبطلين والغلظة عليه والبطش بهم.. وإذا احتج به أرباب الوقار والهيبة والرزانة، احتج به أرباب الخلق الحسن والمزاح المباح الذي لا يخرج عن الحق، وحسن العشرة للأهل والأصحاب.. وإذا احتج به أصحاب

1() رواه البخاري ومسلم.

2() رواه مسلِمٌ.

3() أي لا يقطع ثوابه عنكم وجزاء أعمالكم ويعاملكم معاملة المالّ حتى تملوا فتتركوا.

4() رواه البخاري ومسلم.

5() عدة الصابرين: 229.

الصدع بالحق والقول به في المشهد والمغيب، احتج به أصحاب المـداراة والحيـاء والكـرم أن يبـادروا الرجـل بمـا يكرهـه في وجهه.. وإذا احتج به المتورعون على الـورع المحمـود، احتج بـه الميسـرون المسـهلون الـذين لا يخرجـون عن سـعة شـريعته ويسرها وسهولتها.. وإذا احتج به من صـرف عنايتـه إلى إصـلاح دينه وقلبه، احتج به من راعى إصلاح بدنه ومعيشته ودنياه، فإنه ﷺ بعث لصـلاح الـدنيا والـدين.. وإذا احتج بـه من لم يعلـق قلبـه بالأسـباب ولا ركن إليهـا، احتج بـه من قـام بالأسـباب ووضـعها مواضـعها وأعطاهـا حقهـا.. وإذا احتج بـه من جـاع وصـبر على الجوع، احتج به من شبع وشكر ربـه على الشـبع.. وإذا احتج بـه من أخــذ بــالعفو والصــفح والاحتمــال، احتج بــه من انتقم في مواضع الانتقام.. وإذا احتج به من أعطى للـه ووالى اللـه، احتج به من منع لله وعادى لله..

وهكذا كان ﷺ مثالا ونموذجا وقـدوة في كـل شـؤونه، لأنـه جمع الخير من أطرافه جميعـا؛ فـالزم ــ أيهـا المريـد الصـادق ـ هديه واحذر من أن تنحرف بك السـبل؛ فتنحـرف عن حقيقتـك، فرسول الله ﷺ هو الإنسان الكامل الذي أمرنا أن نبني حقائقنـا على نموذجه؛ فاسع لأن تتحقق بذلك؛ فلن تنال كمال إلا بذلك.

المحبوبية والمودة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [المحبوبية والمودة]، وهي الـتي وردت الإشـارة إليهـا في الكثـير من النصـوص المقدسـة، ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَـيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مريم:96]

ومثلهـا تلـك النصـوص الـتي تـذكر بعض صـفات الـذين يتشـرفون بـأعظم محبـة في الوجـود، وهي محبـة اللـه تعـالى ووده، كقوله تعالى عن حبه للمحسنين:﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة:195]، وقوله:﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّـرَّاءِ وَالْكَـاظِمِينَ الْغَيْـظَ وَالْعَـافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِـنِينَ ﴾ [آل عمـران:134]، وقولـه: ﴿ فَآتَـاهُمُ اللَّهُ ثَـوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: 148]

ومثلهـا إخبـاره عن حبـه للمتطهـرين بكـل أنـواع الطهـارة حسيها ومعنويهـا، كقولـه تعـالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ [222]﴾ [البقرة]، وقوله:﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَـداً لَمَسْـجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُـومَ فِيـهِ فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ [التوبة:108]

ومثلها إخباره عن حبـه للمتقين، كقولـه تعـالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَـإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمـران:76]، وقوله:﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُـوكُمْ شَـيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَـداً فَـأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلَى مُـدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة:4]

ومثلها إخباره عن حبـه للصـابرين، كقولـه تعـالى:﴿ وَكَـأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَـابَهُمْ فِي سَـبِيلِ اللـه وَمَـا ضَـعُفُوا وَمَـا اسْـتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ ﴾ [آل عمران:146]

ومثلها إخبـاره عن حبـه للمتـوكلين، كقولـه تعـالى:﴿ فَبِمَـا رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِـكَ فَـاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَـاوِرْهُمْ فِي الْأَمْـرِ فَـإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللـه إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَـوَكِّلِينَ] [آل عمـران:

[159

ومثلها إخباره عن حبه للمقسطين، كقوله تعالى:﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: من الآية42] وقوله:﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الممتحنة:8]

ومثلها إخباره عن حبه للمضحين بأنفسهم في سبيل نصرة الحق، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:4]

ومثلها إخباره عن حبه للمتبعين لرسول الله ﷺ، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [آل عمران:31]

ومثلها ذلك الحديث العظيم الذي يشير فيه رسول الله ﷺ إلى شروط المحبوبية، وطريق التحقق بها، وهوقوله ﷺ حاكيا عن ربه تعالى:(من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن: يكره الموت، وأنا أكره مساءته)[1]

وإن شئت أن تعرف قيمة هذه الموهبة؛ فاستشعر الفرق بين المشاعر التي تجدها في نفسك عند حبك لشخص من الناس، من دون أن تعلم مبادلته لك بالحب، وبين أن تعرف أنه يبادلك المحبة؛ فلا شك عند العقلاء أن الحب من طرف واحد عذاب وبلاء شديد، كما قال الشاعر معبرا عن ذلك:

فمن البلية أن تح... ب ولا يحبك من تحبه

ويصد عنك بوجهه... وتلح أنت فلا تغبه

ولذلك كان في المحبوبية من المشاعر ما لا يمكن تصوره.. وكيف تُتصور، والمحب هو الله العظيم البديع الذي لا يمكن وصف جماله وكماله وعظمته؟

وفوق ذلك كله؛ فإن المحبوبية هي الطريق الأيسر والأخصر للقرب.. فإذا أحب الله عبدا قربه إليه، وجعله من

1() رواه البخاري وغيره.

أوليائه.. ومن وصل إلى تلك المرتبة السـنية، صـار محـل عنايـة إلهية خاصة.. فمن آذاه صار متعرضا لحـرب اللـه تعـالى.. ومن نصره كان من المنتصرين لله تعالى.

ولـذلك لم يكن الشـأن في أن تحب اللـه.. فلا يملـك من يعرف عظمة الله وكماله وجماله ألا يحبه.. ولكن الشأن في أن يصير المحب محبوبـا.. فـذلك هـو الكمـال، وتلـك هي السـعادة العظمى.

ولهذا حذر الله تعـالى المؤمـنين في كـل العصـور أنـه في حـال تخلفهم عن هـدي نـبيهم ﷺ ووصـاياه، سيسـتبدلهم بمن يبادلهم المحبة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مَنْ يَرْتَـدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]

ثم وصـــفهم بقولـــه: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُـــؤْمِنِينَ أَعِـــزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـه وَلَا يَخَـافُونَ لَوْمَـةَ لَائِمٍ ذَلِـكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54]

ثم أخبر عن ولايتهم لله، فقال: ﴿إِنَّمَـا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَـاةَ وَهُمْ رَاكِعُـونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَـإِنَّ حِـزْبَ اللـه هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: 55، 56]

وهذا يدل على أن نصرة الله وولايته وتمكينه ثمـار لمحبتـه للذين نصرهم ومكنهم.. وهكـذا كـل المـواهب والثمـار مرتبطـة بمحبة الله تعالى ومودته.

واعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أن تلك المحبة، ومن خلال ما دلت عليه النصوص المقدسة، ليست محبة اعتباطية، أو مختصة بجنس دون جنس مثلما كان يعتقد الذين أخبر الله تعالى عنهم، فقـال: ﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ وَالنَّصَـارَى نَحْنُ أَبْنَـاءُ اللـه وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: 18]

وإنما هي محبة معقولة المعـنى، ومرتبطـة بـالقيم النبيلـة، ويمكنك من خلال النصوص المقدسة أن تكتشف أسـرارها، بـل كيفيـة التحقـق بهـا، وتلـك موهبـة جديـدة، ونعمـة من النعم العظمى التي لا يمكن وصفها أيضا.. ذلك أن عدالـة اللـه تعـالى أبت أن تحـرم أحـدا من التحقـق بهـذه الموهبـة العظمى.. بـل أتاحتها للجميع، وليس على من يريد التحقـق بـذلك إلا أن يـدفع ثمن تلك المحبوبية المقدسة.

ومن الأمثلـة على ذلـك حب اللـه تعـالى للمحسـنين؛ وهـو

مرتبط بحب الله تعالى للجمال والكمال، كما قال ﷺ: (إن اللـه جميل يحب الجمال)[1]

فالمحسن هو الذي اكتمل جمال روحه حتى صار مجلاة للحق، وصار بذلك أهلا للمحبة والمودة، كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: 60]، وقال: ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: 26]

ومثل ذلك محبة الله تعالى للتائبين؛ فالقلب الذي طهره ماء التوبة والإنابة قلب قد بذرت فيه شجرة الجمال، وصفيت مرءاته لتستعد لتجلي أنوار الحق.

ومثل ذلك محبة الله تعالى للمتقين، ذلك أن المعصية هي الحجاب الحائل بين الحق وعباده، فإن أزيل هذه الحاجز بالتقوى تقرب القلب من الرب، وصار أهلا لمحبته.

ومثل ذلك محبة الله تعالى للصابرين، ذلك أن جميع مجامع الخير مرتبطة بصبر صاحبها في ذات الله، أو في طاعته، أو عن معصيته، أو على مقاديره.

ومثل ذلك محبة الله تعالى للمتوكلين، ذلك أن التوكل هو ثقة العبد في الله وإحسان الظن به، وهو صادر عن التوحيد المحض الذي يغيب فيه القلب عن غير الحق.

ومثل ذلك محبة الله تعالى للمتبعين لرسول الله ﷺ، فرسول الله ﷺ هو محبب العباد إلى الله، ومحبب الله إلى عباده واسطة الحب المقدس.. ولذلك كانت محبته هي السبيل الأعظم لتحقق محبوبية الله تعالى، بل إن من لم يحب رسول الله ﷺ، ولم يتبعه، محجوب عن تلك المحبة العظيمة.

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ أصول القيم التي يمكنك من خلالها أن ترتقي في سلم الكمال، لتنال هذه المحبة العظيمة.. محبة الله.. فاجتهد لأن تكون من أهلها؛ فما أعظم وما أسعد من يكون محبوبا لله.. فهو يأمن حين يخاف الناس.. ويطمئن حين يضطربون.. ويفرح حين يكتئبون.. ويأنس حين يستوحشون..

وكيف لا يحصل له ذلك.. وهو مع ربه، وربه معه.. وهل يمكن لمن حصلت له هذه المعية الشريفة الممتلئة بالمشاعر النبيلة أن يصيبه أي أذى، أو يلحقه أي ألم؟

1() رواه مسلم.

الولاية والنصرة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسـميته [الولايـة والنصـرة]، وهي التي وردت الإشارة إليها في قول الله تعالى معبرا عن القـانون الذي يحكم عالم النصر والهزيمة: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: 40]

ذلك أن عالم النصر والهزيمـة مثـل كـل العـوالم بيـد اللـه تعالى وحده؛ فهو الذي يدبر شؤونه؛ وهو الذي يرسـل النصـر أو الهزيمة لمن شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، لا معقب لحكمه، ولا مبدل لكلماته، ولا راد لأمره.

ولهذا تضمنت كلمـات اللـه المقدسـة الكثـير من الحقـائق المرتبطة بهذا العالم وقوانينه وسننه، وأولهـا اعتبـار النصـر من الله وحده، وأن القوة والكـثرة مهمـا بلغت لن تحـول بين نصـر الله تعالى أو هزيمته.

ولهذا اعتبر ربط النصر والهزيمة بغير الله شركا، كما قـال تعـالى: ﴿وَاتَّخَـذُوا مِنْ دُونِ اللـه آلِهَـةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَـرُونَ (74) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَـرُونَ﴾ [يس: 74، 75]، وقال: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُـرُكُمْ مِنْ دُونِ الـرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ [الملك: 20]، وقال: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْـدِهِ وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 160]

وأول ثمـرات هـذه الحقيقـة عـدم الاغـترار بالنصـر حـال تحققه، بل اعتباره فضلا إلهيا مرتبطـا بشـروطه الخاصـة، وأول شروطه التواضع والأدب، ولهـذا قـال اللـه تعـالى لرسـول اللـه حين بشـره بالنصـر القـريب: ﴿إِذَا جَـاءَ نَصْـرُ اللـه وَالْفَتْحُ (1) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّه أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر: 1 - 3]

ووصف عباده الصالحين الذين تحققت لهم شروط النصـر، فقال: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُـورِ ﴾ [الحج: 41]

ولهـذا يخـبر اللـه تعـالى المؤمـنين أن كـل مـا يحصـل في

المعارك التي يخوضونها هي توفيق محض من الله تعالى، قال تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (17) ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ [الأنفال: 17، 18]

ويخبر أن العجب والغرور قد يكون من الحجب التي تحول بين المؤمنين وبين نصر الله الذي وعدهم فيه، قال تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ [التوبة: 25]

ومن أصول التوحيد المرتبطة بالنصر والهزيمة أن الله تعالى هو المتفرد بالتوقيت المناسب الذي يتحقق فيه نصره لعباده، ولذلك كان المستعجل جاهلا بربه، غوغائيا مستهترا، وقد وصفه الله تعالى بقوله: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ [الحج: 15]، أي أنّ الذين يظنّون عدم نصر الله لهم، عليهم أن يعملوا ما شاءوا، وليذهبوا إلى السّماء، ويعلّقوا أنفسهم بحبل، ثمّ ليقطعوا هذا الحبل حتّى يقعوا على الأرض.

وقد قال بعض العلماء في تفسيرها (جميع التفاسير تركّز على ملاحظة نفسيّة تخصّ الأشخاص الحادّي المزاج، والضعيفي الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالا جنونية كلّما بلغت أمورهم طريقاً مسدوداً في الظاهر، فيضربون الأبواب والحيطان تارةً، وأخرى يودّون أن تبتلعهم الأرض، وقد يصمّمون على الإنتحار لإخماد نيران غضبهم. في وقت لا تحلّ فيه هذه الأعمال الجنونية مشاكلهم، ولو تريّثوا قليلا، والتزموا بالصبر وسعة الصدر، ونهضوا بعد التوكّل على الله والإعتماد على النفس في مواجهة مشاكلهم، لأصبح حلّها مؤكّداً) [1]

ولهذا اعتبر البلاء السابق للنصر ضروري حتى تمحص الصفوف، وتبتلى النفوس ليميز أولياء الله الذين يستحقون النصر عن غيرهم، قال تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا

1() تفسير الأمثل، مكارم الشيرازي (10/ 301)

إِنَّ نَصْرَ الله قَرِيبٌ [البقرة: 214]
ومن أصول التوحيد المرتبطة بالنصر والهزيمة، والتي بسببها يقع الخطأ في عدم التفريق بين النصر الحقيقي والنصر المزيف، شمول النصر لكل لطائف الإنسان، وعدم اقتصاره على بعضها.. ولذلك قد تكون الهزيمة الظاهرية في بعض المحال سببا لنصر باطني عظيم.

ذلك أن حياة الإنسان لا تقتصر على حياته الظاهرية الجسدية الاجتماعية فقط، بل له حياة أخرى أعمق، هي حياته الروحية الباطنية، والعبرة بتحقق النصر لها لا بتحققه للظاهر فقط.

ولهذا كانت الهزيمة الظاهرية للمؤمنين في غزوة أحد سببا لانتصارات باطنية في نفوسهم، جعلتهم يعون أن النصر من الله، وأنه لا يتحقق إلا بالمتابعة التامة لرسول الله ﷺ.. وكان ذلك الاعتقاد والسلوك المرتبط به هو السبب في كل الانتصارات الظاهرية اللاحقة.

ولهذا؛ فإن النصر الإلهي بمفهومه الشامل لا يقتصر على الانتصار على الأعداء الحسيين فقط، وإنما يشمل أيضا الانتصار على أعداء الروح، وأولهم الشيطان الرجيم؛ ذلك أن كل نصر حسي لا يكون معه النصر على الشيطان سيتحول إلى هزيمة مريرة.

وبناء على هذا؛ فإن النتيجة النهائية للنصر والهزيمة لا ترتبط بالدنيا فقط، وإنما ترتبط بالآخرة؛ فقد ينتصر بعض الناس في بعض المعارك الدنيوية الهامشية البسيطة، لكنه يكتشف نفسه بمجرد رحلته إلى عالم الآخرة أن كل تلك الانتصارات لم تكن سوى ركام من الهزائم يجتمع عليه عذابها في الآخرة.

وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك عند حديثه مع الخصوم الذين يأتونه ليحكم بينهم، حيث كان يقول لهم: (إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار) [1]

وبذلك فإن المنهزم في تلك المحاكمات الظاهرية هو الكاذب المدعي حتى لو حُكم له، لأن حكم البشر لبعضهم بعضا

1() رواه البخاري ومسلم.

لا يغير في الواقع شيئا.. ولذلك إن لم ينتصر صاحب الحق في الدنيا؛ فإنه سينتصر في الآخرة.. وبنصر أعظم من النصر الذي كان يمكن أن يحصل عليه في الدنيا.. بل إنه قد يتمنى أن تكون كل انتصاراته قد أجلت له إلى الآخرة.

ويشير إلى هذا قوله ﷺ: (من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه؛ من عرضه أو من شيءٍ، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهمٌ؛ إن كان له عملٌ صالحٌ أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسناتٌ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه) [1]

وقال: (من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة) فقال رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ فقال: (وإن قضيبا من أراك) [2]

وقال: (لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما) [3]

وقال: (من مر في شيء من مساجدنا، أو أسواقنا، ومعه نبل فليمسك، أو ليقبض على نصالها بكفه؛ أن يصيب أحدا من المسلمين منها بشيء) [4]

وبذلك؛ فإن نصر الله الذي وعد به المؤمنين متحقق لا محالة، سواء في هذه الدنيا، أو في الآخرة، وسواء في عالم الروح أو عالم الجسد.. والمؤمن هو الذي يسلم لربه، ولا يجادله، لأنه يعلم أنه الأدرى والأعلم بمصالحه.

ولهذا؛ فإن الآيات التي تعد المؤمنين بالنصر وتعد أعداءهم بالهزيمة متحققة لا محالة، سواء في هذا العالم البسيط المحدود، أو في ذلك العالم الممتد الذي لا حدود له، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 40 - 42]، وقال: ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (91) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (92) مِنْ دُونِ الله هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: 91 - 93]

وأخبر عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه ناصحا:

1() رواه البخاري.
2() رواه مسلم.
3() رواه البخاري.
4() رواه مسلم.

﴿ يَاقَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ الله إِنْ جَاءَنَا﴾ [غافر: 29]

وأخبر عما حصل لفرعون وملئه بعد كل ذلك الزهو والكبرياء والغرور، فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: 41، 42]

وأخبر عما حصل لقارون، وهزيمته بعد كل ذلك الاستعلاء والزهو، فقال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ الله وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: 81]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ــ فاعلم أن كل تلك النصوص المقدسة، وكل تلك الحقائق العقدية التي تقررها لا هدف لها سوى أن تملأ نفسك بالقيم المرتبطة بالنصر.. وأولها أن تنتصر لله.. وأن تبذل كل شيء في سبيل نصرك له.. حتى لو كنت وحدك في العالم من يحمل تلك الراية؛ فلا تتصور أن العالم يمكنه أن يغلب جنديا يكون الله تعالى معه.

وهذا ما يحفظك من أن تتبع الظلمة والمستبدين والمستكبرين راجيا نصرهم، أو خائفا هزيمتك إن واجهتهم.

ولهذا أخبر الله عن موسى عليه السلام، وأنه قال حينما حوصر ذلك الحصار المرير؛ فظن من معه أنهم قد وقعوا في الهلاك المحتم بحسب القوانين التي يعرفونها: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء: 62)، وبمجرد أن قالها أمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فانفلق، فكان كل فرق كالطود العظيم، فنجا موسى عليه السلام ومن معه أجمعون..

ومثل ذلك ما أخبر به عن رسول الله ﷺ، وفي أشد الأوقات صعوبة، قال تعالى:﴿ إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ الله هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(التوبة:40)

ومثل ذلك ما أخبر به عن المؤمنين الصادقين في اتباعهم لرسول الله ﷺ، والذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: 23]

فأولئك المؤمنون لم يبالوا بكل التحذيرات التي وجهت

لهم، لعلمهم بقوانين النصر والهزيمة، كما قـال تعـالى: ﴿الَّذِينَ قَـالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَـدْ جَمَعُـوا لَكُمْ فَاخْشَـوْهُمْ فَـزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (173) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـه وَفَضْـلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُـوا رِضْـوَانَ اللـه وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: 173، 174]

فاجتهـد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ في أن تكـون في صـف أوليـاء اللـه الـذين ينصـرونه، وينصـرون الحـق والمستضـعفين، بنصرته لـه، فالهزيمـة الحقيقيـة ليس هنـا، ولا في هـذا العـالم، وإنما في ذلـك العـالم الـذي تتجلى فيهـا الحقـائق، ويـزول فيـه الزور والكذب والبهتان.

أعياد الوصال

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [أعيـاد الوصـال]، وهي الهبة التي عبر عنها بعض الصالحين، فقال ـ مخاطبا ربه ـ:

عيدوا إليَّ ... فإنَّ وصلي بكُم
وقرّبوا الوصل ... فالقُربُ
خذوا فؤادي ... وقلِّبوهُ كما
فإن وجَدتُم فيه ... عليّ زيدوا
وكل يومٍ أراكُم ... فذاكَ عندي يومٌ

وعبر عنها آخر، فقال:

ليس عيد المحب ... وانتظار الأمير
إنما العيد أن تكون ... كريماً مقرباً في

وقال آخر:

إذا ما كنت ... فما أصنع
جرى حبك ... كجري الماء

وأنشد آخر:

قالوا غداً العيد ماذا أنت ... فقلت خلعت ساق
صبر وفقر هما ثوبان ... قلب يرى إلفه الأعياد
أحرى الملابس أن تلقى ... يوم التزاور في الثوب
الدهر لي مأتم إن غبت ... والعيد ما كنت لي

وعبر عنها آخر نـثرا، فقـال: (ليس العيـد بلبس الناعمـات، وأكــل الطيبــات، ومعانقــة المستحســنات، والتمتــع باللــذات والشهوات، لكن العيد بظهور علامة القبـول والطاعـات وتكفـير الــذنوب والخطيئـات، وتبـديل السـيئات بالحسـنات، والبشـارة

بارتفاع الدرجات والخلع والطرف والهبات والكرامات، وانشراح الصدر بنور الإيمان، وسكون القلب بقوة اليقين وما ظهـر عليـه من العلامـات، وانفجـار بحـور العلـوم من القلب على الألسـنة وأنواع الحكم والفصاحة والبلاغة) [1]

ويروى عن بعض الصالحين أنه قصده بعضهم، فسلم عليه، وقال له: أريد إن أكلمك، فقال: اليوم لنـا عيـد.. فتركـه ثم جـاء يوماً آخر، فقال له مثل ذلـك، ثم جـاء يـوم آخـر فقـال لـه مثـل ذلك، فقال له: ما أكثر أعيادك؟ فقـال الصـالح: (يـا بطـال، أمـا علمت أن كل يوم لا نعصي الله فيه فهو لنا عيد) [2]

ويروى أن رجلا دخل على الإمـام علي في يـوم عيـد، وهـو يأكل الخبز الخشكار، فقال له: اليوم يوم العيد وأنت تأكل الخبز الخشكار؟!.. فقال: (اليوم عيد لمن قبل صومه، وشـكر سـعيه، وغفر ذنبه، اليوم لنا عيد وغداً لنا عيد، وكل يـوم لا نعصـي اللـه فيه فهو لنا عيد) [3]

وقبل ذلك كله وبعده قال رسـول اللـه ﷺ معـبرا عن هـذه الهبة: (للصائم فرحتان فرحـةٌ عنـد فطـوره، وفرحـةٌ عنـد لقـاء ربه) [4]

وكل هذه النصوص تشير إلى أن المؤمـنين الصـادقين مـع ربهم، ليسوا محرومين من تلك المناسبات الـتي يقيمهـا البشـر فيما بينهم، ليملؤوها بالفرحة المشروعة وغير المشروعة.. تلك الــتي يســمونها أعيــادا.. والــتي لا يخلــو منهــا مجتمــع من المجتمعات.

فـالمؤمن مـع مشـاركتهم في تلـك الأعيـاد المشـروعة، وفرحهم معه فيها، يختصه الله تعـالى بمناسـبات أخـرى كثـيرة، تجعله دائم البشر والسعادة، وفي فرح لا يقـل عن ذلـك الفـرح الذي يقع للمحتفلين بالأعياد المختلفة.

ذلك أن خزائن الفرح والسرور بيد الله تعـالى، وهـو الـذي يرسـلها لمن يشـاء، ويحـرم منهـا من يشـاء.. فلـذلك قـد تجـد الشخص، وفي يوم العيد المخصص للفرح ممتلئـا وحشـة وألمـا وحزنا، وتجد غيره، وفي الوضع الـذي يـدعوه إلى الكآبـة والألم

1() الغنية لطالبي طريق الحق، ج 2 ص 339، 340.
2() لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص 307.
3() الغنية لطالبي طريق الحق، ج 2 ص 340.
4() البخاري (7492)، مسلم (1151) 164.

ممتلئا سعادة وسرورا.

ومثل ذلك قد تجد من يسكن القصر الفاره، ولديه كـل مـا يحتاجه وما لا يحتاجه من النعيم.. ومع ذلك تجده ضيق الصدر لا يكاد يشعر بلذة شيء.. وتجد في مقابله من يسـكن الكـوخ، ولا يجد من متع الحياة شيئا، لكن مع ذلك يرسل الله لـه من جنـود الفرح والسعادة ما يملؤه بهما من غير أن يعلم سببا لذلك.

ولهذا؛ فإن من كـرم اللـه تعـالى للمـؤمن أن يرزقـه ذلـك الفرح ومـا يرتبـط بـه من السـعادة عنـد أدائـه لكـل عبـادة من العبادات.. كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ عند ذكره لفرحـتي الصائم في الدنيا والآخرة.

ويختلف ذلك بحسـب مرتبتـه من الإيمـان والتقـوى.. فـإن كـان من أصـحاب اليمين، تـذكر عنـد كـل طاعـة من الطاعـات النعيم المرتبط بها؛ فيمتلئ بالسعادة لذلك.. لأنـه يعلم أن ذلـك الجزاء المدخر له أعظم من أن يوازى بأي نعيم من نعم الدنيا.. فلذلك يتأمل كل حين خزائنه، وما أودع فيها من الخـيرات الـتي لا يعرفها غير ربه؛ فيفرح ويسعد، ويشعر بغناه الذي لا يشعر به غيره.

وأمـا إن كـان من المقـربين؛ فإنـه يشـعر بلـذة الوصـال الإلهي، والذي هـو الجنـة الحقيقيـة، وهـل يمكن لمن يعيش في جنة الوصال الإلهي أن يتسرب إليه الألم أو الحزن..

ولذلك فإن سعادة المقربين لا تـدانيها أي سـعادة أخـرى.. ذلك أنهم متصلون بعـز الأزل والأبـد.. وبالجمـال الـذي لا حـدود له.. فهم في كل لحظة يعيشـون عيـدا جديـدا، وفرحـة جديـدة، وبحسب تلك الأنوار التي تلـوح لهم، والحقـائق الـتي تمتلئ بهـا لطائفهم.

ولـذلك لا يجـدون لغـة تعـبر عن سـعادتهم ونشـوتهم إلا باستعارة تلـك اللغـة الـتي يسـتعملها البشـر حين يـذكرون آثـار الخمـر فيهم، وكيـف تنتشـي لهـا أرواحهم، كمـا عـبر عن ذلـك بعضهم بقوله: (من جملة ما يجري في كلامهم الذوق والشرب، ويعبرون بذلك عما يجدونه من ثمرات التجلي ونتـائج الكشـوف وبـوادر الـواردات.. وأول ذلـك الـذوق ثم الشـرب ثم الـري.. فصـفاء معـاملاتهم يـوجب لهم ذوق المعـاني ووفـاء منـازلاتهم يـوجب لهم الشـرب، ودوام مواصـلاتهم يقتضـي لهم الـري.. فصاحب الذوق متسـاكر، وصـاحب الشـرب سـكران، وصـاحب

الري صاح، ومن قوي حبه تسرمد شربه، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً، فكان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ) (1)

وقد قال شاعرهم معبرا عن آثار تلك النشوة العظيمة التي يحدثها الوصال مع الله:

ومقعد قوم قد مشى ... وأعمى سقيناه ثلاثاً
وأخرسٌ لم ينطق ... أدرنا عليه الراح
وآخر بين الناس لا ... سقى قطرة من
وميت دعا الساقي به ... وسبح للصهباء
فلو عاين الرهبان ... لصلوا له مثل

وقال آخر في وصف بعض آثار أعياد الوصال مع الله، وعلاجها لكل الآلام:

وإنْ خَطَرَتْ يَوماً على ... أقامَتْ بهِ الأفْراحُ،
ولو نَضَحوا مِنها ثَرى قَبْرِ ... لعادَتْ إليهِ الرُّوحُ،
ولو طرحوا في فيءِ ... عليلاً وقدْ أشفى لفارقهُ
ولوْ قرَّبوا منْ حلها ... وتنطقُ منْ ذكري
ولوْ عبقتْ في الشَّرقِ ... وفي الغربِ مزكومٌ لعادَ
ولوْ خضبتْ منْ كأسها ... لما ضلَّ في ليلٍ وفي
ولوْ جليتْ سرّاً على ... بصيراً ومنْ راوقها
ولو أنّ ركْباً يَمّمَوا تُرْبَ ... وفي الرَّكْبِ ملسوعٌ
ولوْ رسمَ الرَّقي حروفَ ... جبينِ مصابٍ جنَّ أبرأهُ
وفوقَ لِواء الجيشِ لو ... لأسكرَ منْ تحتَ اللِّوا

فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على أن تعيش هذه الأعياد؛ فمن لم يعشها في الدنيا، لن يعيشها في الآخرة، ومن حُرم

1() الرسالة القشيرية، ص 65.

منها في الـدنيا، فقـد حـرم من أشـرف لـذاتها وأعظمهـا، وهـل يمكن أن تساوي أي لذة في الدنيا مهمـا عظمت لحظـة واحـدة من تلك البوارق التي تهب على قلوب الصالحين؛ فينشغلون بها عن كل شيء.

أسماء السعادة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [أسماء السعادة]، ويشـير إليها قوله ﷺ: (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة غـير واحـد من أحصاها دخل الجنة) [1]

فهذا الحـديث يشـير إلى أن أسـماء اللـه الحسـنى ليسـت أسماء للتعريف بالله تعـالى فقـط، وإنمـا هي أيضـا وسـيلة من وسائل السعادة، وسبب من أسـبابها العظمى، ولـذلك ربـط ﷺ إحصاء الأسماء بالجنة.. فلكل اسم جنته الخاصة به.

ولعل أقرب مثال يوضح لك ذلك أن تتاح لك وظيفة معينة، وتعلم من خلالها أن عليك واجبات كثيرة يتحتم عليـك أن تؤديهـا لتنال مرتبك، ثم تعلم بعدها أن كل نجـاح لـك في أي عمـل من الأعمال المرتبطة بتلك الوظيفـة سـتكافأ عليـه بترقيـة جديـدة، تتيح لك الكثير من الصلاحيات التي لم تكن متاحة لك قبل ذلك.

فبعض الترقيـات تـتيح لـك أن تسـافر لمـا شـئت من بلاد العالم، ومن دون حدود لـذلك.. وبعضـها يـتيح لـك أن يبـنى لـك قصر من القصور، وفي أي محل تريد.. وهكـذا يمكنـك أن تنفـذ جميع رغباتك الخفيـة والظـاهرة من خلال نجاحاتـك المسـتمرة في الأعمال التي كُلفت بها.

وهكـذا ــ وللـه المثـل الأعلى ــ تـدرجك في التعـرف على الحقائق العظمى المرتبطة بأسماء الله الحسنى؛ فهي تتيح لـك الترقي في مراتب العرفان، وفي كل مرتبـة من المـراتب تجـد من الحظوظ التي كنت ترغب فيها ما لا يخطر لك على بال..

وبذلك تظل متقلبا بين دور السعادة إلى الأبد.. فلكل اسم من الأسماء الحسنى جنته الخاصة بـه، والـتي لا يمكن لأي نعيم في الدنيا أن يوازيها.

فمن خلال معرفتك باسـم اللـه البـديع والمصـور والجميـل تكتشف السر وراء كل صـورة جميلـة في الكـون.. فكـل زهـرة جميلة، وكل ثغـر مفـتر بابتسـامة عذبـة، وكـل ملامح وقسـمات هزت قلوب العاشـقين.. وكـل صـوت جميـل تـرنحت لـه أرواح الهائمين.. ليس سوى ذرة من ذرات إبداع الله الجميل المصـور

[1] صحيح البخاري: 3/ 198.

البديع.. ولذلك كان معرفتك به، معرفة بمصدر كل جمال.

ولذلك إن احتجت أن تُرزق بعض الجمـال، أو الكثـير منـه، فما عليك سوى أن تمد يـدك إليـه.. ولن يبخـل عليـك.. فـالجود الإلهي لا حدود له.

وهكذا؛ فإنه من خلال معرفتك باسم الله الـرحمن الـرحيم تكتشف أن الكون كله مبني على الرحمة الإلهيـة.. ولـذلك تجـد الأنس والعـزاء لكـل مظـاهر الألم الـتي تراهـا، لأنـك تعلم أنهـا مظاهر مؤقتة، اقتضتها هذه الدار المبنية على الاختبار الإلهي..

بل إنك تدرك مع ذلك أن الرحمة الإلهية ـ التي قدرت ذلك البلاء المحـدود ــ سـتعوض أصـحابها عن كـل معانـاتهم وآلامهم بأضعاف ما تحملـوه، بـل إنهم يتمنـون لـو ضـوعف عليهم البلاء ليضاعف لهم ذلك الثواب العظيم.

ولهذا لا تتسرب إليك تلك الوساوس الشيطانية التي تصور لك ربك بصورة القاسي المعذب لخلقه.. بل إنك ترى كل حنـان ورحمـة تتـنزل في كـل شـيء من اللـه تعـالى، فلـولاه لم تكن رحمة في الوجود.

وهذا كله ما يجعلك تعيش في جنة عظيمة.. لأنــك تعلم أن ربـك لن يقسـو عليـك، بـل سـيرحمك، وسـيكون لطيفـا بـك.. وخاصة إن تأدبت بأدبه، وتربيت وفـق مـا طلب منـك، لأن ذلـك في مصــلحتك، ولا يمكن لحقيقتــك أن تجــد كمالهــا ولا لــذتها وسعادتها إلا بذلك.

وهكـذا؛ فإنـه من خلال معرفتـك بأسـماء اللـه الدالـة على العدل أن تكتشف أن الكون كلـه مبـني وفـق المـوازين الإلهيـة التي لا محل فيها للظلم والجور.. ولذلك لا تدع اليـأس يتسـرب إليــك إن رأيت جــور الجــائرين، وظلم الظــالمين، واســتبداد المستبدين، لأنك تعلم أن هناك محكمة إلهية قائمة على العــدل المطلق، وأنها ستحاسب كل أولئك على كل ذرة ظلم فعلوها.

وهذا ما يجعلك في راحة عظيمة، تحمد اللــه على أن كنت مظلوما لا ظالما، لأن حقـك لن يضـيع أبـدا، بـل سـتعوض عليـه بأضعاف الآلام التي أصابتك بسببه.. وذلك ما يجعلك في جنة قد يتعجب منهـا الظلمــة أنفسـهم، لأنهم لا يـرون الواقـع بصـورته الحقيقية، وإنما يرونه بصورته المزيفة.

ولو أنهم رأوا الواقع بصورته الحقيقية، لوجدوا كل مظلــوم صلوه بنارهم، لا يختلف عن إبـراهيم عليـه السـلام الـذي حـول

الله تعالى له النار بردا وسلاما.
وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تعيش في جنة اسم الله القادر.. لترى من خلالها مظاهر القدرة التي لا حدود لها.. والتي لم يكتشف البشر إلا قطرة من محيطها الذي لا حدود له، ومع ذلك امتلأوا بالانبهار والتعجب.
ويمكنك أن تعيش في جنة اسم الله العزيز.. لترى عزة الله تعالى على المستكبرين عليه، والذين حجبوا عنه من غير حجاب سوى أهوائهم وغفلتهم وكبرهم.. ثم تحمد ربك على أنه مع عزته لم يحجبك عنه، بل أتاح لك أن تتعرف عليه، وتتصل به، وتتحدث معه، وتسمعه..
ويمكنك أن تعيش في جنة اسم الله الغفور.. لتتخلص من كل تلك الآلام التي سببتها لك ذنوبك وخطاياك، وتعلم أن ربك مسامح كريم، وأنك ما دمت قد قصدته؛ فلن يردك خائبا، بل سيمحو كل ذنوبك، حتى التي لم تنتبه لها.. وقد يبدلها لك حسنات لتسعد بها في دنياك وأخراك.. ويوم القيامة لن تراها.. ولن يشهد الشهود عليها.. لأن مغفرة الله تقتضي المسح التام لها، وكأنك لم تفعلها.
وهذا ما يجعلك ممتلئا حياء من الله؛ فلا تكتفي بتلك التوبة البائسة الحقيرة، بل تتوب توبة نصوحا صادقة تتناسب مع من تريد أن تتوب إليه.
ويمكنك أن تعيش في جنة اسم الله القريب المجيب لتشعر بأنه لا مسافة بينك وبين ربك، وأنه أقرب إليك من حبل الوريد، وأنه معك في أي مكان أو زمان.. وأن وجوده معك ليس مجرد حضور، بل هو وجود إيجابي، فيمكنه أن يخلصك من كل مأزق، ويرد عنك كل كيد، ويجلب لك كل خير.. وليس عليك سوى أن تمد يد قلبك للطلب منه؛ فهو لا يرد من قصده، ولا يخيب من دعاه.
ويمكنك أن تعيش في جنة اسم الله السميع البصير لتعلم أنك على مرأى منه، وهو يسمعك ويراك، ويعلم بكل حالة تكون عليها، وذلك ما يشعرك بالأنس، كما يملؤك بالحياء، كما يدفعك إلى القيام بكل ما يرقى بك وبأخلاقك..
وهكذا يمكنك ـ أيها المريد الصادق ـ أن تعيش مع جميع أسماء الله الحسنى.. فلكل اسم من عوالم الجمال والكمال ما يملؤك بالسعادة.

وليس ذلك فقط.. بل إن كل اسم من أسماء اللـه معـراج من معـارج التزكيـة والتربيـة والترقيـة.. فمعرفتـك باسـم اللـه الرحيم تجعلك ممتلئا بالرحمة والحنان واللطـف، ويـذهب عنـك كل قسوة وغلظة وجفاء.

ومعرفتك باسم اللـه الحكيم تجعلـك من الحكمـاء، وطلاب الحكمة، والمستغرقين في عوالم الجمال المرتبطة بها.

ومعرفتك باسم اللـه اللطيـف تجعلـك لطيفـا في سـلوكك ومعاملاتك، وفي كل شـؤونك، فلا تتهـور، ولا تتعجـل، بـل تتخـذ الإجراءات المناسبة لكل عمـل تـراه، ولكـل هـدف تصـبو إليـه، حتى تصل إليه بلطف لا بعنف، وبحكمة لا بتهور.

ومعرفتك باسم الله الواحد تجعل قلبك متوجها إليه وحده، لا تخـاف من غـيره، ولا تنحـني طمعـا لسـواه.. بـل تكتفي بـه.. وتعلم أن كل شيء بيده، لذلك تتخلص من كل الرعونـات الـتي يدعو إليها الشرك، ويملؤك من خلالها بالشتات.

وهكذا.. فإن كـل اسـم من أسـماء اللـه الحسـنى مدرسـة تربوية قائمـة بـذاتها، تهـذبك وتؤدبـك وترقيـك لتتحلى بحقيقتـك الإنسانية في أوج كمالها.

الأشواق الشريفة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعـانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الأشـواق الشـريفة]، وأقصد بها ما وفره الله تعالى لعباده الصالحين من المعاني النبيلـة لحقائق الوجود والحياة، والتي تجعلهم متلهفين شوقا إليها.. وهو ما ينفي عن حياتهم ذلك السأم والملل الذي يسببه عدم وجود أمثـال تلك الأشواق.

ذلك أن البشر جميعا يشعرون بأنـه لا معـنى للحيـاة إن لم يكن فيها حبيب يشتاقون إليه، ويرتاحون بالجلوس معه، ويمنون أنفسهم بأن يبادلهم نفس المحبة والمشاعر.

وقد قال بعض شعرائهم يعبر عن ضرورة ذلك:

هل العيش إلا أن تروح وتغتدي   وأنت بكأس العشق في الناس نشوان

وقال آخر:

وما طابت الدنيا بغير محبة   وأي نعيم لامرئ غير عاشق

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فأنت وعير في الفلاة سواء

وقال آخر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

وقال آخر:

ما دنت بالحب الا   والحب دين الكرام

وعلى هـذا اتفـق جميـع الحكمـاء في علم النفس والمجتمـع وغيرها، فهم يذكرون من فضائل المحبة والشوق على الإنسان أنه (فضيلة تنتج الحيلة، وتشجع الجبان، وتسخي كف البخيل، وتصـفي ذهن الغبي، وتطلق بالشعر لسان العجم، وتبعث حزم العاجز وهـو عزيز يدل له عز الملوك، وتضـرع لـه صـولة الشـجاع، وهـو داعيـة الأدب وأول باب تفتـق بـه الأذهـان والفطن، وتسـتخرج بـه دقـائق المكايـد والحيـل، وإليـه تسـتريح الهمم وتسـكن نـوافر الأخلاق والشيم، يمتع جليسه ويؤنس أليفه وله سـرور يجـول في النفـوس

وفرح يسكن في القلوب)[1]

ويــذكرون أن (أرواح العشــاق عطــرة لطيفــة، وأبــدانهم ضعيفة، وأرواحهم بطيئة الانقياد لمن قادها، حاشي سكنها الذي سكنت إليه، وعقدت حبها عليه.. وكلام العشاق ومنادمتهم تزيـد في العقول، وتحرك النفوس، وتطرب الأرواح، وتجلب الأفـراح، وتشــوق إلى مســامع أخبــارهم الملــوك فمن دونهم.. ويكفي العاشق المسـكين الـذي لم يـذكر مـع الملـوك ومـع الشـجعان الأبطال أنه يعشق ويشتهر بالعشق فيذكر في مجـالس الملـوك والخلفاء فمن دونهم، تدور أخبـاره، وتـروى أشـعاره، ويبقى لـه العشق ذكراً مخلداً، ولولا العشق لم يذكر له اسم، ولا جرى لـه رسم، ولا رفع له رأس، ولا ذكر مع الناس)

وقال آخر: (اعشقوا.. فـإن العشـق يطلـق اللسـان، ويفتح جبلـة البليـد والبخيـل، ويبعث على التلطـف وتحسـين اللبـاس وتطييب المطعم ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة)

وقـال آخـر:(لا يخلـو أحـد من صـبوة إلا أن يكـون جـافي الخلقـــة، ناقصـــاً، أو منقـــوص البنيـــة، أو على خلاف تـــركيب الاعتدال)

وسئل بعضهم: هل سـلم أحـد من العشـق؟ فقـال: (نعم.. الجلف الجافي الذي ليس له فضل، ولا عنده فهم، فأما من في طبعـه أدنى ظـرف، أو معـه دمائـة أهـل الحجـاز، وظـرف أهـل العراق، فلا يسلم منه)

ويروى عن بعضهم أنه قيل له: إن ابنك قـد عشـق، فقـال: (الحمـــد للـــه، الآن وقت حواشـــيه، ولطفت معانيـــه، وملحت إشاراته، وظرفت حركاته، وحسـنت عباراتـه، وجـادت رسـائله، وجلت شمائله، فواظب على المليح، واجتنب القبيح)

وهذا ما جعل أكثر البشـر يقضـون جـل حيـاتهم في البحث عن ذلك الحب الذي يملأ حياتهم بهـذه المعـاني، ويتحملـون في سبيل ذلك كل ألوان الذل والمهانة، كما عبر عن ذلـك بعضـهم، فقال:

تشكى المحبون الصبابة ليتني ... تحملت ما يلقون من بينهم وحدي

فكانت لقلبي لذة الحب كلها ... فلم يلقها قبلي محب ولا بعدي

1() هذه النصوص منقولة من ديوان الصبابة، لابن أبي حجلة.

وقال آخر:

وددت بأن الحب يجمع ... فيقذف في قلبي

لا ينقضي ما في ... ومن فرحي بالحب أو

وقال آخر:

وما سرني أني ... ولو أن لي ما بين

لكن البشـر في سـعيهم لملأ تلـك الحاجـات الموجـودة في نفوسهم، وبدل أن تتزكى نفوسهم، وتـترقى، وتـترفع إلى حقيقتهـا الإنسـانية الشـريفة هبطت إلى المسـتنقعات الآسـنة، وتلطخت بحمئها المسنون، فتحولت حياتها بسبب تلك الأشـواق إلى جحيم لا يطاق.

وقد عبر الشعراء الذين أشادوا بالأشواق إلى بعض تلك الآثـار الـتي أحـدثتها فيهم، فقـال بعضـهم يعـبر عن آلامـه الـتي جلبتهـا أشواقه:

وعذلت أهل العشق ... فعجبت كيف يموت من

وقال آخر:

وما عاقل في الناس ... إلا وهو في الحب

وما من فتى ذاق بؤس ... من الناس إلا ذاقها

وقال آخر:

فيبكي إن نأوا شوقا ... ويبكي إن دنوا حذر

وما في الأرض ... وإن وجد الهوى

تراه باكيا في كل ... مخافة فرقة أو

وقال آخر:

ويح المحبين ما ... إن كان مثل الذي

يشقون في هذه ... لا يرزقون به دنيا

وقال آخر:

قرين الحب يأنس ... ويكثر فكرة القلب

وأعظم ما يكون   على خطر ومطلع

وتذكر كتب التاريخ والأدب وغيرها ما حصل للكثير من الذين علقوا في أشواك المحبة والشوق، وكيف جنوا بسببها، أو انتحروا، أو امتلأت حياتهم بالنكد.

وفي مقابل هذا نجد المؤمن صاحب النفس المطمئنة الذي هذبها بالرياضة يحصل على نفس تلك الأشواق، ونفس لذاتها، ولكن بصورتها الشريفة الجميلة الخالية من كل كدر، ذلك أن حبه لم يتوجه للأصنام التي يمكن أن تكسر، ولا الأزهار التي يمكن أن تذبل، ولا للجمال الذي يمكن أن تغير عليه الأيام فتحوله إلى دمامة، وإنما شوقة للجمال الذي لا يتغير ولا يتبدل ولا تصيبه الآفات، ولا تعرض له العوارض.

ولذلك كانت أشواق المؤمن هي الأشواق الوحيدة التي تترفع بها النفس، وتترقى، وتتهذب، وتزول عنه بها كل الكدورات.

وكانت أشواقه هي الوحيدة الخالية من كل ذلك الأسى والتشتت والتفرق الذي يحل بالنفس بسبب وضعها لتلك الطاقة المقدسة في غير محالها المناسبة.

وفوق ذلك هي الأشواق الوحيدة التي يجتمع فيها ما تفرق من الأشواق، وما تشتت منها، كما عبر بعضهم عن ذلك بقوله:

كانت لقلبي أهواء مفرّقة   فاستجمعت مذ رأتك العين أهواء

فصار يحسدني من   وصرت مولى الورى مذ

تركت للناس دينهم   شغلا بذكرك يا ديني

وكل من وصل إلى هذه المعاني النبيلة، وجد أن فيها الكفاية عن كل ما سواها؛ فلذلك لا يحزن إن أعرض عنه المعرضون، أو سخر منه الساخرون، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله:

فليتك تحلو والحياة   وليتك ترضى والأنام

و ليت الذى بيني   وبيني وبين العالمين

إذا صحّ منك الودّ يا   فكلّ الذى فوق

ولذلك قال كل من بلغ هذه الأشواق وذاق لذتها:

لكل شي ء إذا فارقته عوض وليس للّه إن فارقت من عوض

ولهذا يعتبرون كل اختبارات الله تعالى للعباد مرتبطة بهذا، حتى يعلموا أن المستحق الوحيد لأن يُشتاق إليه هو الله تعالى، كما روي ذلك في بعض الآثار الإلهية: (لا تركنن إلى شيء دوني فإنه وبال عليك وقاتل لك، فإن ركنت إلى العلم تتبعنـاه عليـك، وإن أويت إلى العمل رددنـاه إليـك، وإن وثقت بالحـال وقفنـاك معه، وإن أنسـت بالوجـد اسـتدرجناك فيـه، وإن لحظت الخلـق وكلناك إليهم، وإن اغتررت بالمعرفة نكرناها عليـك، فـأي حيلـة لك؟ وأي قوة معك؟ فارضنا لك ربّا حتى نرضاك لنا عبدا)

وسـئل بعضـهم عن أفضـل مـا يتقـرب بـه العبـد إلى ربـه، فقال: (أقرب ما يتقرب به إلى اللّه أن يطلع على قلبـك وهـو لا يريد من الدنيا والآخرة سواه)، ثم ردد يقول:

من عرف اللّه فلم تغنه معرفة اللّه فذاك الشقي

ما يصنع العبد بعز الغنى والعزّ كل العزّ للمتّقي

ولهذه الأشواق الشريفة السامية دورهـا الكبـير في تزكيـة نفسه، وملئها بالأخلاق الحسنة، والأدب الرفيع، على خلاف تلـك الأشواق المملـوءة بالـدنس، كمـا عـبر عن ذلـك بعض الحكمـاء فقال: (الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بــه مـا في قلـوبهم من الخـواطر والإرادات والعـوارض والحاجـات، وهو ناشئ عن المحبة، فإذا بلغـه العبـد اسـتبطأ المـوت شـوقاً إلى ربه، وأخذ في التواجد والتطاير إلى حضرة قربه)[1]

فاحرص ـ أيها المريد الصـادق ــ على أن تـترفع بأشـواقك إلى ذلـك العـالم الأسـنى الممتلئ بالجمـال، فهـو وحـده الـذي يسعدك، وما عداه لن يزيد إلا في شقائك؛ فكل حبل تمده لغير الله سيقطع، وكل شوق لغير الله سيتحول إلى نكد وغصة وألم في الدنيا أو في الآخرة.

1() رشيد الراشد، الدر المنظم في وجوب محبة السيد الأعظم، ص 74، 75.

الحفظ والرعاية

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الحفظ والرعاية]، وأقصد بها مـا أشـار إليـه رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (يـا غلام إني أعلمـك كلمات: احفظ اللّٰه يحفظك، احفظ اللّٰه تجده تجاهك) (1)

فهذا الحديث يشير إلى أن اللـه تعـالى مـع كونـه الحافـظ لكل شيء إلا أنه خص المؤمـنين بحفـظ خـاص.. مثلمـا خصـهم بمعيته الخاصة، مع كون معيته شاملة لكل شيء.

وحتى ينسجم هذا في ذهنك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ مـع سنن العدالة والرحمة الإلهية؛ فاعلم أن الله تعالى وضع قوانين للحفظ؛ فمن توفرت لديه كان له ذلك الحفظ الخاص المرتبــط بتلك القوانين، ومن لم تتوفر لديه لم يكن أهلا لذلك الحفظ.

ومن الأمثلة على ذلك أن الله تعـالى أخـبر عن حفظـه لنـا من تأثيرات الكواكب والنجوم وغيرهـا، وذلـك في قولـه تعـالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: 32]

لكن البشر قد يتـدخلون بسـبب إفسـادهم وانحـرافهم في التعامل مع ما أتيح لهم، ليؤثروا في هذا الحفظ، وبذلك يـؤثرون في تلك النعمة الخاصة التي حفظهم الله تعالى بها، ولهـذا قـال تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَـا كَسَـبَتْ أَيْـدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: 41]

فالفساد الذي يحصل في الأشياء الـتي خلقهـا اللـه تعـالى مملـوءة بالطهـارة والصـفاء والصـحة، سـببه تلـك التصـرفات الرعناء التي تحول النعمة نقمة، والفضل بلاء.

وهكذا أخبر الله تعالى أن له مع كل إنسـان﴿ مُعَقِّبَـاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ الله﴾ [الرعد: 11]، سواء كان ذلك الإنسان مسلما أو غير مسلم، حتى يستطيع أن يــؤدي التكاليف التي طولب بها.. لكنــه إن فـرط في أسـباب الحفـظ، ولم يهتم بصحته، ولم يتعامل مع فطرته وفق ما تتطلبه تعتريــه العلل، وتحول بينـه وبين أداء مـا كلـف بـه، ويكـون سـلوكه هـو سبب ما حصل له.

وبنـاء على هـذا كـانت النفس المؤمنـة الصـالحة الممتلئـة

1() الترمذي (2516)، أحمد (1/ 293، 303)

بالطيبة والطمأنينة هي أوفر النفوس حظا من حفظ الله تعالى، ذلـك أنهـا حفظت كـل الأمانـات الـتي وكلت لهـا، وأدت كـل التكاليف التي طلبت منها، ولذلك استحقت كل أنواع الحفظ.

وأولها حفظ الإيمـان، كمـا قـال تعـالى: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِـالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَفِي الْآخِـرَةِ وَيُضِـلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبـراهيم: 27]؛ فالآيـة الكريمـة تشير إلى أن الاسـتمرار في الهدايـة، وعـدم الوقـوع في الزيـغ والضـلالة هـو فضـل إلهي للمهتـدين، ولهـذا يطلبـون من ربهم المزيـد من الثبـات، وأن يحفـظ لهم دينهم وتقـواهم، كمـا قـال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]

ولهذا أخبر رسول الله ﷺ عن ثبات المـؤمن عنـدما يُسـأل في الــبرزخ عن إيمانــه ودينــه، لأن اللــه تعــالى علم صــدقه وإخلاصه؛ فحظ له ذلك الإيمان في تلك المواقف الصـعبة الـتي يمــر بهــا، في الــوقت الــذي يُزلــزل فيــه المنــافقون لأنهم لم يستودعوا الله دينهم، وإنما تعاملوا معه بظـواهرهم وأجسـادهم فقط، ولذلك يفنى بفنائها، ويزول بموتها.

وهكــذا يحفــظ اللــه تعــالى المؤمــنين من الفتن وأنــواع الاختبارات، كما قال تعـالى: ﴿ قُـلْ نَزَّلَـهُ رُوحُ الْقُـدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُـوا وَهُـدًى وَبُشْـرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ [النحـل: 102]

وقــد قــرن اللــه تعــالى الثبــات بالبشــارة، ليــدل على أن البشارة الحقيقية لا تكون إلا للثـابتين، لا أولئـك الـذين وصـفهم الله تعالى بقولـه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلَى حَـرْفٍ فَـإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِـهِ خَسِـرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: 11]

ولا يقتصر حفظ الله للمؤمنين على ذلك، بل قد يمتــد إلى حفظهم من كل الذين يريدون إذيتهم في الدنيا؛ فيرد الله تعالى كيدهم، وينصر المؤمنين عليهم.

وقد ذكر الله تعالى النماذج الكثيرة على ذلك، حتى يــتيقن المؤمن أنه بقدر حفظـه لأوامـر ربـه، بقـدر اسـتحقاقه للحفـظ والرعاية الإلهية الخاصة، كما عبر عن ذلك قوله تعالى ــ مخـبرا عن سـنته في حفـظ أنبيائـه أوليائـه ــ: ﴿ ثُمَّ صَـدَقْنَاهُمُ الْوَعْـدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: 9]

ومن النماذج على ذلك قوله عن حفظه لنوح عليه السـلام والذين آمنوا معه: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَـاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَـوْمَ سَـوْءٍ فَأَغْرَقْنَـاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبيـاء: 76، 77]

في نفس الوقت الذي لم تسـتفد فيـه امرأتـه ولا ابنـه من ذلك الحفظ لعدم تـوفر شـروط الحفـظ الإلهي الخـاص فيهمـا، كما قال تعالى عند الحـديث عن ابن نـوح عليـه السـلام: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَـادَى نُـوحٌ ابْنَـهُ وَكَـانَ فِي مَعْـزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَـا وَلَا تَكُنْ مَـعَ الْكَـافِرِينَ (42) قَـالَ سَـآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللــه إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: 42، 43]

وأخبر عن حفظـه لهـود عليـه السـلام، فقـال: ﴿ وَلَمَّا جَـاءَ أَمْرُنَـا نَجَّيْنَـا هُـودًا وَالَّذِينَ آمَنُـوا مَعَـهُ بِرَحْمَـةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَـاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: 58]

وأخـبر عن حفظـه للـوط عليـه السـلام، فقـال: ﴿وَنَجَّيْنَـاهُ وَلُوطًـا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَـا فِيهَـا لِلْعَـالَمِينَ﴾ [الأنبيـاء: 71]، وقال: ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: 74]

وأخبر عن حفظه ليونس عليه السـلام، فقـال: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَـاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: 87، 88]

وأخبر عن تلك المعجزة التي حصلت لإبراهيم عليه السلام عنـدما حفظـه من أن تـؤثر النـار فيـه، فقـال: ﴿قَـالُوا حَرِّقُـوهُ وَانْصُـرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَـاعِلِينَ (68) قُلْنَـا يَانَـارُ كُـونِي بَـرْدًا وَسَـــلَامًا عَلَى إِبْـــرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِـــهِ كَيْـــدًا فَجَعَلْنَـــاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: 68 - 70]

وكل هذه النصوص المقدسة تدل على أن الحفـظ الخـاص للـه تعـالى لا يمكن لأي جهـة من الجهـات أن تـؤثر فيـه، ولا أن تزيله.. ولهذا ذكر رسول الله ﷺ عند حديثـه عن الحفـظ الإلهي قوله: (واعلم أن الأمة لـو اجتمعت عَلَى أن ينفعـوك بشـيء لم ينفعـوك إلا بشـيء قـد كتبـه اللَّه لـك، وإن اجتمعـوا عَلَى أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليـك، رفعت

الأقلام وجفت الصحف) (1)

ليدله بذلك على الثقة في الله، والاعتماد عليه وحده في كل شؤونه.. وعدم الخوف من كل من يتربص به، أو يكيد له، لأن كل كيد لن يستطيع اختراق تلك الحواجز الإلهية التي يحفظ بها عباده، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: 9]

ولذلك؛ فإن المؤمن بكل سلوك صالح يقوم به يقوي تلك الحواجز والسدود التي تحفظه من كل سوء يراد له، ولذلك كما وصف الله تعالى نفسه بالحفظ، فقال: ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: 64]، وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]

وصف عباده كذلك به، فقال: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: 112]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون: 5]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: 9]

ومن تلك الوسائل التي يوفر بها المؤمن لنفسه القابلية لتنزل الحفظ الإلهي الخاص، كثرة ذكره لله، والتزامه بتلك الاستعاذات الكثيرة الواردة في القرآن الكريم أو عن رسول الله ﷺ، وأئمة الهدى من بعده، والتي تهدف جميعا إلى تعميق معاني الحفظ الإلهي في النفس، حتى تعلم أن الله تعالى هو الحافظ الوحيد، كما قال ﷺ: (وآمركم أن تذكروا الله تعالى؛ فإن مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجل خرج العدو في أثره سراعًا، حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله)(2)

ومن الأمثلة على ذلك قوله ﷺ في بيان دور الذكر في الحفظ من الشيطان: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء)(3)

وقال: (من قال إذا **خرج** من بيته: بسم الله، توكلت على

1() الترمذي (2516)، أحمد (1/ 293، 303)

2()الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

3() رواه مسلم رقم 2018.

اللـه، لا حـول ولا قـوة إلا باللـه، يقـال لـه حينئـذ: كفيت ووقيت وهديت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخـر: كيـف لـك برجل قد هدي وكفي ووقي)[1]

وقال: (من قال في يوم مئة مـرة: لا إلـه إلا اللـه وحـده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، كانت له حرزًا من الشيطان حتى يمسي)[2]

وهكذا؛ فإن مداومة المؤمن لـذكر ربـه، تجعلـه في حصـن حصين من كل أذى يلحقه من العوالم التي تريد إذيته، أو تسديد سهام مكرها إليه.

ولذلك لا يقع أصحاب النفوس المطمئنة من الـذين امتلأت حياتهم بذكر الله بتلك المخاوف الـتي تعـتري غـيرهم من العين أو الحسد أو السـحر أو عـوالم الشـياطين والعفـاريت، لأن كـل أولئك لا يساوون شيئا أمام قدرة الله تعالى، ولا يمكنهم أبدا أن يتسلطوا على من لجأ إلى الله، وتحصن بحصنه.

1() الترمذي رقم 3429، وابن ماجه برقم 3886.
2() البخاري (3293) و(6403)، ومسلم (2691)

التأديب والتربية

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [التأديب والتربية]، وأقصد بها ما أشـار إليـه رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (أدبـني ربي فأحسـن تأديبي) [1]

وهو يشير إلى نوعين من التأديب الإلهي، أحـدهما يشـترك فيـه عامـة المؤمـنين، والثـاني يختص بخاصـتهم، أولئـك الـذين سلموا نفوسهم لله، ليؤدبها بأدبه، ويهذبها بتهذيبه.. ولن يتحقـق الثاني إلا بتوفر الأول.. ولن يكتمل الأول دون تدخل الثاني.

أما **الأول**؛ فهو تلك النصوص المقدسة الكثيرة الـتي يـدل الله تعالى فيها عباده على المنهج السليم في السلوك والأخلاق وكـل حركـة من الحركـات، أو موقـف من المواقـف.. فـالقرآن الكـريم هـو كتـاب الأخلاق والآداب الأعظم؛ فكـل آيـة من آياتـه تحـوي من الآداب والقيم مـا يرفـع الإنسـان إلى أعلى درجـات الإنسانية الرفيعة.

ولذلك؛ فإن الذي يلتزمه، ويتأثر به، ويعيش معانيه، ويتـدبر كلماته وحروفه، سيسري تـأثيره لا محالـة إلى نفسـه؛ فيغسـل كل أدرانها، ويقطع كل مثالبها، ويهذب كل نوازع الشر فيها.

ولهذا وُصـف رسـول اللـه ﷺ بكونـه قرآنـا ناطقـا؛ فعنـدما سئل بعض أصحابه عن خلقه ﷺ قـال: ألسـت تقـرأ القـرآن ؟.. قال: بلى.. قال: فإن خلق نبي الله ﷺ كان القرآن)[2]

وفي روايـة: (أمـا تقـرأ القـرآن ؟ قـال اللـه: وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ [القلم: 4]، خلق محمد ﷺ القرآن) [3]

ولن تسـتفيد ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ من هـذا النـوع من التأديب الإلهي إلا إذا اعتبرت الله تعالى يتحدث إليـك أنت بكـل أمـر من أوامـره أو نهي من نواهيـه.. وأن الأخبـار الـواردة فيـه ليست للتسلي والتاريخ، وإنما لتهذبك وترفعك.

لذلك إن قرأت موعظة لقمان عليه السلام، وقوله لابنه: يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَـرِ وَاصْـبِرْ عَلَى

1() رواه أبو سعد بن السمعاني في أدب الإملاء.
2() رواه مسلم (746)
3() أبو يعلى (8/275)

مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (17) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (18) وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ [لقمان: 17 - 19]، فاعلم أن لقمان عليه السلام لم يكن يتحدث لابنه فقط، وإنما كان يتحدث إليك أيضا؛ ولو كان حديثه خاصا بابنه لما أمرت بتلاوته وترديده.

ولا تكتف فقط بما دلت عليه ظواهر تلك الآداب، بل اعبر منها إلى غيرها.. فالله تعالى لم يرد منك الظواهر فقط، وإنما أراد منك كل ما يرتبط بها من قريب أو بعيد.

فلذلك لا تفهم من الأمر بغض الصوت، أن تخفته وتهمس به فقط، وإنما أن تختار كلماتك التي تنطق بها، لأن بعض الكلمات المهموسة لا يختلف تأثيرها عن القنابل الصامتة التي تنشر القتل والخراب والدمار.

وهكذا إن أمرت بعدم تصعير الخد؛ فإياك أن تفهم انحصار الكبر فيه.. فالكبر قد يكون في ابتسامة صفراء، أو في نظرة مؤذية، أو في كلمة تبدو لينة مهذبة لكنها ممتلئة بكل أصناف الشوك الذي لا يجرح الجسد، ولكنه يجرح القلب.

وهكذا في كل ما ورد في القرآن الكريم حتى لو كان متعلقا بالتعريف بالله تعالى؛ فهو ليس تعريفا بالله فقط، وإنما هو تأديب لك، وتهذيب لنفسك.. فإن ذكر الله تعالى أنه رحيم بعباده؛ فلم لا تكون أنت أيضا رحيما بهم.. وإن كان الله تعالى عادلا، وهو رب كل شيء ومليكه، فلم لا تكون أنت كذلك؟

وهكذا إن ذكر الله تعالى ملائكته؛ فقال: يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ [التحريم: 6]؛ فترفع لأن تكون مثلهم في طاعتك لربك، ولو اقتضت منك تلك الطاعة أن تكون خشنا غليظا على نفسك أو على من يعادي الحق، ويظلم المستضعفين.

وهكذا كل ما ذكر الله تعالى عن أنبيائه ورسله عليهم السلام؛ فهو لم يقصص قصصهم، لتتسلى بها، أو لتتعلم منها التاريخ، وإنما قصها لتتهذب بها، وتتأدب بآدابها، ولذلك قال بعد ذكره لبعض الأنبياء عليهم السلام: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ [الأنعام: 90]

ولذلك إن قرأت قول الله تعالى عن أنبيائه وزهدهم في

أموال الناس، وقوله على ألسنتهم: ﴿يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (هود:51)، فتعلم منها هذا الزهد؛ فلا تطمع في أجورهم وأموالهم، وترفع عنها، مثلما ترفع رسول الله ﷺ الذي أمر أن يردد أقوالهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (الفرقان: 57)، وقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (سبأ:47)

بل إن رسول الله ﷺ وهو سيد الخلق، وأشرف المرسلين وأستاذهم الأعظم كان يستحضر مواقفهم ليعيد إحياءها من جديد، ومن ذلك ما حدث به بعض أصحاب رسول الله ﷺ قال: قسم رسول اللّه ﷺ ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه اللّه، قال، فقلت: يا عدو اللّه أما لأخبرن رسول اللّه ﷺ بما قلت، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمر وجهه ثم قال:(رحمة اللّه على موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[1]

وفي موقف آخر قال ﷺ:(أقول كما قال أخي يوسف: ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:92])[2]

وقد استدل ابن عباس بهذا على مشروعية سجدة سورة ص، فقد قال لمن سأله عنها: أوما تقرأ: ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (الأنعام:84)، ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام:90)؟ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام، فسجدها رسول اللّه ﷺ)[3]

وهكذا إن قرأت كل ما ورد في القرآن الكريم من فضائح المنافقين والمتخلفين والظالمين؛ فإياك أن تتوهم أنك لست المقصود؛ فالعاقل هو الذي يعتبر بعدوه، حتى لا يقع فيما وقع فيه.

ولذلك إن قرأت ما ورد في القرآن الكريم في حق إبليس، وقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾

1() رواه البخاري ومسلم واللفظ لأحمد.
2() رواه ابن أبي الدنيا في ذم الغضب وابن السني في عمل يوم وليلة.
3() رواه البخاري.

[الأعراف: 12]؛ فقد ترددها أنت بلا شعور، ولكنك بدل أن تذكر كونك من الطين، تذكر أنك من تلك القبيلـة، أو من ذلـك البلـد، أو أن أبـاك فلان، أو جـدك فلان.. فلا يختلـف قـول إبليس عن هذه الأقوال جميعا.

وهكذا إن سـمعت قولـه تعـالى عن فرعـون، وقولـه: ﴿أَنَـا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَـهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]؛ فلا تتوهم أنها خاصة بفرعون، وقد قـال بعض الحكمـاء: (مـا من إنسـان إلا وفي باطنـه مـا صـرح بـه فرعـون من قولـه: ﴿أَنَـا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعـات:24]، ولكنـه ليس يجد له مجالاً)

وهكذا إن قـرأت قولـه تعـالى عن المنـافقين: ﴿إِذَا جَـاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُـولُهُ وَاللَّهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَكَـاذِبُونَ (1) اتَّخَـذُوا أَيْمَـانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (2) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُـوا ثُمَّ كَفَـرُوا فَطُبِـعَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُـونَ (3) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُـبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَـيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَـدُوُّ فَاحْـذَرْهُمْ قَـاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: 1 ـ 4]، فاحذر أن تكون منهم، فيكون حظك من دينك لسانك، وتجعل من إيمانك جنـة تحميـك من أذى الألسن، أو سلما تنال به مصالحك وأهواءك.

هذا هو النوع الأول من التأديب الإلهي، وهو لن يكمـل لـك حق الاكتمال إلا بعد أن تتخلص من رعوناتـك وأهوائـك وعجبـك وغرورك، وتسـتعين بربـك.. فاللـه هـو رب العـالمين، ومـؤدبهم ومـربيهم، ولا يمكنـك أن تتحقـق بجميـل الآداب مـا لم تسـلم نفسك إليه، ليؤدبها لك حق التأديب، وتـردد مـع رسـول اللـه ﷺ قوله: (اللهمّ آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خـير من زكّاهـا. أنت وليّها ومولاها اللهمّ إنّي أعوذ بـك من علم لا ينفـع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها) (1)

فرسول الله ﷺ في هذا الدعاء يعلمنـا كيـف نسـتعيد باللـه لتهذيب أنفسنا، وتزكيتها؛ وذلـك بتسـليمها لربهـا العـالم بكيفيـة ذلك، وهو في نفس الوقت يراعي النوع الأول من التأديب حتى تنتبه النفس إلى ضرورة التزكية، وهو ما يجعلها أكـثر اسـتعدادا لتلقي العلاجات التي تخلصها منها.

(1) رواه مسلم.

ومثل ذلك ما ورد في بعض أدعيـة الصـباح والمسـاء، وهـو (اللهمَّ فاطرِ السمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغيب والشّهادة، ربَّ كل شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرِّ نفْسـي، وشرِّ الشيطان وشركه) [1]

ومثلـه مـا ورد في بعض دَعَـوات المكـروب، وهـو (اللهم رحمتَـك أرجـو، فلا تَكِلْـني إلى نفسـي طَرْفَـةَ عين، وأَصـلِح لي شَأني كلَّه، لا إله إلا أنت) [2]

ومثله ما ورد عن عمران بن حصين، قال: قال رسول اللـه ﷺ لأبي: يا حُصَينُ، كم تَعبُد اليوم إلهًـا؟ قـال: سـبعة: سِـتَّة في الأرض، وواحدًا في السماء، قال: فأيهم تعـدُّ لرهبتـك ورغبتـك؟ قال: الذي في السماء، قـال: يـا حصـينُ، أمَـا إنـك لـو أسـلمتَ عَلَّمْتُك كلمتين تنفَعَانِك، قال: فلما أسلم حُصين، جـاء فقـال: يـا رسولَ الله، علِّمْني الكلمتين اللتين وعـدتني، قـال: (قـل: اللهمَّ ألهِمني رُشدي، وأعِذْني من شرِّ نفسي) [3]

فمثل هـذه الأدعيـة تجمـع بين النـوعين من التـأديب؛ فهي تنبه إلى شر النفس، وكونه لا يختلف عن شر الشيطان، وهو ما يدعو إلى الحذر من الغـرور والعجب وكـل الأمـراض النفسـية.. وفي نفس الـوقت تعلمنـا كيـف نسـتعين باللـه تعـالى ليهـذبنا ويؤدبنا ويهدينا.

وهكذا نجد الأدعية الكثيرة التي تنبه إلى كلا المعنيين، مثل الدعاء الذي أخبر رسول الله ﷺ أن داود عليه السلام كان يدعو به، وهـو مرتبـط بحب اللـه، وكـل مـا يثمـره من محـاب، وهـو: (اللهم إني أسـألك حبَّك، وحبَّ من يُحِبُّكَ، وحبَّ العمـل الـذي يبلِّغـني حبَّك، اللهم اجعـل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفْسـي وأهلي ومالي، ومن الماء البارد) [4]

ومثل ذلك الأدعية الكثيرة المروية عن أئمة الهدى، كـدعاء مكارم الأخلاق، والذي يقول الإمام السـجاد في بعض مقاطعـه: (اكفني ما يشغلني الاهتمـام بـه، واسـتعملني بمـا تسـألني غـدا عنه، واستفرغ أيامي فيما خلقتني له، وأغنـني وأوسـع علي في رزقك، ولا تفتني بالنظر، وأعزني ولا تبتليني بالكبر، وعبدني لك

1() الترمذي (3389)
2() أبو داود (5090)
3() الترمذي.
4() رواه الترمذي

ولا تفسـد عبـادتي بـالعجب، وأجـر للنـاس على يـدي الخـير ولا تمحقه بالمن، وهب لي معـالي الأخلاق، واعصـمني من الفخـر)[1]

ويقـول في مقطـع آخـر: (لا ترفعـني في النـاس درجـة إلا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزا ظاهرا إلا أحدثت لي ذلة باطنة عند نفسي بقدرها)

ويقول: (متعني بهدى صالح لا أستبدل به، وطريقـة حـق لا أزيغ عنها، ونية رشد لا أشك فيها، وعمرني ما كان عمـري بذلـة في طاعتك، فإذا كان عمـري مرتعـا للشـيطان فاقبضـني إليـك قبل أن يسبق مقتك إلي، أو يستحكم غضبك علي)

ويقول: (اللهم لا تـدع خصـلة تعـاب مـني إلا أصـلحتها، ولا عائبة أونب بها إلا حسنتها، ولا أكرومة في ناقصة إلا أتممتها)

ويقول: (أبدلني من بغضة أهل الشنآن المحبة، ومن حسـد أهل البغي المودة، ومن ظنـة أهـل الصـلاح الثقـة، ومن عـداوة الأدنين الولايـة، ومن عقـوق ذوي الأرحـام المـبرة، ومن خـذلان الأقـربين النصـرة، ومن حب المـدارين تصـحيح المقـة، ومن رد الملابسـين كـرم العشـرة، ومن مـرارة خـوف الظـالمين حلاوة الأمنة)

ويقول: (اللهم وأنطقني بالهدى، وألهمني التقوى، ووفقني للـتي هي أزكى، واسـتعملني بمـا هـو أرضـى. اللهم اسـلك بي الطريقـة المثلى، واجعلـني على ملتـك أمـوت وأحيـا.. ومتعـني بالاقتصاد، واجعلـني من أهـل السـداد، ومن أدلـة الرشـاد، ومن صالح العباد، وارزقني فوز المعاد، وسلامة المرصاد)

وهكـذا يمكنـك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بالتزامـك بهـذين النــوعين من التــأديب الإلهي، وحرصــك عليهمــا، أن تســير في السراط المستقيم، الذي لا يمكنك أن تسـير أو تثبت عليـك مـا لم تتمسك بنبيك ﷺ وورثته الراشدين المهديين الذين أمـرك أن تعض على سنتهم بالنواجذ.

1() الصحيفة السجادية، الدعاء 20.

التفهيم والتعليم

من مواهب الله تعالى لعباده لتحفيزهم للسير إليه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [التفهيم والتعليم]، وأقصد بهما ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: 79]، فقد جعل الله تعالى الفهم قرينا للعلم، وأخبر بأنه فهم سليمان عليه السلام، وأن حكمه كان نتيجة للفهم لا لمجرد العلم(1).

ومثلما كان التأديب والمعية الإلهية وغيرها قائمة على العدالة والرحمة الإلهية؛ فإن التعليم والتفهيم قائمان على ذلك.. ذلك أن عدالة الله تعالى المطلقة تأبى أن تخصص قوما دون قوم، أو جهة دون جهة بهبة من الهبات، ثم تحرم منها غيرها من غير سبب معقول.

ولهذا؛ فإن الله تعالى وفر كل مقررات التعليم، ووسائله، وأساتذته.. فمن اهتم بها، وطالعها، وتأدب مع أساتذتها، وحرص على الاكتفاء بها.. نال النوع الأول من التعليم والتفهيم الإلهي.

فإن هو أضاف إلى ذلك تزكية نفسه وتطهيرها، وتحويل قلبه إلى مرآة صقيلة تتجلى فيها الحقائق؛ فإن رحمة الله تعالى تتداركه ليتنزل عليه من الفهوم والعلوم ما لم يكن يخطر له على بال، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]، وقوله عن

1() وقصة ذلك كما أوردها المفسرون أن غنما رجل دخلت حرث آخر، فعاثت فيه فسادا، فذهبا إلى داود عليه السلام، فحكم أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام وكان يجلس على الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبي الله داود؟ فقالا: قضى بالغنم لصاحب الحرث، فقال:(لعل الحكم غير هذا، انصرفا معي) فأتى أباه فقال:(يا نبي الله أنك حكمت بكذا وكذا وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع)، قال: وما هو؟ قال:(ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حال التي أصابته الغنم في السنة المقبلة، رد كل واحد منهما مال إلى صاحبه)، فقال داود عليه السلام:(وفقت يا بني لا يقطع الله فهم)، وقضى بما قضى به سليمان عليه السلام.

وهذا يدل على أن هناك أمرين في كل مسألة:

1. الحكم الحرفي للمسألة، وهو ما ينص عليه عادة ظاهر الشريعة أو ظاهر القانون، وهو ما حكم به هنا داود عليه السلام، حيث عوض صاحب الأرض قيمة ضرره، فكانت قيمتها هي غنم الآخر.

2. الحكم المقاصدي للمسألة، وهو الحكم الذي يراعي مصلحة الجانبين، فلا يتضرر أحدهما لينفع الآخر، وهو ما حاول سليمان عليه السلام أن يصل إليه عبر ذلك الحكم.

الخضر عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: 65]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن النوع الأول من التعليم والتفهيم الإلهي لا يمكن أن يتحقق لك إلا بالرجوع إلى كلمات ربك المقدسة؛ فهي وحدها من يعصمك من كل التأويلات والتحريفات التي طرأت على دينك، كما طرأت على سائر الأديان.

واحذر من أن تكون من أولئك الذين زعموا لأنفسهم أنهم أهل الكتاب، وهم أبعد الناس عنه، أولئك الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، أو يغلّبون متشابهه على محكمه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم) [1]

ولذلك اعتصم بنبيك ﷺ وبالراسخين في العلم الذين ذكر الله تعالى أن لديهم علم الكتاب، وأنهم وحدهم من يفرقون بين المحكم والمتشابه..

فإن ابتعدت عنهم، كنت كذلك الذي تمرد على الأساتذة الذين نصبتهم له إدارة المدرسة التي ينتسب إليها، وراح يحفظ الحكايات والخرافات التي قصها له البواب أو قصها له رفقاؤه من التلاميذ.

ولهذا؛ فإن الفهم عن الله لا يكون إلا عن طريق الفهم عن رسوله وأئمة الهدى الذين هم أولى الناس برسوله.. فمن انحرف عنهم وقع بين يدي أولئك الذين حرفوا كتبهم وانحرفوا عنها وأولوها وتلاعبوا بها، ثم باعوها بأبخس الأثمان، أولئك الذين حذر الله تعالى منهم، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: 47]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾

[1] البخاري (4547) ومسلم (2665)

[المائدة: 13]

وحذر منهم رسول الله ﷺ فقال: (أمتهوكون فيها يا بن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعني) (1)

وهو لا يعني سوى ما ذكرت لك من ذلك المثال.. فكيف يمكن لشخص أن يترك رسول الله ﷺ وهو الأعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض، والذي يتلقى الوحي الإلهي غضا طريا، ليذهب إلى أولئك الذين وصف الله تعالى بغيهم وعدوانهم وتحريفهم لدينهم وعناء أنبيائهم معهم.

ولذلك كان التعليم والتفهيم ليسا مرتبطين بالنصوص المقدسة وحدها، وإنما بأولئك الذين كُلفوا بشرحها وتفسيرها وتفعيلها في الحياة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: 32]، والذين حددهم رسول الله ﷺ بدقة، بل عينهم بأعيانهم وأسمائهم وصفاتهم وكل ما يتعلق بهم.

فإن صحبتهم ـ أيها المريد الصادق ـ نجحت في فهم كل الدروس، وتعلمت من كل العلوم.. وصار الغيب عندك شهادة، وتجلى لك من حقائق الملكوت ما تفهم به حقائق الملك.

فإن زدت على ذلك ما يزيده التلاميذ الحريصون على دروسهم من الاجتهاد في التحصيل، وحضور الدروس الخصوصية، وتدريب العقل وتمرينه على الفهم، والإدمان على التدبر والتأمل؛ فستنال حظك من النوع الثاني من التعليم والتفهيم والمخصص للنجباء من التلاميذ.

ذلك الذي أشار إليه بعض الحكماء، فقال:(فمن آمن بالأنبياء وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بأن القلب له بابان: باب إلى خارج وهو الحواس، وباب إلى الملكوت من داخل القلب وهو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي، فإذا أقربهما جميعا لم يمكنه أن يحصر العلوم في التعلم ومباشرة الأسباب المألوفة، بل يجوز أن تكون المجاهدة سبيل إليه فهذا ما ينبه على حقيقة ما ذكرناه من عجيب تردد

(1) رواه أحمد (3/ 387)

القلب بين عالم الشهادة وعالم الملكوت) (1)

بل إن الحديث يشير إلى ذلك، فقد روي أن رسول الله ﷺ مر ببعض أصحابه من الصالحين، فقال: (كيف أصبحت يا حارث؟) قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: (انظر ما تقول؟ فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟) فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، واطمأن نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: (يا حارث عرفت فالزم) (2)

ولهذا أمر الله تعالى رسوله ﷺ وكل مؤمن يقرأ القرآن بأن يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]؛ فالعلم يولد وينتج ويثمر بحسب طهارة التربة التي يتنزل عليها، كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في قوله: (إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيبةٌ، قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا. وأصاب طائفةٌ منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)(3)

ففي هذا الحديث ذكر رسول الله ﷺ ثمرتين صالحتين، وثمرة فاسدة:

أما الثمرة الأولى، وهي أصلح الثمار وأكملها، فهي ثمرة انتفعت بالعلم انتفاعا عظيما، حيث أنبتت من غيثه الكلأ والعشب الكثير الذي انتفع به الإنسان وغير الإنسان.

وأما الثمرة الثانية، فأمسكت من الماء ما انتفع به الناس بعد ذلك في سقيهم وزرعهم.

وأما الثمرة الثالثة، فلم تنتفع بشيء.. فلم تنبت كلأ، ولم تسق عطشانا.

فالرسول ﷺ في هذا الحديث يدعوا العلماء لأن ينبتوا من

____

(1) إحياء علوم الدين، (3/ 25)

(2) مصنف ابن أبي شيبة 6/170 ح(30425) المعجم الكبير للطبراني 3/266 ح(3367)

(3) رواه البخاري ومسلم.

علمهم الكلأ والعشب الكثير.. فلا خير في علم لا ينبت ثمرا، ولا ينمي خيرا.

إيتاء الحكمة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [إيتاء الحكمة]، وأقصد بها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَـةَ مَنْ يَشَـاءُ وَمَنْ يُـؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (البقـرة: 269)، فقد أخبر الله تعالى فيها أن من أوتي الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا.

وأخبر كذلك أن إيتائه الحكمـة مرتبـط بمشـيئته، ومشـيئته تابعة لعدله ورحمته؛ فلـذلك لا توضـع إلا في محالهـا الصـحيحة، ومن حُرم منها لم يحرم بخلا ولا شحا، وإنما لكونه لم يمـد يـده لطلبها، ولم يؤهل قلبه لتنزلها.

ومثلما ذكرت لك في كـل المـواهب السـابقة بـأن تنزلاتهـا تختلف درجاتها باختلاف صفاء المرائي التي تتنزل عليها؛ فهكـذا الحكمة؛ فكلما كـانت تربـة النفس طـاهرة مطمئنـة كلمـا كـان مطر الحكمة مغدقا.. لينبت بعد ذلك بكل ألوان الثمار الطيبة.

وإلى هـذا يشـير قولـه ﷺ: (من أخلص للـه أربعين يومـا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[1]

ومثلـه مـا ورد في حـديث آخـر يقـول فيـه ﷺ: (من أكـل الحلال أربعين يوما نوّر اللّه قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)[2]

فكلاهما يشير إلى أن تنزل الحكمة يقتضـي توفـير المحـل اللائق بها، والذي قد يكون للزمن دوره فيـه حـتى تجهـز النفس لاستقبال تلك الأنوار العظيمة التي لا تستطيع النفوس المظلمة استقبالها.

وقد يقرب ذلـك المعـنى مـا ورد في الحـديث الآخـر الـذي يقـول فيـه رسـول اللـه ﷺ: (أطب مطعمـك تكن مسـتجاب الـدعوة، والـذي نفس محمـد بيـده إن الرجـل ليقـذف اللقمـة الحرام في جوفـه مـا يتقبـل منـه أربعين يومـاً، وأيّمـا عبـد نبت

1() رواه الحسـين بن الحسـين المـروزي في زوائـده في كتـاب الزهـد لعبـد اللـه بن المبارك، وأبو الشيخ ابن حبان وغيره.

2() أبو نعيم في الحلية.

لحمه من السحت والربا فالنار أولى به) [3]

فهـذا الحـديث يشـير إلى أن تعـدي حـدود اللـه، واقتحـام حرماته، سيبقى له أثر طويل ممتد، يحول بين المواهب الإلهيـة من الدعاء والحكمة وغيرها.

ولهـذا كلمـا امتـد زمن طهـارة النفس، وزمن إخلاصـها وصـدقها وتبريهـا من حولهـا وقوتهـا وابتعادهـا عن الحـرام والشبهات بقدر ازدياد قابليتها لتلقي الحكمة.

ففرق كبير بين من أخلص لله أربعين يوما، وبين من قضى عمـره كلـه في الإخلاص.. فـذلك الـذي يصـبح منبعـا من منـابع الحكمة، ومصـدرا من مصـادر الهدايـة.. ولهـذا تقتضـي الهدايـة العصمة؛ فلا يصح أن يتولى الهداية بصـورتها الكاملـة من خلـط بين الإخلاص وغيره.

ولهذا كـان رسـل اللـه وورثتهم من أئمـة الهـدى هم منبـع الحكمة الأعظم، كما قال تعـالى: ﴿ وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ [آل عمران:81]، وقـال: ﴿ أَمْ يَحْسُـدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَآتَيْنَـاهُمْ مُلْكـاً عَظِيمـاً﴾ [النسـاء: 54]، وقـال: ﴿ فَهَزَمُـوهُمْ بِـإِذْنِ اللـه وَقَتَـلَ دَاوُدُ جَـالُوتَ وَآتَـاهُ اللَّهُ الْمُلْـكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـاءُ ﴾ [البقـرة:251]، وقـال: ﴿ وَيُعَلِّمُـهُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْأِنْجِيـلَ﴾ [آل عمـران:48]، وقـال: ﴿ وَشَـدَدْنَا مُلْكَـهُ وَآتَيْنَـاهُ الْحِكْمَـةَ وَفَصْـلَ الْخِطَـابِ﴾ [صّ:20]، وقـال: ﴿ وَلَمَّا جَـاءَ عِيسَـى بِالْبَيِّنَـاتِ قَـالَ قَـدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَـةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُـونَ فِيـهِ فَـاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُـونِ﴾ [الزخرف:63]

ولهذا من الله تعـالى على رسـول اللـه ﷺ بـأن اللـه أنـزل عليـه الحكمـة، فقـال: ﴿ وَأَنْـزَلَ اللَّهُ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَعَلَّمَـكَ مَـا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَـانَ فَضْـلُ اللـه عَلَيْـكَ عَظِيمـاً﴾ (النساء:113)، وقال: ﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْـكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَـةِ وَلا تَجْعَلْ مَـعَ اللـه إِلَهـاً آخَـرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومـاً مَـدْحُوراً﴾ (الاسراء:39)

بل من على المؤمنين بذلك، ذلك أن الحكمـة الـتي تتـنزل على رسول الله ﷺ يمكنها أن تنتقل إلى غـيره، ليسـتفيد منهـا،

3() رواه ابن مردويه.

ويتأدب بآدابها، ويترقى بمعانيها، كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:231)

ولهذا كلما كان المرء أقرب إلى رسول الله ﷺ، كلما صفا مشربه من الحكمة، وكلما أصبح أهلا لتنزلها عليه، ذلك أن أعظم ما يحول بينه وبينها تلك الآراء التي اعتقدها، أو التعصب الذي امتلأت به نفسه، والذي ولد من البيئة التي نشأ فيها، أو السلف الذين حجبوه عن رؤية الحق المجرد.

ولهذا كان الران الأعظم الحائل بين القلوب وتنزل الحكمة تلقيها الحقائق والقيم من غير المأذون لهم بالحديث عنها، أو من الذين تجرأوا على مخالفة الهداة الذين كلفوا ببيان الحق لهم.

ولهذا اشترط الله تعالى للدعوة الحكمة، فقال: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]، وقد قدمها على غيرها من الموعظة والجدل، حتى يبين أنهما إن لم يؤسسا على الحكمة، فقد تكون المضرة الناتجة عنهما أكثر من المنفعة.

ولهذا قدم الله تعالى وصف لقمان عليه السلام بالحكمة قبل أن يذكر موعظته، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لله وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: 12]، ثم قال بعدها: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِالله إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]

إذا عرفت هذا ـ أيها المريد الصادق ـ فاعلم أن الحكمة أعظم من أن تختصر في تلك التعاريف التي عرفها بها بعضهم، فقال: (هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وغريبه ومقدمه ومؤخره)، وقال آخر: (الحكمة الخشية)، وقال آخر: (الحكمة الورع).. فكل هذه ثمار للحكمة، أو مصدر من مصادرها.

وأحسن من تلك التعاريف ما ذكره بعضهم من أنها (معرفة الأشياء بحقائقها)، ففيه إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إدراكات متغيرة، فأما إدراك الماهية، فإنه باقٍ مصون عن التغير والتبدل.

وأحسن منها وأشمل ما ذكره بعضهم من أنها (اسم لكل

علم حسن، وعمل صالح)، وبذلك تكون (الحكمة حكمتان علمية وعملية، فالعلمية الاطلاع على بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقا وأمرا قدرا وشرعا، والعلمية هي وضع الشيء في موضعه)

وبذلك ترتبط الحكمة بلب العقل، لأنها لا تهتم إلا بالحقائق والقيم دون القشور التي تحيط بها، أو تحول بينها وبينها.. ولهذا قرن الله تعالى بين الحكمة والألباب، فقال: ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269]، فلم يقل: وما يذكر إلا العاقلون، لأن اللب هو العقل في صفائه وخلاصه من كل الكدورات التي تشوهه.

وقد أخبر أن من أوتي الحكمة أوتي معها خيرا كثيرا، ذلك لأنها هي السبب في تولد العلوم بعضها من بعض، وكلما ازداد العلم الحقيقي ازداد معه النقاء والطهارة والرقي.

وقد عبر بعض الحكماء عن ذلك بقوله: (والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة. فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخر. وهكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية، وإنما تنسدّ طريق زيادة المعارف بالموت. أو بالعوائق وهذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق التفكير. وأما أكثر الناس فإنما منعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تستثمر العلوم، كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر على الربح، وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئاً، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها)[1]

وهذا الانتاج المتزايد المتنامي لثمرات الحكمة، لا يكون في أكمل صوره إلا لمن جمع مع الفهم وآلياته قلبا منورا بنور الذكر، كما قال بعضهم:(إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر على الفكر، وبالفكر على الذكر حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة)

فاسع ـ أيها المريد الصادق ـ لأن تتحقق بهذه المعاني،

[1]() إحياء علوم الدين: 4/426.

حتى تتـنزل عليـك الحكمـة، ويشـرق قلبـك بأنوارهـا؛ فحقيقتـك وصفاؤك وترقيك في مراتب الكمال لن يتحقق من دونها.

الفرقان الأعظم

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الفرقان الأعظم]، وأقصد بها ما أشار إليه قوله تعـالى: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنْ تَتَّقُـوا اللَّهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقَانًـا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَـيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]

فالآيــة الكريمــة تشــير إلى أن من مــواهب اللــه تعــالى للمتقين أن يرزقهم الفرقان، وهو تلك المعايير التي يفرقون بها بين الحق والباطل، والخير والشر.. والتي لا يمكنهم أن يسـلكوا السراط المستقيم من دونها.

ذلك أن الله تعالى ـ بحكمته ورحمته وربوبيته ـ اقتضـى أن يوفر لعباده اختبارات مختلفة، تختبر حقائقهم، وتبلـو أسـرارهم، وتكشف عن طبيعتهم، وفي نفس الوقت هيأ لهم من المؤيدات ما يمكنها أن تصحح ما يقعون فيه من أخطاء، وتزيـل مـا يعلـق بطــبيعتهم من مثــالب.. ليتمكنــوا من خلال حركــة جوهريــة لا عرضية، أن يعرجوا بأنفسهم إلى عوالم الكمال المهيأة لها.

ولكنــه شــرط لتحقيــق تلــك المــراتب الســنية، التحقــق بـالتقوى، ذلـك أنهـا السـبيل الوحيـد الـذي يحفـظ الإنسـان من التردي في الهاوية، أو ينزل بنفسه إلى عالم البهائم وما دونها.

ولهــذا يرتبــط الســراط المســتقيم في القــرآن الكــريم بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّـاكُمْ بِـهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 153]

وفي الحديث أن رسول اللـه ﷺ خـطّ خطّـا ثمّ قـال: (هـذا سبيل الله)، ثمّ خـطّ خطوطـا عن يمينـه وعن شـماله ثمّ قـال: (هذه سبل، على كلّ سـبيل منهـا شـيطان يـدعو إليـه، ثمّ قـرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّـبُلَ فَتَفَـرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعـام: 153]) [1]

وهذا يدل على أن الحق واحد، لا متعـدد، وأنـه لا يمكن أن يصــل أحــد إلى الحــق إلا بعــد الوصــول إلى أهلــه، وأن كــل

1() أحمد(435، 465)، وابن حبان(1741)، والحاكم(2/ 318) وأقره الذهبي.

المنحــرفين عن الحــق لم ينحرفــوا إلا بســبب بغيهم وظلمهم وحسدهم، كما حصل للشيطان عند رفضه السجود لآدم عليه السلام.

وكل ذلك بسبب الخلو من التقوى؛ لأنها وحدها من يحفــظ الإنسان من المثالب التي تحول بينه وبين اتباع سبيل المتقين الذي يحفظه من السبل المنحرفة.

ولهذا عرّف الله تعالى السراط المستقيم، لا بـالقيم الـتي يمثلها، وإنما بالصالحين الذين يمثلونه؛ فمن وصل إليهم وصل إليه، ومن انحرف عنهم انحرف عنه، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة: 6، 7]، وقال: ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ [لقمان: 15]

وانطلاقا من هذه المعاني، كان الفرقان الأعظم هو القدرة على التفريق بين أولياء الله الممثلين للسراط المستقيم، وغيرهم من الدجالين والشياطين الذين ينحرفون بالحق، ويغيرونه إلى ما تقتضيه أهواؤهم.

وقد أطلقنا عليه لقب [الأعظم]، لارتباطه بمصير الإنسان الأبدي.. فلا يمكن لأحد أن يعرف الحقائق، ولا أن يسير وفق ما تقتضيه، ولا أن تتنزل عليه المواهب المرتبطة بها، ما لم يكن لديه ذلك البرهان الرباني الذي يجعله يفرق بين أهل الحق وأهل الباطل.

ومثل ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ مثل من أقعدته الأدواء والأمراض وفتكت به، لكنه بدل أن يجد الطبيب النطاسي الذي يشخص داءه، ويصف دواءه، راح يقع كل مرة في محتالين دجالين وصفوا له من الأدوية ما زاد في دائه، وأضاف له أدواء جديدة.

فإذا ما نصحه الناصحون بالطبيب الخبير راح يرفض نصائحهم، ويتكبر على اقتراحاتهم من غير أن يفكر في تجربتها.. لكون ذلك الطبيب ليس من أهل بلده، أو لم يدرس في الجامعات التي تعظم في عينه.

وهذا ما وقع للأحبار والرهبان الذين استكبروا على رسول الله ﷺ، على الرغم من كل الأدلة التي تدل عليه، لأنهم كانوا يريدون أن يكون هاديهم إسرائيليا، لا عربيا، وكتابيا، لا أميا.. ولو أنهم كانوا من المتقين الحريصين على مصالحهم، لعلموا أن

الكل بين يدي الله سواء، وأنه يختار من شاء لمن شاء، وأنه ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: 124]

ولا تحسبن ذلك ـ أيها المريد الصادق ـ خاصا بأولئك الذين انحرفوا عن النبوة، وقد رأوا آياتها.. بل إن الاختبار مستمر، ولكل الأجيال، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ الله وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: 16]

وقد كان من اختبار الله لهذه الأمة بعد وفاة نبيها أن اختبرها بأئمة الهدى من بعده، لتستن بسنتهم وتسير بسيرتهم وتعمل بوصاياهم لتحذر من كل تلك الفتن التي سببتها الأهواء.

لكن البغي والحسد الذي تسرب للأمم الأخرى، راح يحرم أكثر الأمة من أولئك الأئمة بسبب بسيط، وهو أنه يكفي بني هاشم أن تكون فيهم النبوة؛ أما الإمامة ووراثتها فتوزع على غيرهم كما توزع الغنائم.

وهذا ما ساهم في تكثير السبل، واندساس المندسين، ليختلط الحق بالباطل، ويصعب بعدها التفريق، مع أن رسول الله ﷺ قد أقام على من بعده كل الحجج، حيث لم يترك أمته في عماية من أمرها، لا تستطيع التفريق بين المحقين والمبطلين، والسائرين على السراط المستقيم والمنحرفين عنه.

بل إنه فعل ذلك، وفي أحاديث كثيرة، توضح أن الطائفة التي لا تتميز عن غيرها، وتحرص على وحدة الأمة، وتبذل نفسها في سبيل ذلك، هي الحقيقة بوراثة رسول الله ﷺ؛ فيستحيل أن يرثه من ينشر الفتن والتفرقة والطائفية.

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (خيار عباد الله الّذين إذا رؤوا ذكر الله، وشرار عباد الله المشّاءون بالنّميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبرآء العنت)[1]

فهذا الحديث يشير إلى أن هذه الطائفة الخيرة تمثل الدين أحسن تمثيل، لذلك يذكر كل من رآها الله، ووصف الطائفة الشريرة بالنميمة والتفرق دليل على خلو الطائفة الأولى منها.

بل إن هذا الحديث يشير إلى شر الطوائف، وهم من عبر عنهم رسول الله ﷺ بقوله: (الباغون للبرآء العنت)، أي

1() أحمد(4/ 227) (6/ 459)

الطالبون العيوب القبيحة للشرفاء المنزهين عن الفواحش، وهذا لا ينطبق إلا على أولئك الطائفيين الذين يزورون الحقائق ليفرقوا صف الأمة، وينشروا الفتنة بينها.

وبذلك، فإن رسول الله ﷺ في هذا الحديث يذكر للطائفة الشريرة ثلاث صفات: أولها السعي بالفساد وحب الشقاق وإيقاد نار العداوة.. وثانيها إثارة الخصام والتنافر بين المتصافيين.. وثالثها كيل التهم للأبرياء والكذب والبهتان عليهم.

بل إن القرآن الكريم أشار إلى سمات الطائفة الخيرة الحريصة على الوحدة بين المسلمين، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ الله وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: 54]

فهذه الآية الكريمة تصف هؤلاء المستبدل بهم عندما يرتد الناس، ويتخلفوا عن شريعة ربهم، بكونهم ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وهو دليل على احترامهم لجميع المؤمنين، ومن جميع الطوائف، وحرصهم على الوحدة بين المسلمين.

وبذلك فإن هذه الطائفة هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: 32]، وقوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله) [1]

بل إن الرسول ﷺ لم يكتف بتلك التعليمات العامة التي قد لا تُفهم الفهم الصحيح، فيبقى الحق مختلطا بالباطل، وإنما راح يذكر من الوصايا والإشارات ما يستطيع به كل عاقل مخلص أن يميز دين الله عن الدين الذي وضعه الشيطان ليلبس به على عباد الله.

وقد كانت تلك الوصايا من الوضوح والدقة ما لا يمكن للشياطين الوصول إليه.. وهي فوق ذلك محمية بالمحكم من القرآن، وبما تقتضيه الفطر السليمة.

ومن تلك الوصايا وأعظمها تلك الوصايا الكثيرة من رسول الله ﷺ بأهل بيته الذين حددهم بدقة متناهية، واعتبرهم متمسكين بحبل الله، وأنهم لن يتركوه أبدا، فقد ورد في

1() رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي.

الحديث المتواتر: (إنّي تركت فيكم ما إنْ تمسّكتم به لنْ تضلّوا بعدي: كتاب اللّه حبلٌ ممدودٌ مِن السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولنْ يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما)[1]

ومع وضوح الحديث، ومع دلالة الواقع عليه إلا أنه تعرض للتأويل والتبديل؛ فحُصر في بعض معانيه، ولم يفعل في أهمها، وهو اعتبارهم معيارا للتمييز بين الحق والباطل.

ولذلك كان الناس بعد النبوة يتركون الإمام علي، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (أنا مدينة العلم، وعلى بابها، فمن أراد العلم فليأت الباب)[2]، تركوه ليطرقوا كل الأبواب، إلا بابه، مع أنه باب الهداية التي لم تدنس، والحقيقة التي لم تختلط.

ومع أنه يصيح فيهم بكل حزن وأسى: (سلوني قبل أن تفقدوني، فو الّذي نفسي! بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين السّاعة، ولا عن فئة تهدي مائة وتضلّ مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها، ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلا، ومن يموت منهم موتا)[3]

وكان يقول لهم: (سلوني عن كتاب الله، فو الله! ما نزلت آية من كتاب الله في ليل ونهار ولا مسير، ولا مقام إلاّ وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلّمني تأويلها..)[4]

وكان يقول، وهو ممتلئ حزنا وأسفا: (هاه إن ههنا لعلما جما - وأشار بيده إلى صدره - لو أصبت له حملة)[5]

لكن تلك النداءات لم تجد آذانا صاغية.. حيث تُرك ذلك الذي تتملذ في جميع حياته على رسول الله ﷺ.. وذهب الناس إلى غيره.. واختلط الأمر عليهم.. وأصبح الدين بعدها بالشكل الذي نراه من الاختلاف والصراع، وقد كان في إمكانهم أن يجلسوا جميعا بين يديه، ومعهم الدفاتر، ويسجلوا كل كلمة

1() الحديث متواتر، وقد ورد بصيغ كثيرة رواه أحمد ومسلم والترمذي وغيرهم، وقد نص الألباني على صحته انظر حديث رقم: 2458 في صحيح الجامع.

2() الترمذي (5/637، رقم 3723)، والحاكم (3/138، رقم 4639)، وغيرهما.

3() شرح الأخبار 1: 139، وقد روى الحاكم في المستدرك [رقم الحديث: (3394)] عن عامر بن واثلة، قال: سمعت علياً قام، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، ولن تسألوا بعدي مثلي، فقام ابن الكواء فقال: من الذين بدلوانعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار؟، قال: منافقو قريش، قال: فمن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا؟، قال: منهم أهل حروراء)، قال الحاكم: هذا حديث صحيح عال.

4() الطبقات الكبرىٰ 2 / 338.

5() نهج البلاغة (4/ 36)

يقولها.. وتصبح حينها جميع أحاديثه متـواترة، ولن يحتـاج النـاس بعدها إلى كتب الرجال، ولا الجرح والتعديل.. وحينها تصبح الأمة جميعا حفاظا.. ولن يحتاج الناس إلى أي حافظ أو محـدث.. بـل حتى كتب الفقه لن تكون بذلك الطول والعرض، لأنهـا سـتحوي الحق المجرد الذي جـاء من معـدن الرسـالة، ومهبـط الـوحي.. لكنهم لم يفعلوا.

وسبب كل ذلك هـو الحرمـان من هـذه الموهبـة العظيمـة موهبة [الفرقان الأعظم]، وعدم الاهتمام بما تسـتدعيه التقـوى والـورع من البحث عن الحـق والتسـليم والإذعـان لـه.. لكنهم اتخذوا (رؤساء جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضـلوا فأضـلوا) [1]

فـاحرص ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ على تحصـيل التقـوى، وتزكية نفسك حتى تنـال هـذه الموهبـة العظيمـة، وتتخلص من كل التبعات التي يسببها حرمانك منها؛ فلا يمكنـك أن تصـل إلى الحق إلا بعد تسليمك المطلق لأهله.

1() رواه البخاري 1/ 174 و175، ومسلم رقم (2673)

الجزاء الأوفى

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسـميته [الجـزاء الأوفى]، وأقصـد بها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَـا سَـعَى (39) وَأَنَّ سَـعْيَهُ سَـوْفَ يُـرَى (40) ثُمَّ يُجْـزَاهُ الْجَـزَاءَ الْأَوْفَى﴾ [النجم: 39 - 41]

فالآيات الكريمة تشير إلى أنه لا يضيع أي سـعي يقـوم بـه الإنسان سواء كان خيرا أو شرا، وإنما يحفظ لـه، ليجـزى عليـه الجزاء الذي لا يتوافق معه فقط، وإنما يضاف له ما يتناسب مع قوانين دار الجزاء الممتلئة بالعدل والرحمة.

وقيمة هذه الموهبة، ودورها السلوكي عظيم جدا، ذلك أنها تشـير إلى أن الهـدف من الأعمـال ليس صـورتها فقـط، وإنمـا روحهـا أيضـا.. وبهـذا يمكن أن ينـال أي شـخص مـا ينـال من المراتب والجزاء، ولو بأعمال قليلـة نتيجـة ظـروف الاختبـارات التي أتيحت له.

ولهـذا كتب اللـه تعـالى للصـالحين الخلـود في الجنـة مـع النعيم المقيم بسـبب أعمـالهم القليلـة المحـدودة في الـدنيا، باعتبـار أنهم لـو أتيح لهم الخلـود في الـدنيا لظلـوا على تلـك الأعمـال، ومثلهم أولئـك المنحرفـون الـذين كتب عليهم الخلـود في العذاب بسبب أعمالهم ـ التي وإن كـانت محـدودة ــ لكنهم لو عُمروا آلاف السنين أو أبد الدهر لمـا ازدادوا إلا طغيانـا، كمـا قال تعـالى: ﴿بَـلْ بَـدَا لَهُمْ مَـا كَـانُوا يُخْفُـونَ مِنْ قَبْـلُ وَلَـوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: 28]

وقد ذكر الإمام الصـادق سـر خلـود أهـل الجنـة والنـار في المنازل التي أعدت لهما، فقال: (إنّما خلّـد أهـل النـار في النـار لأنّ نيّـاتهم كـانت في الـدّنيا أن لـو خلّـدوا فيهـا أن يعصـوا اللـه تعالى أبدا، وإنّما خلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كـانت في الدّنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبـدا؛ فبالنيّـات خلّـد هـؤلاء وهـؤلاء ثمّ تلا قولـه تعـالى: ﴿قُـلْ كُـلٌّ يَعْمَـلُ عَلَى شَـاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]، يعني على نيّته)[1]

ولهذا ورد في النصوص المقدسة الكثيرة أن مراتب الناس

(1) الكافي ج 2 ص 85.

في الآخرة، لا تتحدد بالأعمال فقـط، وإنمـا بالنيـات أيضـا، فقـد قال رسول الله ﷺ: (إنّما الدّنيا لأربعة نفر، عبد رزقـه اللـه مـالا وعلما فهو يتّقي فيه ربّه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقّـا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهـو صادق النّيّة. يقول: لو أنّ لي مالا لعملت بعمل فلان فهـو نيّتـه، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغـير علم لا يتّقي فيـه ربّـه، ولا يصـل فيـه رحمـه، ولا يعلم لله فيه حقّا، فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول: لو أنّ لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهـو نيّته، فوزرهما سواء)[1]

وفي حديث آخـر عن رسـول اللـه ﷺ أنـه قـال: (إنّ العبـد ليعمل أعمـالا حسـنة فتصـعد بهـا الملائكـة في صـحف مختتمـة فتلقى بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول: ألقوا هـذه الصـحيفة فإنّـه لم يرد بما فيها وجهي، ثمّ ينـادي الملائكـة اكتبـوا لـه كـذا وكـذا فتقولون يا ربّنا إنّه لم يعمل شيئا من ذلك، فيقول: إنّه نواه إنّـه نواه)[2]

وفي مقابل ذلك روي في أخبـار الأنبيـاء عليهم السـلام أنّ رجلا مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقـال في نفسـه، وهـو صـادق في قولـه: (لـو كـان هـذا الرّمـل طعامـا لقسّـمته بين النـاس)، فـأوحى اللـه تعـالى إلى نـبيّهم أن قـل لـه: (إنّ اللـه قـد قبـل صدقتك وشكر حسن نيّتـك وأعطـاك ثـواب مـا لـو كـان طعامـا فتصدّقت به)

وفي الحــديث أن النــبيّ ﷺ قــال في غــزوة تبــوك: (إن بالمدينـة لقومـا مـا سـرتم مسـيرا، ولا قطعتم واديـا، إلا كـانوا معكم فيه)، قـالوا: يـا رسـول اللـه، وهم بالمدينـة؟ قـال: (وهم بالمدينة حبسهم العذر) [3]

وهؤلاء الصادقون الذين ظفروا بنيـات المجاهـدين، ولـو لم يحضروا معهم هم الـذين أشـار إليهم قولـه تعـالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَـا يُنْفِقُـونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللـه

1() الترمذي(2325)

2() رواه الدارقطني.

3() البخاري (2838) و(2839)، و(4423)، وابن أبي عاصم في الجهاد (264)، وأبـو يعلى (3839)

غَفُــورٌ رَحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَــا أَتَــوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِـدُ مَـا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْـهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الـدَّمْعِ حَزَنًـا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ [التوبة: 91، 92]

في نفس الوقت الذي قال فيه ﷺ: (من غزا وهــو لا ينــوي إلّا عقالا فله ما نــوى)[1]، وقـال بعض أصـحاب رسـول اللـه ﷺ: (اســتعنت برجــل ليغــزو معي، فقــال: لا حتّى تجعــل لي جعلا فجعلت له، فـذكرت ذلـك للنـبيّ ﷺ فقـال: (ليس لـه من دنيـاه وآخرته إلّا ما جعلت له)[2]

ولهذا ورد في الأحاديث والآثار ما يــدل على أن النيــة خـير من العمل، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (نيــة المــؤمن خير من عمله، وعمل المنافق خـير من نيتـه، وكـل يعمـل على نيته؛ فإذا عمل المؤمن عملا ثار في قلبه نور) [3]

وقد سئل الإمـام الصـادق عن معناهـا، فقـال: (لأنّ العمـل ربما كان رياء للمخلوقين، والنيّة خالصة لربّ العـالمين، فيعطي عزّ وجلّ على النيّة ما لا يعطي على العمل) [4]

ولهذا أوصـى رسـول اللـه ﷺ بالاسـتفادة من هـذه الهديـة الإلهية التي ننال بها الأجور من غير تعب ولا مشقة، فقال ــ في وصيته لأبي ذر ـ: (يا أبا ذرّ، ليكن لـك في كـلّ شـيء نيّـة، حتّى في النوم والأكل)[5]

وعن الإمام الصادق أنه قال: (إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلّي بالليل فتغلبه عينـه فينـام، فيثبت اللـه لـه صـلاته، ويكتب نفسه تسبيحا، ويجعل نومه عليه صدقة)[6]

وقال: (إنّ المؤمن ليهمّ بالحسنة ولا يعمـل بهـا فتكتب لـه حسنة، وإن هو عملها كتبت له عشر حسنات، وإنّ المؤمن ليهمّ بالسيّئة أن يعملها فلا يعملها فلا تكتب عليه)[7]

بل ورد ذلك في حديث قدسي، فقد روي عن رسـول اللـه ﷺ أنه قال: (إن اللـه عـز وجـل كتب الحسـنات، والسـيئات، ثم

1() النسائي في السنن ج 6 ص 24.

2() الطبراني في مسند الشاميين.

3() الطبراني في معجمه الكبير (6/185) وأبو نعيم في الحليـة (3/255)، الكـافي ج 2 ص 69 ح 2.

4() علل الشرائع: 1/ 524.

5() الوسائل، ج 1 ص 48 ح 8.

6() الوسائل ج 1 ص 53 ح 15 وص 54، العلل ج 2 ص 524.

7() الوسائل ج 1 ص 51.

بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن عملها، كتبت له عشر حسنات، إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن هو هم بسيئة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن عملها كتبت له سيئة واحدة) [1]

أعلم ـ أيها المريد الصادق ـ أنك تقبل اعتبار [الجزاء الأوفى] موهبة، ولكن في صورته المرتبطة بالمؤمنين بخلاف غيرهم، وبذلك قد يكون هذا الجزاء مصيبة لا موهبة.

وقد صدقت في ذلك، ولكن مع ذلك؛ فإن تحذير الله تعالى لنا، وإعلامه بكيفية جزائه والقوانين التي تحكمها نعمة كبرى، وهي نعمة خاصة بالمؤمن من جهتين:

أولاهما: أن الجانب التبشيري في هذه الموهبة يجعل المؤمن يعمل الخير بحدود ما أتيح له من طاقة؛ فلا يحتقر أي عمل يقوم به، لأن الله تعالى لا ينظر إلى صورة العمل، وإنما إلى الدوافع المرتبطة به، ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن احتقار أي عمل صالح، فقال: (لا تحقرن من المعروف شيئا ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق) [2]، وفي رواية: (ولا تحقرنّ شيئا من المعروف، وأن تكلّم أخاك، وأنت منبسط إليه وجهك إنّ ذلك من المعروف) [3]

وقال مخاطبا النساء: (يا نساء المسلمات، لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة) [4]

وقال: (اتّقوا النّار ولو بشقّ تمرة، فمن لم يجد شقّة تمرة فبكلمة طيّبة) [5]

وقال: (بينما رجل يمشي بطريق اشتدّ عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب ثمّ خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثّرى من العطش فقال الرّجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الّذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفّة ثمّ أمسكه بفيه فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له)، قالوا: يا رسول الله، وإنّ لنا في البهائم أجرا؟، فقال: (في كلّ ذات كبد رطبة أجر) [6]

وقال: (تلقّت الملائكة روح رجل ممّن كان قبلكم، فقالوا:

1() أحمد (5/ 384)

2() مسلم (2626)

3() أبو داود (4084)

4() البخاري [فتح الباري]، 10 (6017) ومسلم (1030)

5() رواه البخاري، انظر الفتح 6 (3595)

6() البخاري [فتح الباري]، 10 (6009) واللفظ له، ومسلم (2244)

أعملت من الخير شيئا؟ قال: لا. قـالوا: تـذكّر. قـال: كنت أداين النّاس فامر فتياني أن ينظروا المعسـر ويتجـوّزوا عن الموسـر. قال: قال الله عزّ وجلّ: تجوّزوا عنه) [1]

ثانيهما: أن الجانب الإنذاري من هذه الموهبة يجعله حذرا من كل سلوك يقوم به خشية أن يضاعَف له عذابه، وذلك أكـبر رادع يعينه على تزكيه نفسه، التي تحتاج من الـروادع والزواجـر ما يقمع عنادها وغرورها.

ولهذا يقترن في القرآن الكريم ذكر الجزائين جميعا، حـتى تمتلئ النفس بالرغبة، وتمتلئ في نفس الوقت بالرهبة، لترحل من خلالهما إلى عوالم أعظم من الرغبة والرهبة.

ومن الأمثلـة على ذلـك قولـه تعـالى فيمـا أخـبر عنـه من خطاب مؤمن آل فرعون لقومه: ﴿يَاقَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَـاةُ الـدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (39) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْـزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَـرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُـوَ مُـؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: 39، 40]

وقوله في الجمع بين جزاء المحسـنين والمسـيئين، وبيـان أسباب استحقاقهم له: ﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَـا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ الْمُحْسِـنِينَ (85) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [المائدة: 85، 86]

وغيرها من الآيات الكريمة التي نرى فيها التفاصيل الكثيرة المرتبطة بأنواع الجزاء، وأنواع الأعمال المسببة لها، مما لا نجد مثله في أي مصدر من المصادر المقدسة.

وهذا الجزاء الأوفى ـ أيها المريد الصادق ـ لا يشـمل فقـط ما يتوهمه الكثـير من المسـتغرقين في الحس بأنـه قاصـر على الجزاء الحسي من القصور والأنهـار والأشـجار والثمـار والحـور والولدان وأنواع الطعام والشراب وغيرها، وإنما هو شامل لكـل أنواع الجزاء المعنوي أو الروحي، من الرضى والفرح والسـعادة والتواصل مع الله، والـتي تتـاح لأهـل الجنـة، ومـا ورد فيهـا من عكس ذلك من العقوبات التي يعاقب بها أهل النار.

وإيـاك ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بعـد هـذا أن تقـع في فخ أصحاب الأماني أولئك الـذين ذكـرهم اللـه تعـالى، وحـذر منهم، فقال: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْـرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُـدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ (38) كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [المعارج: 38، 39]

1() البخاري [فتح الباري]، 4 (7702) ومسلم (1560)

فالجزاء الأوفى مرتبط بالقوانين الإلهية التي لا عبث فيها، ولا جور، ولا ظلم، كما عبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: 123، 124]

وتلك القوانين هي نفسها التي تحكم عالم الدنيا، ألا ترى علماء الفيزياء كلهم يتفقون على القانون الثالث من قوانين الحركة لنيوتن، والذي ينص على العلاقة بين الفعل ورد الفعل، أو ما يمكن أن نطلق عليه ـ بحسب المصطلح الذي اخترناه ـ [الفعل والجزاء].. حيث ينص القانون على أنّ لكل قوة فعل قوة رد فعل مساوية لها في المقدار، ومعاكسة لها في الاتجاه، وبناء على ذلك فإنّ قوة ردّ الفعل الناتجة من دفع عربة للأمام مساوية لقوة الفعل الدافعة، ولكنها تكون باتجاه معاكس لتلك القوة.

وهكذا يذكر علماء النفس الآثار الناتجة عن المواقف والسلوكات المختلفة، وخاصة تلك التي يمر بها الإنسان في فترة طفولته، والتي قد تؤثر على جميع حياته.. وهي بذلك نوع من الجزاء على تلك المواقف والسلوكات.

وهكذا يذكر علماء الاجتماع الأعراف الاجتماعية، وآثارها على المواقف المختلفة لكل مجتمع.. وهم بذلك يعبرون عن الجزاء المتعلق بتلك الاختيارات التي اختارها المجتمع لنفسه.

وهكذا نجد الإعلاميين يذكرون عند حديثهم عن أركان العملية الاتصالية ما يعبرون عنه بـ [رجع الصدى]، ويقصدون به تقمص المستقبل لدور المرسل أو المصدر، نتيجة للآثار التي أحدثتها فيه رسالة المرسل.. والمرسل يستدل بذلك على أن الرسالة التي قام بإرسالها لتحقيق هدف معين، قد وصلت إلى الغاية المنشودة، ويعرف من خلاله مدى قبولها ورفضها.

وهكذا نجد الجزاء في كل عمل نقوم به، فإن وضع أحدنا يده على التيار الكهربائي، أحس بأثره عليه، وربما يصعق لذلك، بحسب قوة ذلك التيار، وربما يحدث فيه إعاقة طويلة أو دائمة، مع كون ذلك المس لم يستغرق منه سوى ثوان معدودة.

وبناء على هذا كله فإن العقل يقر بمعقولية الجزاء، وأنه شيء طبيعي، ولهذا يحكم بالغفلة والبله لا على تلك القوانين

التي تسير بها الطبيعة والمجتمع، وإنما على الشخص الذي يريد أن ينال جزاء أعمال لم يقم بها، أو يتفادى عقوبات لأعمال قـام بها.

ولهـذا نسـمع جميعـا تلـك العبـارة الـتي تقـول [القـانون لا يحمي المغفلين]، وهـو يعـني بـذلك أن قـوانين العقوبـات الـتي وضعها البشر لما رأوه فيها من المصلحة لا تحمي الجاهلين بها، ما دامت قد نشـرت على الـرأي العـام، وسـمعها الجميـع؛ فـإن تذرع أحد بالجهل بها، لم يعذر بجهله.

السلامة والنجاة

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [السلامة والنجاة]، وأقصد بها مـا ورد في قولـه تعـالى: ﴿كُـلُّ نَفْسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَإِنَّمَـا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ فَمَنْ زُحْـزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِـلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: 185]

فالآية الكريمة تشير إلى أن الموت الذي يحذر منه البشر، ويستعملون كل الوسائل التي تحـاول أن تنقـذهم منـه، قـادم لا محالـة، وأن السـلامة الحقيقيـة ليسـت منـه، فهـو آت حـتى لـو تحصن الهارب منه بالحصون المشيدة، وإنمـا فيمـا بعـده، وهـو الزحزحة عن النار، والعذاب المعد فيها، والـذي لا تسـاوي معـه كل مصائب الحياة الدنيا وهمومها شيئا.

ويشير إلى ذلـك أيضـا قولـه تعـالى في وصـف الحريصـين على الحياة مهما كان شـكلها: ﴿ وَلَتَجِـدَنَّهُمْ أَحْـرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَـنَةٍ وَمَـا هُـوَ بِمُزَحْزِحِـهِ مِنَ الْعَـذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِـيرٌ بِمَـا يَعْمَلُـونَ﴾ [البقرة: 96]

والآية الكريمة تشير إلى أن قيمة الحيـاة وطولهـا مرتبطـة بقدرة صاحبها على النجاة من العـذاب، أمـا إذا لم يكن لهـا دور في ذلك؛ فـإن المـوت خـير منهـا، ذلـك أن كـل لحظـة يعيشـها صاحبها، لن يزيد لنفسه سوى وقودا جديدا يحرق به نفسه.

ولذلك؛ فإن فرحة المؤمنين لا تكون فقط بدخولهم الجنـة، وإنمـا بنجـاتهم من النـار.. ذلـك أن الجنـة مـع القيمـة العظيمـة لنعيمها، إلا أنه عند مقارنتها بالنـار يـزداد تـذوق نعيمهـا أضـعافا مضاعفة.

ولهذا ورد في الحـديث في ذكـر أحـداث الـبرزخ قولـه ﷺ: (ثم يفتح له باب من الجنة، وباب من النار، فيقـال: هـذا منزلـك لو عصيت الله، أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة، قـال: ربِّ عجل قيام الساعة، كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال لـه: اسكن) (1)

1() رواه أبـو داود (4753)، وأحمـد (4/ـ 287)ـ (18557)، والـبيهقي في (شـعب الإيمان) (1/ 300)

وذلك لا يقتصر على البرزخ، بل ورد في القرآن الكريم ما يدل على أن الله تعالى يمكن المؤمنين من رؤية جهنم والعذاب المعد فيها، ليعلموا قدر النعيم الذي يعيشونه، ويشير إلى ذلك مشهد من مشاهد النعيم، والذي قدم له الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (39) إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ (40) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (41) فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (42) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (43) عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (44) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (45) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (46) لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (47) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (49)﴾ [الصافات: 39 - 49]

وبعد أن رسم الله تعالى صورة لتلك البيئة التي يعيشها هؤلاء المخلصين، ذكر السبب الذي استدعى أن يطلعوا على العذاب، فقال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (50) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (51) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (52) أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ [الصافات: 50 - 53]

وهنا يخبر الله تعالى أنه أتيح لهم حينها أن يروا ذلك الذي كان يحاول أن يغوي صاحبه، ويضله عن سواء السبل، قال تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (54) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (55) قَالَ تَالله إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (56) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (57) ﴾ [الصافات: 54 - 57]

وهكذا تشير النصوص المقدسة إلى أن أهل النار يعاينون بعض ذلك النعيم الذي أتيح لهم لأهل الجنة، ليدركوا أنهم لم يقعوا في الهلاك فقط، وإنما فاتتهم كل أسباب السعادة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (50) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: 50، 51]

والنجاة والسلامة لا ترتبط فقط بدار القرار، وإنما ترتبط بكل المراحل التي يمر بها الإنسان بعد موته، ابتداء من لحظة الموت نفسها؛ فالمؤمن تأتيه الملائكة المكلفة بقبض روحه بصور جميلة، وتمارس كل وسائل الترغيب التي تجعله يقبل عليها، ويتخلى من الحرص على الحياة الدنيا، بخلاف غيره، ذلك

الذي أخبر القرآن الكريم أنه وفي تلك اللحظات الحرجة يتلقى كل ألوان الإهانة والعذاب النفسي والحسي، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال: 50، 51]

وقال في مشهد آخر: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ (27) ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: 26 - 28]

وقال في مشهد آخر: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللـه غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: 93]

وهكذا يقرن الله تعالى مشاهد الإهانة بالأسباب الداعية لها، حتى يبين مدى العدل الإلهي الذي يتعامل مع كل جهة بما اختارته لنفسها.

وفي مقابل هؤلاء يصف الله تعالى أول لقاء يجري بين المحسنين والملائكة، حيث يبدؤونهم بالسلام، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 32]

وهكذا يذكر القرآن الكريم أنواع التكريم والتبجيل التي يلقاها المؤمن في المواقف المختلفة من طرف الملائكة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (31) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]

ويذكر القرآن الكريم تلك التحيات الطيبات الطاهرات التي تستقبل بها الملائكة المحسنين، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73]

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ أن المؤمنين الممتلئين بالصدق والإخلاص ينجون من كل تلك الأهوال التي يعاينها غيرهم؛ فما

إن تقوم القيامة حتى يجـدون أنفسـهم في الجنـة، أو قريبـا من الجنة،، فقد قال ﷺ: (إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفـة من أمتي أجنحة، فيطيرون من قبورهم إلى الجنـان يسـرحون فيهـا ويتنعمون كيف شاؤوا، فتقول لهم الملائكـة: هـل رأيتم حسـابا؟ فيقولون: ما رأينا حسابا، فيقولـون: هـل جـزتم على الصـراط؟ فيقولـون: مـا رأينـا صـراطا، فيقولـون لهم: هـل رأيتم جهنم؟ فيقولـون: مـا رأينـا شـيئا، فتقـول الملائكـة: من امـة من أنتم؟ فيقولون: من أمة محمد ﷺ؛ فيقولون: نشدناكم الله حـدثونا مـا كانت أعمالكم في الدنيا؟ فيقولون: خصـلتان كانتـا فينـا، فبلغنـا الله هذه المنزلة بفضل رحمته، فيقولون: ومـا همـا؟ فيقولـون: كنا إذا خلونا نستحي أن نعصيه، ونرضى باليسير مما قسـم لنـا، فتقول الملائكة: يحق لكم هذا) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (إذا كان يـوم القيامـة جمـع اللـه الخلائق في صعيد واحد ونادى مناد من عند الله يسـمع آخـرهم كما يسمع أوّلهم، يقول: أين أهل الصبر؟ قال: فيقـوم عنـق من النـاس فتسـتقبلهم زمـرة من الملائكـة فيقولـون لهم: ماكـان صبركم هذا الذي صبرتم؟ فيقولون: صـبرنا أنفسـنا على طاعـة الله، وصبرناها عن معصـيته، قـال: فينـادي منـاد من عنـد اللـه: صدق عبادي خلّوا سبيلهم ليدخلوا الجنة بغير حسـاب؛ قـال: ثمّ ينادي مناد آخر يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، فيقول: أين أهل الفضل؟ فيقوم عنق من الناس فتستقبلهم الملائكـة، فيقولـون: ما فضلكم هذا الذي ترديتم به؟ فيقولـون: كنـا يجهـل علينـا في الدنيا فنحتمل، ويساء إلينا فنعفو، قال: فينادي مناد من عند الله تعالى صدق عبادي، خلّوا سبيلهم ليـدخلوا الجنـة بغـير حسـاب؛ قال: ثمّ ينادي مناد من الله عزّ وجلّ يسمع آخـرهم كمـا يسـمع أوّلهم، فيقول: أين جيران الله جلّ جلاله في داره؟ فيقوم عنـق من الناس فتستقبلهم زمرة من الملائكة، فيقولون لهم: ما كان عملكم في دار الدنيا فصـرتم بـه اليـوم جـيران اللـه تعـالى في داره؟ فيقولون: كنّا نتحاب في الله عزّوجـلّ، ونتبـاذل في اللـه، ونتزاور في الله، قال: فينادي مناد من عنـد اللـه تعـالى: صـدق عبادي خلّـوا سـبيلهم لينطلقـوا إلى جـوار اللـه في الجنـة بغـير حساب، قال: فينطلقون إلى الجنة بغير حساب)، ثمّ قال الإمام الباقر: (فهؤلاء جيران الله في داره يخـاف النـاس ولا يخـافون،

1() تنبيه الخواطر: 1 / 230

ويحاسب الناس ولا يحاسبون)[2]

والنجاة والسلامة ـ أيها المريد الصادق ــ لا ترتبط بتلك العوالم فقط، وإنما ترتبط بالحياة الدنيا أيضا.. فالله تعالى بكرمه يهب هذه الموهبة العظيمة للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة، لأنه رب الدنيا والآخرة جميعا.

فالمؤمن بفضل التزامه بشريعة ربه، وحرصه عليها ظاهرا وباطنا، ينجو من كل تلك الآفات التي يغرق فيها غيره.. فهو لا يصاب بآلام الحاسدين والحاقدين والمستكبرين، ولا يثيره ذلك الغضب الشديد الذي يصيب من لا سلطة له على نفسه، ولا على غرائزه.. ولا يصيبه ذلك العشق المدنس الذي يقضي على كل عزة وكرامة في الإنسان.. ولا يصيبه الإحباط بسبب أي موقف يحصل له.. وهكذا يحمي الله تعالى المؤمن بإيمانه وتقواه وصفاء ظاهره وباطنه من كل تلك الموبقات التي لا تقضي على دينه فقط، وإنما تقضي على دنياه أيضا.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى عند مقارنة آلام المؤمنين بآلام غيرهم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ الله مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: 104]

فالآية الكريمة تشير إلى أن اشتراك المؤمنين مع غيرهم في بعض الآلام لا يعني المشاركة الكلية، لأن للمؤمنين من المسكنات والمفرحات والمسعدات ما لا يملكه غيرهم، ولذلك تتنزل عليهم تلك الآلام مصحوبة بالبرد والسلام، والطمأنينة والراحة، لشعورهم أنهم سيقبضون أجور صبرهم عليها.

وليس الأمر قاصرا على ذلك فقط، بل إن التزام المؤمن بشريعة ربه في جانبها الظاهر، له تأثيره في نجاته من الكثير من الأمراض والعلل والآفات التي تصيب غيره ممن لا يفرق بين الحلال والحرام.

فالمؤمن لا تصيبه الأمراض الناتجة عن الفحشاء والمنكر، ولا تلك الأدواء الخطيرة التي تسببها المطاعم والمشارب المحرمة كالخمر والمخدرات ولحم الخنزير والميتة وغيرها، بخلاف غيره ممن لا يجد من يحذره منها، ولا الدوافع التي تحول بينه وبينها.

والمؤمن فوق ذلك كله بمنجاة من تلك الآفات الاجتماعية

2() بحار الأنوار: 7 / 171

الكثيرة التي يعيش فيهـا غـير المؤمـنين.. فهـو يعيش عـادة في مجتمع محافظ متخلـق، يـرعى العلاقـات الاجتماعيـة، ويحافـظ عليها، أو يعيش في أسرة تلـتزم الضـوابط الأخلاقيـة وتراعيهـا، بخلاف تلك المجتمعات والأسـر الـتي لا تعـرف الإيمـان، والـتي تتحول بيوتها إلى سجون وزنازن.

وكل هذا وغيره يدل على أن النجاة الحقيقية بكـل معانيهـا لم ولن تتحقق إلا للمؤمن، وكيف لا تتحقق له، وهو يـؤمن بربـه السلام الذي لا يصدر منه إلا الخير المطلق؟

العيشة الراضية

من مواهب الله تعالى لعباده لتحفيزهم للسير إليه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [العيشة الراضية]، وأقصد بها ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [القارعة: 6، 7]، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ [الحاقة: 19 - 21]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى أن الحياة الحقيقية ليست تلك الحياة الممتلئة بالرفاه الحسي، أو المتع المادية فقط، وإنما تلك التي ينعم صاحبها بالرضا والطمأنينة والهدوء والسلام النفسي.. فهو راض عنها، مطمئن لها، لا يتطلع إلى غيرها، لأنه يجد فيها كل ما يلبي حاجاته ورغباته.

وفي تعبير القرآن الكريم عن المعيشة بكونها راضية، وليس صاحبها، إشارة إلى ما ورد في النصوص المقدسة من أن نعيم الجنة منسجم مع نفس صاحبها، ورغباته، ولذلك يتغير ويتبدل بحسب تلك الرغبات، حتى صورة الإنسان نفسها تتغير وتتبدل بحسب ما يشتهي من غير أن يؤثر ذلك في معرفة أهل الجنة به.

وليس ذلك بمستغرب، ذلك أن نعيم الجنة ليس سوى تجسد للنفس المؤمنة وأعمالها الصالحة، ولذلك فإنه يتجدد ويترقى بحسب تجدد النفس وترقيها في مراتب السلوك التي لا تنتهي أبدا.

وحتى ينفي الله تعالى ما قد يُتوهم من أن الرضا يتنافى مع الرفاه والنعيم الحسي، فقد عقب على ذكره للعيشة الراضية بقوله: ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (22) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (23) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 22 - 24]، فذكر هذه الأنواع من النعم الحسية التي تدل على تيسير الحياة في الجنة؛ فكل شيء فيها في متناول اليد بسهولة ويسر.

وتشير آيات أخرى من القرآن الكريم إلى أن الله تعالى ينعم على عباده الصالحين بالرضا عن أعمالهم وأحوالهم في الجنة على الرغم من التفاوت الشديد بين أهلها ودرجاتهم، كما

قــال تعــالى: وُجُــوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَــةٌ (8) لِسَــعْيِهَا رَاضِــيَةٌ [الغاشية: 8، 9]

وهــذا لا يتنــافى مــع مــا ورد في نصــوص أخــرى من أن المؤمنين يتحسرون على تضييعهم للفـرص الـتي أتيح لهم فيهـا المزيد من العمل الصالح، وهو مـا ورد التعبـير عنـه في القـرآن الكريم بوصف [التغابن]، ذلك أنهـا تـدل على حالـة مؤقتـة، قـد ترتبـط بـالبرزخ والموقـف، دون الجنـة الـتي هي دار الرضـوان الذي لا كدر فيه.

ومما يعمق ذلك الرضوان الذي تتسم به معيشة المؤمـنين في الجنة ما ورد في النصوص المقدسـة من إخبـار اللـه تعـالى عن رضـاه عنهم، وهـو نعمـة أعظم من الجنـة نفسـها، بـل إنـه السبب في تلك المعيشـة الراضـية، والنفـوس الراضـية.. فلـولا رضوان الله ما كان كـل ذلـك.. فأهـل الجنـة اختـاروا أن يتجلى اللــه عليهم بوصــف الرضــا، وقــد كــان في إمكــانهم أن يتجلى عليهم بوصف السخط لو أنهم خالفوا السراط المسـتقيم الـذي أمروا باتباعه.

ولذلك فإن الرضوان الإلهي مرتبط بالعدالة والرحمة؛ فقـد أتيح لكـل الخلـق أن يتجلى اللـه تعـالى عليهم بوصـف الرضـا، لكنهم أبوا ذلك؛ فلذلك انسجم جزاؤهم مع سلوكهم.

ومن الآيات التي تشـير إلى ذلـك قولـه تعـالى::يُبَشِّـرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَـةٍ مِنْـهُ وَرِضْـوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَـا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (21) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ [التوبـة: 21،ـ 22]؛ فقد اجتمع في الآيتين الكريمتين كل أنواع النعيم المعنوي الذي يعطي الجنـة جمالهـا الخـاص، فالجنـة دار الرحمـة والرضـوان والإقامة والخلود.. وكلها تملأ النفس بمشـاعر الرضـا والسـعادة التي لا حدود لها.

ومثلها ما ورد في قوله تعالى: قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَـا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْــوَانٌ مِنَ اللــه وَاللَّهُ بَصِــيرٌ بِالْعِبَــادِ [آل عمران: 15]، وقد وردت هذه الآية الكريمة بعد قوله في وصف مجامع نعيم أهل الدنيا: زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَــاطِيرِ الْمُقَنْطَــرَةِ مِنَ الــذَّهَبِ وَالْفِضَّــةِ وَالْخَيْــلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْـدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ [آل عمران: 14]

وهي تنبه بذلك العقول إلى الفروق العظيمة بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة، فنعيم الجنة حقيقي، بينما نعيم الدنيا مزين، وقد يكون ظاهره مخالفا لباطنه، وصورته مخالفة لحقيقته.

ونعيم الجنة ـ كما تشير الآية الكريمة ـ متسم بالطهارة، بخلاف نعيم الدنيا الذي تختلط فيه القذارة بالطهارة، والألم بالفرح.

وفوق ذلك كله، فإن نعيم الجنة مرتبط برضوان الله تعالى، بخلاف نعيم الدنيا الذي لا يدري صاحبه أربه راض عنه أم ساخط.. وذلك ما يجعله يتناوله بحذر، خوفا من أن يكون سببا في سخط الله تعالى عليه لتقصيره في حقه، أو لاختلاطه بالحرام والشبهة.

ومن الآيات الكريمة التي تشير إلى قيمة الرضوان في الجنة،قوله تعالى: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: 72]

فالآية الكريمة ـ بعد تقريرها لأنواع النعيم الحسي والمعنوي لأهل الجنة ـ تذكر أن الرضوان الإلهي أعظم من ذلك كله، ذلك أنه يملأ نفوس أهل الجنة بالطمأنينة والفرح والرضا؛ فمن رضي الله عنه أرضاه، ومن أرضاه يستحيل أن يصيبه السخط أو الملل أو الجزع.

وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أن الله تعالى يبشر أهل الجنة برضاه عنهم، فقال: (إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربنا، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أفضل؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا)(1)

فهذا الحديث يشير إلى أن الله تعالى لا يكتفي ـ رحمة منه وفضلا ـ بتلك المشاعر التي يجدها أهل الجنة في نفوسهم نتيجة معايشتهم لذلك النعيم، وإنما يخاطب نفس كل واحد منهم مبشرا له بالرضوان الخاص.

وذلك يدل على أن الجنة ليست محلا للنعم الحسية فقط، وإنما هي محل لكل المشاعر الروحية الطاهرة السامية، حيث

(1) رواه البخاري 11 / 363 و364، ومسلم رقم (2829)

تتجـدد علاقتهم كـل حين بالله عـبر سـماعهم لـه في نفوسـهم سماعا ممتلئـا بالتنزيـه والتعظيم والجلال.. فكمـا أن رؤيـة اللـه تعـالى في الجنــة رؤيــة قلبيــة منزهــة عن كـل قيــود الحس والحدوث والتشبيه والتجسيم، فمثل ذلك سماع الله تعالى.

إذا عرفت هذا ـ أيها المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن العدالـة والرحمة الإلهية تقتضي ألا يتنزل هذا الرضوان إلا على من كان أهلا له، حتى لا يحتج من لم ينله بعدم تحقق العدالة.

وبما أن الجزاء الأخروي متوافق مع الأعمال والتكاليف في الــدنيا؛ فـإن الرضــوان الإلهي مرتبــط بــأعظم عبوديــة يؤديهـا الإنسان، وهي الرضا والتسليم المطلـق للـه تعـالى، كمـا أشـار إلى ذلك قولـه ﷺ: (إن عظم الجـزاء مـع عظم البلاء، وإن اللـه تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط)[1]

ولذلك فإن كل ما نراه من ألوان البلاء، مما يتــوهم البعض أنه شر، هو في الحقيقة بلاء إلهي القصد منه تمحيص الصادقين من غيرهم، كما ضرب بعض المشايخ المثل على ذلك لمريديـه، عندما زاروه في مرضه، وكان قد جمع بين يديه حجارة، فقــال: من أنتم؟ فقــالوا: محبــوك، فأقبــل عليهم يــرميهم بالحجــارة؛ فتهاربوا، فقال: (ما بالكم ادعيتم محبتي، إن صـدقتم؛ فاصـبروا على بلائي)

وهذا المعنى هو ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَحَسِــبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُـوا أَنْ يَقُولُـوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُـونَ﴾ (العنكبـوت:2)، فقـد أخبر تعـالى أن من مقتضـيات ادعـاء الإيمـان الابتلاء حـتى يعلم الصادق من الكاذب، ومن يؤثر الله، ومن يؤثر هواه.

ولهذا يقترن الجــزاء الإلهي بالرضــى، باعتبـاره أكـبر دليـل على صدق الإيمان، قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْــوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْـدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 16]، وقال: ﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَــعُ الصَّــادِقِينَ صِــدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْــرِي مِنْ تَحْتِهَــا الْأَنْهَــارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: 119]

ويــبين سـر الفــرق بين أهـل الجنـة وأهـل النـار، فيقـول: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ الله كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللــه وَمَــأْوَاهُ جَهَنَّمُ

1() رواه الترمذي رقم 3998 وقال حديث حسن غريب.

وَبِئْسَ الْمَصِيرُ [آل عمران: 162]

ولهـذا ورد الثنـاء العظيم في القـرآن الكـريم على أهـل الرضى، أولئك الذين تحملوا كل التكاليف الشرعية من غـير أن يصرفهم ثقلهـا أو مشـاقها عن ربهم أو عبـوديتهم ومحبتهم لـه، قال تعالى: فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ الله وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْـهُمْ سُـوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ الله وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ [آل عمران: 174]، وقـال: وَالسَّـابِقُونَ الْأَوَّلُـونَ مِنَ الْمُهَـاجِرِينَ وَالْأَنْصَـارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْـهُ وَأَعَـدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَـا الْأَنْهَـارُ خَالِـدِينَ فِيهَـا أَبَـدًا ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيمُ [التوبـة: 100]، وقـال: لِلْفُقَـرَاءِ الْمُهَـاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُـوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللـه وَرِضْـوَانًا وَيَنْصُـرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ [الحشر: 8]، وقـال: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (7) جَـزَاؤُهُمْ عِنْـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [البينة: 7، 8]

وفي مقابل هـؤلاء ذكـر اللـه تعـالى السـاخطين على اللـه الذين صرفوا حياتهم كلهـا يناوئونـه، ويقـترحون عليـه مـا تمليـه عليهم أهواؤهم، قال تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِـزُكَ فِي الصَّـدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَـوْا مِنْهَـا إِذَا هُمْ يَسْـخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ وَقَـالُوا حَسْـبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللـه رَاغِبُـونَ [التوبـة: 58، 59]

وعلل أنواع الجـزاء الـتي تـنزل بهم بكونهـا تجسـيدا لـذلك السخط الذي كانوا يبدونه لله، قال تعالى: ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمُ اتَّبَعُـوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ [محمد: 28]

ولهـذا، فـإن الجـزاء الوفـاق لكلا الطـرفين هـو أن يعطى بحسب أعماله ومواقفه ونفسـه الـتي شـكلها في الـدنيا.. فـإن كان من الراضين، أعطى الرضى، وإن كـان من السـاخطين لم يلق إلا السخط، قال تعالى: وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللـه ثُمَّ قُتِلُـوا أَوْ مَـاتُوا لَيَـرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًـا حَسَـنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُـوَ خَيْـرُ الرَّازِقِينَ (58) لَيُـدْخِلَنَّهُمْ مُـدْخَلًا يَرْضَـوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [الحج: 58، 59]، وقال: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (8) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَا تَسْـمَعُ فِيهَـا لَاغِيَـةً [الغاشـية: 8 - 11]

ولهذا قرن الله تعالى كل ما يرتبـط بالمحسـنين بالرضـى، باعتباره نتيجة لذلك الرضى الذي مارسوه في حياتهم الدنيا مـع الله، أو مع رسله، أو مع التعاليم التي طولبوا بتنفيذها.

فاجتهد ـ أيها المريـد الصـادق ــ لتتحقـق بالرضـا عن اللـه حتى يرضى الله عنـك، ويرضـيك؛ فلا يمكنـك أن تعيش العيشـة الراضية إلا إذا تجلى الله عليـه برضـوانك، ولن يتجلى عليـك إلا إذا كنت أهلا لذلك التجلي الأعظم.

تيجان الكرامة

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [تيجان الكرامـة]، وأقصـد بها ما أشار إليه قوله ﷺ: (من قرأ القرآن وعمل بما فيه، ألبس والداه تاجا يوم القيامة، ضـوؤه أحسـن من ضـوء الشـمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا)(1)

وفي حـديث آخــر، قــال ﷺ: (ويوضع على رأس صــاحب القـرآن تـاج الوقـار، ويكسى والـداه حلـتين لا يقـوم لهما أهـل الدنيا، فيقولان: بم كسينا هذه ؟ فيقال: بأخذ ولدكما القرآن، ثم يقال له: اقرأ واصعد في درجة الجنة وغرفهـا، فهـو في صـعود، ما دام يقرأ هذا كان أو ترتيلا)(2)

وفي كلا الحديثين إشارة إلى أن من فضل الله تعالى على عباده الصالحين أن يهبهم من الإكرام والتبجيل والرفعة والجــاه ما يتناسب مع تلك التضحيات والإهانـات الـتي تعرضـوا لهـا في الدنيا في سبيل الله تعالى.

وما ذلك التـاج المـذكور في الحـديثين إلا نمـوذج عن تلـك الهبات الإلهية الكثيرة المرتبطة باسم الله الشكور، والذي يعني مكافأة المستحقين من أصحاب الفضل، لا بقدر فضـلهم فقـط، وإنما بقدر عظمة الله وفضله.. ولـذلك فإنـه لا حـدود لإكـرامهم وتبجيلهم، كما لا حدود لكرم والله وشكره.

ويدل لهذا النوع من الفضل الإلهي قوله تعـالى حكايـة عن إبليس بعد الأمر بالسجود: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَـذَا الَّذِي كَـرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: 62]

فإبليس لم يحسد آدم عليه السـلام على شـيء من النعم، كما حسده على ذلك التكريم الإلهي الخاص، وهـو يـدل على أن التكريم قد يفوق النعم الحسية جميعا.

وقـد ورد في النصـوص المقدسـة مـا يشـير إلى أن اللـه تعالى بعدله ورحمتـه أتـاح هـذا التكـريم لكـل الخلـق، وأنـه هـو الأصل، وأن البشر هم الذين يختارون بعد ذلك الإذلال والإهانــة، قال تعالى: ﴿ وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَـاهُمْ فِي الْبَـرِّ وَالْبَحْـرِ

(1) أحمد (15645)، وأبو داود (1241)
(2) أحمد (22950)

وَرَزَقْنَـاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَـاتِ وَفَضَّـلْنَاهُمْ عَلَى كَثِـيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَـا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: 70]

ويشبه ذلك ـ أيها المريد الصادق ــ أن تكـرم بعض النـاس، وتنزله محلا خاصا، وتثني عليه، لكنـه بـدل أن يتواضـع، ويعـرف فضلك عليه بـذلك التكـريم، ويشـكرك عليـه، يلجـأ إلى التبـاهي والتعاظم والتفاخر، إلى أن يسقط من عينك ومن عين كـل من رأى تكريمك له.

وهكذا البشر؛ فالله تعالى كرّمهم وأكرمهم، لكنهم بدل أن يتواضعوا، ويعرفـوا فضـل اللـه عليهم، وأنهم من دونـه لا قيمـة لهم، ولا كرامة، راحوا يزهون ويفخـرون ويسـتعلون، ويقولـون: ﴿مَنْ أَشَـدُّ مِنَّا قُـوَّةً﴾ [فصـلت: 15]، و﴿ وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]

ولذلك كان جزاؤهم من جنس عملهم، وهو تحول التكـريم إلى إهانة، فمن أكرم نفسه بعد تكريم الله لها استحق الكرامة، ومن أهانها، واستبدل نعمة الله كفرا، استحق الإهانة.

وتبدأ تلك الإهانة بعد الموت مباشرة كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيـقِ (50) ذَلِـكَ بِمَـا قَـدَّمَتْ أَيْـدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الأنفـال: 50ـ، 51]، وقـال: ﴿ وَلَـوْ تَـرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْـدِيهِمْ أَخْرِجُـوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَـا كُنْتُمْ تَقُولُـونَ عَلَى اللـه غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: 93]

وهكذا يقرن الله تعالى مشـاهد الإهانـة بالأسـباب الداعيـة لها، حتى يبين مدى العدل الإلهي الذي يتعامل مع كل جهـة بمـا اختارته لنفسها.

ولا تتوقف إهانـة المسـتكبرين على تكـريم اللـه على تلـك المحطـة، بـل إنهـا تسـتوعب كـل المراحـل الـتي يمـر بهـا المنحرفون بعد الموت.. ولذلك يرد وصف العذاب بكونه مهينـا، وليس مؤلما فقط، كما قـال تعـالى: ﴿وَلَا يَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَـا نُمْلِي لَهُمْ لِيَـزْدَادُوا إِثْمًـا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران: 178]

وقـد وصـف القـرآن الكـريم المسـتحقين لهـذا النـوع من العذاب، وكلها متناسبة مع الإهانات الـتي يتعرضـون لهـا، ومنهـا التمرد على الله ورسوله ومجاوزة الحـدود، قـال تعـالى: ﴿وَمَنْ

يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ [النساء: 14]

ومنها البخل وكتمان فضل الله، كما قال تعالى: الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [النساء: 37]

ومنها الكفر بمختلف أنواعه ومظاهره، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالله وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الله وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (150) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا [النساء: 150، 151]

ومنها التكذيب بآيات الله، قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [الحج: 57]

ومنها استعمال الوسائل المختلفة للتضليل، قال تعالى: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ الله بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [لقمان: 6]

ومنها إيذاء الله ورسوله، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا [الأحزاب: 57]

ومنها التزوير والكذب على الله مع الإصرار على ذلك، قال تعالى: وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آيَاتِ الله تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ [الجاثية: 7 - 9]

ومنها محادة الله ورسوله، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ [المجادلة: 5]

ولا يتوقف الأمر على ذلك، بل إن الله تعالى يذكر اللعنات الكثيرة التي يسمعها المسيئون من كل الجهات، ابتداء من دخولهم إلى جهنم، قال تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (71) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ [الزمر: 71، 72]

وهكذا تصب عليهم اللعنات كل حين، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: 25]

وهكذا يذكر القرآن الكريم إهانة أهل جهنم لبعضهم بعضا، وذلك عندما تحصل المناوشات بينهم فيمن هو السبب فيما يحصل لهم من أنواع الآلام، قال تعالى يذكر بعض تلك المشاهد: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لله جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (165) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167) ﴾ [البقرة: 165 - 168]

وفي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 167] إشارة إلى أن تلك الحسرة وسببها من صنع أيديهم، كما عبر عن ذلك الإمام الصادق في تفسيره للآية الكريمة ببعض مصاديقها، فقال:(هو الرجل يدع المال لا ينفقه في طاعة الله بخلا، ثم يموت فيدعه لمن يعمل به في طاعة الله أو في معصيته.. فإن عمل به في طاعة الله رآه في ميزان فزاده حسرة، وقد كان المال له أو عمل به في معصية الله فهو قواه بذلك المال حتى عمل به في معاصي الله)(1)

وهكذا يذكر القرآن الكريم تلك الصيحات الكثيرة الممتلئة بالألم، عندما يكفر الظالمون بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضا محتجين ومتبرئين، قال تعالى: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (38) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (39) ﴾ [الأعراف: 38 - 40]

وفي مقابل هذا وصف الله تعالى تكريمه وإكرامه للمؤمنين، وفي كل المراحل التي يمرون بها، ابتداء من أول لقاء يجري بين المحسنين والملائكة، حيث يبدؤونهم بالسلام،

1() بحار الأنوار، ج73، ص142.

قــال تعــالى: ﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَـةُ طَيِّبِينَ يَقُولُـونَ سَـلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: 32]

وهكذا يذكر القرآن الكـريم أنـواع التكـريم والتبجيـل الـتي يلقاها المؤمن في المواقف المختلفة من طرف الملائكـة، كمـا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَـزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (30) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَشْـتَهِي أَنْفُسُـكُمْ وَلَكُمْ فِيهَـا مَـا تَـدَّعُونَ (31) نُـزُلًا مِنْ غَفُـورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: 30 - 32]

ويذكر القـرآن الكـريم تلـك التحيـات الطيبـات الطـاهرات التي تستقبل بها الملائكة المحسنين، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَـالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73]

وليس ذلك خاصا باستقبالهم، بل تظل تلك التحيـات دائمـة بينهم، قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ صَـبَرُوا ابْتِغَـاءَ وَجْـهِ رَبِّهِمْ وَأَقَـامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُـوا مِمَّا رَزَقْنَـاهُمْ سِـرًّا وَعَلَانِيَـةً وَيَـدْرَءُونَ بِالْحَسَـنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الـدَّارِ (22) جَنَّاتُ عَـدْنٍ يَـدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَـلَحَ مِنْ آبَـائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَـةُ يَـدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (23) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَـا صَـبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الـدَّارِ﴾ [الرعد: 22 - 24]

وبناء على ما تقتضـيه العدالـة المرتبطـة بالرحمـة الإلهيـة؛ فإن تلك التكريمات للمؤمنين تتفاوت بحسب مراتبهم المستندة لأعمالهم وجهدهم، ولهذا كان أعظم المكرمين رسـول اللـه ﷺ؛ لعظم التضـحيات الـتي قـدمها في سـبيل اللـه، والـتي لم يكن يبالي فيها بأحد من الناس، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا سمعتم المؤذن، فقولوا مثل ما يقـول ثم صـلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليـه بهـا عشـرا، ثم سـلوا لي الوسيلة فإنها منزلة من الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنـا هـو، فمن سـأل اللـه لي الوسـيلة حلت لـه الشفاعة) [1]

ومن المكرمين الشهداء الذين وصف الله التكريم الخــاص بهم، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللـهِ أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

[1] رواه مسلم وأبو داود والترمذي.

وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ [آل عمران: 169ـ 170]، فالعندية المرتبطة بالله تكريم أعظم من كل أنواع النعيم.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه)[1]

وهكذا تذكر النصوص المقدسة أنواعا مختلفة من التكريمات، ومنها الشفاعة، ففي الحديث قال ﷺ: (يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء)[2]

وقال: (ما من مسلم يحفظ على أمتي أربعين حديثاً يعلمهم بها أمر دينهم إلا جيء به يوم القيامة فقيل له: اشفع لمن شئت)[3]

وبناء على ما تقتضيه العدالة الإلهية، فإن العدد المسموح به في الشفاعة يختلف باختلاف الأعمال في الدنيا، كما روي عن الإمام الباقر أنه قال: (يشفع الرجل في القبيلة، ويشفع الرجل لأهل البيت، ويشفع الرجل للرجلين على قدر عمله. فذلك المقام المحمود)[4]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته)[5]

وقال: (يقول الرجل من أهل الجنة يوم القيامة: أي ربّي عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا، فشفّعني فيه فيقول: اذهب فأخرجه من النار فيذهب فيتجسس في النار حتى يخرجه منها)[6]

ومن مظاهر التكريم الإلهي ما ورد في الأحاديث الشريفة

1() رواه الترمذي (1663)، وابن ماجه (2274)، وأحمد (4/ 131) (17221)

2() رواه ابن ماجه (4992)، والبيهقي في (شعب الإيمان) (2/ 265)

3() رواه ابن عدي في (الكامل في الضعفاء) (5/ 56)، وابن عبدالبر في (جامع بيان العلم وفضله) (1/ 95)

4() مناقب آل أبي طالب (2/15)

5() رواه أبو داود (2522)، وابن حبان (10/ 517) (4660)، والبيهقي (9/ 164) (18308)

6() مجمع البيان: 1/104.

من جلوس بعض أهل الموقف على منابر النـور، وهم في غايـة الروح والسرور يعاينون أهل الموقف، وانتظارهم للحساب، وقد يكون من بينهم أولئك المظلومين المحتقرين الذين لم ينصـفوا؛ فينصـفهم اللـه تعـالى في ذلـك الموقـف، بـأن يـروا المحاكمـة العادلة التي تجري لمن ظلموهم، والتي حرموا منها في الدنيا.

ومن تلـك الأحـاديث قولـه ﷺ في بعض خطبـه: (اعقلـوا واعلموا أن لله عبادا ليسوا بأنبياء، ولا شـهداء، يغبطهم النـبيون والشهداء لمكانهم وقـربهم من اللـه)، فقـام أعـرابي، فقـال يـا رسول الله، من هم حلهم لنا فسر وجـه رسـول اللـه ﷺ لقـول الأعـرابي؛ فقـال: (هم قـوم لم تصـل منهم أرحـام متقاربـة من أفناء النـاس ونـوازع القبائـل، تحـابوا في جلال اللـه عـز وجـل، وتصافوا فيه وتزاوروا فيه، وتباذلوا فيه، يضع الله لهم منابر من نور فيجلسون عليها، وإن ثيابهم لنور، ووجوههم نور، لا يخـافون إذا خاف الناس، ولا يفزعون إذا فزع الناس، أولئك أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[1]

وفي حديث آخر ذكر بعض صفاتهم، وهي القسط، قال ﷺ: (إن المقسطين عند الله على منابر من نور.. الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)[2]

وقد ورد ما يدل على أن هؤلاء الجالسين على منابر النور، لا يجلسون في انتظار الحساب، وإنمـا ليعـاينوا أهـل الموقـف، وكيفية حسابهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (34) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (35) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36)﴾ [المطففين: 34 - 36]

هذه نماذج من التكريمات الإلهيـة؛ فـاحرص ـ أيهـا المريـد الصادق ـ على أن تكـون من أهلهـا، فـذلك هـو الجـاه الحقيقي الذي يتلاشى أمامه كل جاه الدنيا ومناصبها وتكريماتها.

1() نوادر الأصول في أحاديث الرسول (4/ 82)
2() الحميدي (588)وأحمد (2/160) (6492)، ومسلم (6/7)

الكرامات والخوارق

من مــواهب اللــه تعــالى لعبــاده لتحفــيزهم للســير إليــه، وإعانتهم على ذلـك، مـا يمكن تسـميته [الكرامـات والخـوارق]، وأشير به إلى ما وردت الإشارة الصريحة إليـه قولـه تعـالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُـوَ مِنْ عِنْـدِ اللـه إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]

فقد روي في تفسيرها ابن عبـاس أنـه قـال: (وجـد عنـدها الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد، فكان زكريا يقول: يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا؟ قالت: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللـه إِنَّ اللَّهَ يَـرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)[1]

وروي أنه وجد عندها (فاكهـة الشـتاء في الصـيف، وفاكهـة الصيف في الشتاء)[2]

فالآية الكريمـة، وكـل مـا ورد في تفسـيرها، تـدل على مـا اتفقت عليه الأمة جميعا، ودل عليـه العقـل، من أن اللـه تعـالى يمكنه أن يكرم من يشـاء من عبـاده بمـا شـاء من فضـله، ولـو اقتضى الأمر أن يكون ذلك من الخوارق الـتي لم يتعـود النـاس عليها.

وليس في ذلك أي خرق لسنن الله تعـالى؛ فسـنن اللــه لا تبديل لها.. وهي مطلقة وصادقة في كل الأحوال يستحيل عليها التبدل والتغير.

ولذلك فإن ذلـك الطعـام المميـز الـذي أكـرمت بـه مـريم عليها السلام كان وفق سنن الله، وإن بدا غريبا في دنيا الناس، وذلــك لعــدم تعــودهم على مثلــه، ولــو أنهم وفــروا لنفوســهم الشروط الـتي تتناسـب معـه، لتحـول ذلـك إلى شـيء عـادي لا غرابة فيه.

فلو أن كل البشر كانوا مثل مريم عليها السـلام، ثم كـانت لهم تلك الأحوال الصادقة التي استحقت بها ذلك الإكـرام؛ فإنـه ينالهم ما نالها.

وهذا مما تقتضيه قوانين العلوم، ذلك لو أن عالما ـ يحــترم

1() تفسير ابن أبي حاتم (2/ 640)

2() تفسير الطبري (6/ 353، 356)

نفسه، ويحترم تخصصه، ويحترم العلوم التي وهبت لـه ــ تمكن من إجراء تجـارب معينـة في ظـروف معينـة، واسـتنتج قـوانين منها، لكنه لم يتمكن من إجراء تجارب على ظروف أخرى؛ فإنه لا يمكن الحكم على نتائج ما لم يجربه، ولو فعل ذلك لخرج عن المنهج العلمي، ودخل في زمرة أهل الخرافة الذين يستخدمون كل ما توحيه لهم نفوسهم من أهواء.

ويشير إلى هذا المعنى ما ورد في قوله ﷺ لبعض أصـحابه عندما أخبره عن الفرق بين الحـال الـذي يكونـون عليهـا عنـده، والحال التي يكونون عليها عند انصرافهم: (والـذي نفسـي بيـده لـو تـدومون على مـا تكونـون عنـدي، وفي الـذكر، لصـافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم) [1]

فقد ذكر رسول الله شيئا خارقا في تصوراتنا الهزيلة، وهو مصافحة الملائكة لنا، وذكر لها سببين، عبر عنهمـا رسـول اللـه ﷺ بقولـه: (لـو تـدومون على مـا تكونـون عنـدي، وفي الـذكر)؛ فأولهما الديمومة على استذكار المعاني الإيمانية التي كان يذكر بها رسول الله ﷺ، والثاني الديمومة على الذكر.

ولهذا رد الملائكة عليهم السلام على سارة زوجـة إبـراهيم عليه السلام عنـدما اسـتغربت من تلـك البشـارة الـتي تبشـرها وزوجها بالولد، وقالت: ﴿ يَاوَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَـذَا لَشَـيْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [هـود: 72]، فقـال لهـا الملائكـة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ الله وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ [هود: 73]

وبذلك، فإن الكرامة تجل لقدرة الله تعالى المطلقـة الـتي لا حدود لها.. وهي تدل على أن الله تعالى كمـا يمكن أن يـرزق عباده ويكرمهم من خلال الأسباب والوسائط التي يقتضيها عالم الحكمة، يمكنـه أن يـرزقهم ويكـرمهم من غـير الوسـائط، وهي التي يقتضها عالم القدرة، وكلاهما قدرة.

ويشير إلى هذا المعنى أيضـا، ومـدى ارتباطـه بسـنن اللـه تعالى ما ورد في قصة سليمان عليه السلام واختبـاره لأصـحابه من الإنس والجن، ونجاح الإنسي الصالح في ذلك الإختبار الـذي يبدو خارقـا للعـادة، قـال تعـالى: ﴿قَـالَ يَاأَيُّهَـا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (38) قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِـكَ وَإِنِّي عَلَيْـهِ لَقَـوِيٌّ أَمِينٌ (39)

1() رواه مسلم.

قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ [النمل: 38 - 40]

فهذه القصة تشير إلى أن الخوارق التي تحصل للصالحين في بعض المحال ناتجة على علمهم ببعض الكتاب الذي يتيح لهم حصول تلك الإكرامات الخاصة.

وذلك لا يعني ــ أيها المريد الصادق ــ أن الكرامة هي البرهان الدال على ولاية الولي، أو صلاح الصالح؛ فالأمر ليس كذلك، فالله تعالى قد يحجب عن الصالحين بعض ما يستحقونه من كرامات، لا لهوانهم عليه، وإنما لاقتضاء الاختبار الإلهي لذلك، والصالحون يرضون عن ذلك، ويفرحون به، لأنهم يعرفون أن المنع قد يكون أجزل أنواع العطاء.

ومما يروى في هذا أن بعضهم أنكر على الإمام السجاد حاجته وفاقته، وعدم قدرته على تسديد بعض حاجات المسلمين المادية، وقال: (عجبا لهؤلاء يدّعون مرّة أنّ السماء والأرض وكلّ شي ء يطيعهم، وأنّ الله لا يردّهم عن شي ء من طلباتهم، ثمّ يعترفون أخرى بالعجز عن إصلاح حال خواصّ إخوانهم)، فرد عليه الإمام السجاد بقوله: (هكذا قالت قريش للنبي ﷺ: كيف يمضي إلى بيت المقدس ويشاهد ما فيه من آثار الأنبياء من مكّة ويرجع إليها في ليلة واحدة من لا يقدر أن يبلغ من مكة إلى المدينة إلّا في اثني عشر يوما؟! وذلك حين هاجر منها.. جهلوا والله أمر الله وأمر أوليائه معه، إنّ المراتب الرفيعة لا تنال إلّا بالتسليم لله جلّ ثناؤه، وترك الاقتراح عليه، والرضا بما يدبرهم به، إنّ أولياء الله صبروا على المحن والمكاره صبرا لم يساوهم فيه غيرهم، فجازاهم الله عزّ وجلّ عن ذلك بأن أوجب لهم نجح جميع طلباتهم، لكنّهم مع ذلك لا يريدون منه إلّا ما يريده لهم) [1]

ولهذا يتفق الصالحون والحكماء على أن الكرامات الحقيقية لا ترتبط بتلك الخوارق الحسية، والتي قد تكون استدراجا أو اختبارا، وإنما بالصلاح والاستقامة؛ فهي أعظم كرامة إلهية.

وقد عبر عن ذلك بعضهم، فقال: (الكرامة: هي أن تبدل

1() أمالي الصدوق: 367، بحار الأنوار ج 46/ 20.

خلقاً مذموماً من أخلاقك)[1]

وقال آخر: (الكرامة: هي الاستقامة)[2]

وقال آخر: (واعلم أن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والحفظ من المعاصي والمخالفات)[3]

وقال آخر: (كرامتان ليس بعدهما كرامة: الإيمان والاستقامة، فإذا وجدتم رجلاً مستقيما فلا تطلبوا منه كرامة)[4]

وقال آخر: (لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة، لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليلاً على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى)[5]

وذكرت الكرامات عند بعضهم، فقال: (وما الآيات وما الكرامات ؟ ! أشياء تنقضي لوقتها، ولكن أكبر الكرامات أن تبدل خُلقاً مذموماً من أخلاق نفسك بخلق محمود)[6]

وذكر بعضهم أنواع الكرامات، التي دلت عليها الروايات، أو الواقع، فقال: (الكرامة قد تكون طياً للأرض، ومشياً على الماء، وطيراناً في الهواء، واطلاعاً على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثير الطعام أو الشراب، أو أتياناً بثمرة في غير أبانها، أو اتباع ماء من غير احتفار، أو تسخير الحيوانات العادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبراً على الغذاء مدة عن طور العادة، أو إثمار الشجرة اليابسة مما ليس عادتها أن تكون مثمرة) [7]

ثم عقب عليها ببيان أن كرامة الاستقامة والتقوى أعظم من ذلك وأجل، فقال: (وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية،

1() الشيخ عمر بن سعيد الفوتي، رماح حزب الرحيم على نحور حزب الرجيم (بهامش جواهر المعاني وبلوغ الأماني) ج 1 ص 131.

2() الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلي، قوانين حكم الإشراق، ص 110 0

3() القشيري، الرسالة القشيرية، ص 160.

4() أبو محمد الخلال، كرامات الأولياء، ص 15.

5() نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أصحاب المقامات العالية، ص 119.

6() اللُّمَع في التصوف، ص 400.

7() لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن (هامش كتاب لطائف المنن للشعراني) ج 1 ص 61، 73.

وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل، وهي الكرامات المعنوية: كالمعرفة بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمسارعة لامتثال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام المتابعة والاستماع من الله والفهم عنه، ودوام الثقة به وصدق التوكل عليه إلى غير ذلك)[1]

ثم حكى عن بعض شيوخه قوله: (الطي على قسمين: طي أصغر وطي أكبر.. فالطي الأصغر: لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد.. والطي الأكبر: طي أوصاف النفوس) [2]

ثم علق عليه بقوله: (وصدق في ذلك؛ فإن طي الأرض لو عجزك الله عنه أو أفقدك إياه ما نقص ذلك من رتبتك عنده إذا قمت له بالوفاء في العبودية، وطي أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المغبونين وحشرت في زمرة الغافلين) [3]

وقال آخر: (إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان: كرامة الأيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان.. وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعوى والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مغتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضى، فجعل يشتاق إلى سياسة الدواب وخلع الرضى، وكل كرامة لا يصحبها الرضى عن الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مثبور) [4]

وقال آخر: (الكرامة المعنوية: هي ما لا يعرفه إلا الخواص من عباد الله، وهي أن يحفظ عليه آداب الشريعة، وان يوفق لإتيان مكارم الأخلاق، واجتناب سفاسفها، والمحافظة على أداء الواجبات مطلقاً في أوقاتها، والمسارعة إلى الخيرات، وإزالة الغل والحقد والحسد وسوء الظن من صدره، وطهارة القلب من كل صفة مذمومة، وتحليته بالمراقبة مع الأنفاس، ومراعاة حقوق الله في نفسه وفي الأشياء، وتفقد آثار ربه في قلبه، ومراعاة أنفاسه في خروجها ودخولها، فيتلقاها بالآداب إذا

1() المرجع السابق.
2() المرجع السابق.
3() المرجع السابق.
4() المرجع السابق.

وردت عليه)[1]

ولهذا يذكر الصالحون كراهيتهم لحصول الكرامات، خشية أن تكون استدراجا لهم، كما عبر عن ذلك بعضهم بقوله: (من لم يكن كارهاً لظهور الآيات وخوارق العادات منه كراهية الخلق لظهور المعاصي فهو في حقه حجاب وسترها عليه رحمة، فإن خرق عوائد نفسه لا يريد ظهور شيء من الآيات وخوارق العادات له بل تكون نفسه عنده أقل وأحقر من ذلك، فإذا فنى عند إرادته جملة فكان له تحقيق في رؤية نفسه بعين الحقارة والذلة حصلت له أهلية ورود الألطاف والتحقيق بمراتب الصديقين)[2]

وقال آخر: (الكُمَّل يخافون من وقع الكرامات على أيديهم ويزدادون بها وجلاً وخوفاً لاحتمال أن تكون استدراجاً)[3]

هذا ما ورد في النصوص المقدسة، وما قاله الحكماء والصالحون عن أنواع الكرامات؛ فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على أن تنال أشرفها وأكملها وأعظمها، وهو ذلك الذي يزد في قربك من ربك؛ فلا خير في شيء يبعدك عنه.

1() الشيخ معروف النودهي، شرح الخارق وجرح المارق، ص 191.

2() حامد صقر، نور التحقيق، ص 127.

3() الشيخ عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، ج 2 ص 113.

الفرح الصادق

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الفـرح الصـادق]، وأشـير به إلى ما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْـلِ اللـه وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: 58]

والفرح هو عبارة عن تلك المشاعر المتجددة، التي تحصل للقلب عند حصوله على ما يشـتهيه ممـا كـان غائبـا عنـه، أو لم يكن في يديه.. ولـذلك تتجـدد الحيـاة السـعيدة بتجـدده، ولـذلك ربط الله تعالى الفرح بالزمان، فقال: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيـزُ الـرَّحِيمُ﴾ [الـروم: 4، 5]

ولهذا ذكر الله تعالى تجدد الفرح كل حين للشهداء بسـبب ما يرونه من النعيم المتجدد، أو ما يحصلون عليه من أخبـار عن إخوانهم الذين تركوهم من بعـدهم، قـال تعـالى: ﴿ وَلَا تَحْسَـبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُـونَ (170) يَسْتَبْشِــرُونَ بِنِعْمَــةٍ مِنَ اللــه وَفَضْــلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِــيعُ أَجْــرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 169 - 171]

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (للصائم فرحتان فرحةٌ عند فطوره، وفرحةٌ عند لقاء ربه) [1]

ولا شك في كونه من أكثر المشـاعر تعبـيرا عن السـعادة، ولهذا يحـرص البشـر في حيـاتهم الـدنيا على محاولـة تحصـيله، وبكل الطرق الممكنـة، وإن كـان أكثرهـا من الطـرق الخاطئـة، ذلك أن الفرح الذي لا يستند إلى فضل الله، والتواضع مع اللــه، قد يتحـول إلى بطـر وزهـو، يحـزن صـاحبه بعـده ويتـألم أعظم الألم.

وقد ذكر الله تعالى بعض أنواع ذلك الفـرح الكـاذب، ومنـه الفرح بالعلم، والـذي شـغل أدعيـاءه عن الاسـتفادة من العلـوم الإلهية التي جاء بها الأنبيـاء عليهم السـلام، قـال تعـالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْـدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَـاقَ بِهِمْ

1() البخاري (7492)، مسلم (1151) 164.

مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ [غافر: 83]

ومنه فرح الاستدراج والغفلة، والذي عبر عنه قوله تعـالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُـلِّ شَـيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [الأنعام: 44]

ومنه الفرح المرتبط بالغنى والمال والجاه، والذي عبر عنه قولـه تعـالى: إِنَّ قَـارُونَ كَـانَ مِنْ قَـوْمِ مُوسَـى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَـا إِنَّ مَفَاتِحَـهُ لَتَنُـوءُ بِالْعُصْـبَةِ أُولِي الْقُـوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَـغِ فِيمَـا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِـيبَكَ مِنَ الـدُّنْيَا وَأَحْسِـنْ كَمَـا أَحْسَـنَ اللَّهُ إِلَيْـكَ وَلَا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ [القصص: 76، 77]

وقد أخبر الله تعالى أن كل أنواع الفرح الكاذب، سـتتحول إلى آلام نفسية وغصـص وكـدر واكتئـاب بمـا يتناسـب مـع ذلـك العتو والبطر والكبرياء التي كان يعيشونها أصـحاب ذلـك الفـرح في الدنيا، كما قال تعالى عن ذلك الذي ينال صـحيفته بشـماله: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَـهُ بِشِـمَالِهِ فَيَقُـولُ يَـالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَـهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَـابِيَهْ (26) يَالَيْتَهَـا كَـانَتِ الْقَاضِـيَةَ (27) مَـا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (28) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (29) [الحاقـة: 25 - 30]

وتكون مراتبهم في ذلك بحسب جرائمهم؛ أما أولئك الذين أذاقـوا المستضـعفين كـل ألـوان الآلام، فتسـببوا في قتلهم وتشريدهم وإيذائهم، فإن كل تلك الغصـص الـتي أصـابوهم بهـا تتحول إليهم أضعافا مضاعفة.

بخلاف المؤمنين الصادقين الذين امتلأوا بـالآلام في الـدنيا؛ فإن الله تعالى الشكور يعوضهم عنها في الآخـرة، ليعيشـوا في دار الفرح الدائم الذي لا حزن فيه ولا كآبة.

وهو جزاء متوافـق مـع اسـم اللـه تعـالى [الشـكور]، وهـو يعني شكر اللـه للمحسـنين من عبـاده، فالشـهداء الـذين ذاقت أجسادهم ألوان الآلام، وضحوا بأنفسهم في سبيل الله، يجازيهم الله تعالى بذلك الفرح ليعوض عن جميع أحزانهم وآلامهم.

وهكذا أخبر الله تعالى عن ذلك الرجل الصالح الـذي وقـف منتصرا لرسل الله، فقد قال الله تعـالى عنـه بعـد أن نفـذ فيـه المجرمـون أحكـامهم: قِيـلَ ادْخُـلِ الْجَنَّةَ قَـالَ يَـالَيْتَ قَـوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَـرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْـرَمِينَ [يس:

26، 27]

وهكذا أخبر عن ذلك المؤمن الـذي ينـال صـحيفته بيمينـه، فيصـيح من فرحـه الشـديد في أهـل الموقـف: ﴿هَـاؤُمُ اقْـرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة: 19، 20]

وكما أن الفرح والحزن في الدنيا يتجـدد بأسـباب مختلفـة، فقد ورد في النصوص ما يشير إلى ذلك التجدد في دار الجـزاء، حيث يحدث الله تعالى في كلا الدارين ما يتسـبب في الفـرح أو الحزن، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في الحديث من قولـه ﷺ: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجـاء بـالموت كأنـه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنـة، هـل تعرفـون هـذا؟.. فيشـرئبون، فينظـرون، ويقولـون: نعم هـذا الموت.. فيقال: يا أهـل النـار، هـل تعرفـون هـذا؟.. فيشـرئبون فينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت.. فيؤمر به، فيذبح، ويقـال: يا أهل الجنة، خلود ولا موت، ويا أهل النـار خلـود ولا مـوت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْـرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39]، ثم أشار ﷺ بيده، وقال: (أهل الدنيا في غفلة الدنيا)[1]

وفي رواية أخرى وصف رسول اللـه ﷺ فـرح أهـل الجنـة، وحزن أهل النار، فقال: (ثم ينادى: يا أهل الجنة، هو الخلود أبـد الآبدين، ويا أهل النار، هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهـل الجنـة فرحة لو كان أحد ميتا من فرح ماتوا، ويشهق أهل النـار شـهقة لو كان أحد ميتا من شهقة ماتوا)[2]

وفي رواية: (إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهـل النـار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويـا أهـل النـار لا مـوت، فـيزداد أهـل الجنة فرحا إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم)[3]

وهـذه الروايـة تـدل على أن القصـد من هـذا المشـهد هـو توفـير المزيـد من السـرور للمحسـنين، والمزيـد من الحـزن للمتألمين، وهو ما حصل بالفعل.

وذلك الفرح الذي يكرم الله تعالى به المؤمنين ليس خاصا بتلك الدار، وإنما يهب الله تعالى منه للمؤمـنين في هـذه الـدار

1() رواه البخاري (4453) ومسلم (2849)
2() رواه ابن أبي حاتم في تفسيره، تفسير ابن كثير (5/ 234)
3() رواه البخاري (6182) ومسلم (2850)

هبات منه كل حين، لتملأهم بالسعادة على الرغم من الظـروف القاسية التي قد يمرون بها.

ذلك أن مشاعر الفرح والحزن قـد تكـون بأسـباب ظـاهرة معروفة، وقد تكون من دون أسـباب؛ ذلـك أن اللـه تعـالى كمـا خلق النعم الحسـية، خلـق النعم المعنويـة، وجعـل لهـا اسـتقلالا بذاتها.

ولهـذا قـد يحـزن الشـخص ويتـألم مـع كونـه يعيش أرغـد عيش، ولهذا نسـمع عن حـالات الاكتئـاب الشـديد، بـل الانتحـار المصاحب له، من ناس ممتلئين بالرفاه، وكل ألوان النعيم، في نفس الوقت الذي نرى فيه البسطاء يمرون بالأزمـات الصـعبة، ومع ذلك نـراهم يتحملـون، بـل نجـدهم أحيانـا كثـيرة يضـحكون منشـغلين عنهـا بمـا أودع اللـه في قلـوبهم من الفـرح الـذي لا سبب له.

وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى في قولـه: ﴿وَأَنَّهُ هُـوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: 43]، أي أن الله تعالى هو مسبب هذين الانفعالين وخالقهما، ومرسلهما لمن شاء من خلقه.

وأشار إليه كـذلك قولـه تعـالى: ﴿ وَمَنْ أَعْـرَضَ عَنْ ذِكْـرِي فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَـنْكًا ﴾ [طـه: 124]، فضـنك العيش لا يعـني ضيقه الحسـي، وإنمـا يعـني الضـيق المعنـوي، والآلام النفسـية المصاحبة له.

ولهذا يذكر الحكماء الفرح الذي يعتري الصالحين عنـد كـل مرتبة تنزل فيها نفوسهم المطمئنة الراضية، كما عـبر عن ذلـك بعضهم بقوله: (الناس في الفرح بالله على أربـع طبقـات: إنمـا هـو المعطى، والمعطى، والإعطـاء، والعطـاء.. فمن النـاس من فرح بالمعطي، ومنهم من فرح بالمعطى - وهـو نفسـه - ومنهم من فرح بالإعطاء، ومنهم من فرح بالعطاء) [1]

وقال آخر: (الفرح بالطاعة على ثلاثة أقسام: قسم فرحـوا بها لما يرجون عليهـا من النعيم ويـدفعون بهـا من عذابـه الأليم فهم يـرون صـدورها من أنفسـهم لأنفسـهم لم يتـبرؤا فيهـا من حولهم وقوتهم وهم من أهل قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.. وقسم فرحوا بها من حيث أنهـا عنـوان الرضـى والقبـول وسـبب في القـرب والوصـول فهي هـدايا من الملـك الكـريم ومطايـا تحملهم إلى

1() حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 10 ص 249.

حضرة النعيم لا يرون لأنفسـهم تركـا ولا فعلا ولا قـوة ولا حـولا يـرون أنهم محمولـون بالقـدرة الأزليـة مصـرفون عن المشـيئة الأصـلية وهم من أهـل قولـه تعـالى: ﴿إِيَّاكَ نَسْـتَعِينُ﴾.. فأهـل القسم الأول: عبادتهم لله، وأهل القسم الثـاني: عبـادتهم باللـه وبقدرة الله بينهما فرق كبير.. وقسم ثـالث، فـرحهم باللـه دون شيء سواه، فـانون عن أنفسـهم، بـاقون بـربهم، فـإن ظهـرت منهم طاعة فالمنة لله، وإن ظهـرت منهم معصـية اعتـذروا للـه أدباً مع الله، لا ينقص فرحهم إن ظهرت منهم زلـة، ولا يزيـد إن ظهرت منهم طاعة أو يقظة، لأنهم بالله ولله، من أهـل لا حـول ولا قوة إلا بالله، وهم العارفون بالله) [1]

فاحرص ـ أيها المريد الصادق ـ على أن تنال هذه الموهبـة العظيمة بـالتحقق بشـروطها، وأول شـروطها ألا تقـع في ذلـك الفـرح الكـاذب الـذي امتلأ أصـحابه بـه زهـوا وغـرورا وعجبـا؛ فمنعهم من أن يقروا بالفضل لأهلـه؛ فمن فـرح الفـرح الكـاذب حجب عن الفرح الصادق.

1() إيقاظ الهمم في شرح الحكم، ج 1 ص 90.

التواصل الدائم

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [التواصل الـدائم]، وأشـير به إلى ما وردت الإشـارة إليـه في قولـه تعـالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67]، والـتي فسـرها بعضـهم بقولـه: (أي: تنقطـع في ذلـك اليـوم كـل خلـة بين المتخـالين في غـير ذات اللـه، وتنقلب عـداوة ومقتـا، إلا خلـة المتصادقين في الله، فإنها الخلة الباقية المـزدادة قـوّة إذا رأوا ثواب التحاب في الله تعالى والتباغض في الله)(1)

وهي بذلك تشير إلى مـا فُطـرت عليـه النفـوس من حبهـا للعلاقات التي تقيمها في حياتها الدنيا، ولا تتصـور أن تعيش من دونهـا؛ فاللـه تعـالى يكـرم المؤمـنين بـدوام التواصـل مـع تلـك العلاقات في الآخرة مثلما كان الأمر في الدنيا.

ومن الأمثلة على ذلك إخباره تعالى عن إلحاق اللـه تعـالى للذرية الصـالحة بآبائهـا، تكريمـا للجميـع، قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَـاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: 21]

وأخبر أن كل العائلة الصالحة تجتمـع، قـال تعـالى: ﴿جَنَّاتُ عَـــدْنٍ يَـــدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَـــلَحَ مِنْ آبَـــائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: 23]

ولهـذا لم يكتـف عبـاد الـرحمن بالـدعاء لأنفسـهم بـدخول الجنة، وإنما راحوا يطلبون أن يجتمعوا مع أسرهم جميعـا فيهـا، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا هَبْ لَنَـا مِنْ أَزْوَاجِنَـا وَذُرِّيَّاتِنَـا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]

وأخبر عن دعـاء الملائكـة عليهم السـلام لهم بهـذا، فقـال: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَـدْنٍ الَّتِي وَعَـدْتَهُمْ وَمَنْ صَـلَحَ مِنْ آبَـائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [غافر: 8]

وأخـبر بـأن ذلـك يحصـل مباشـرة بعـد الحسـاب، ليعـود المـؤمن إلى نفس أسـرته الـتي كـانت في الـدنيا، بشـرط أن يكونوا من الصالحين، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِـهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا

(1) تفسير الزمخشري، (4/ 263)

 [الانشقاق: 7 ـ 9]، وهذا يدل على أن لأهل الجنة أسرا مثلما كان لهم في الدنيا.

والأمـر لا يتوقـف على ذلـك، فقـد أخـبر اللـه تعـالى عن التواصل الحاصل بين الإخوان والأصدقاء المتساوين في الدرجة والمتشاكلين في الطباع، وهو ما عبرت عنه آيـات كثـيرة، تـذكر أن القرناء يكونون في درجة واحـدة، بنـاء على اتفـاق طبـاعهم ومـواقفهم وأنـواع جـزائهم، كمـا قـال تعـالى: وَإِذَا النُّفُـوسُ زُوِّجَتْ (التكوير:7)، وقال: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُـوا وَأَزْوَاجَهُمْ (الصافات: 22)، وقال: وَإِذَا أُلْقُـوا مِنْهَـا مَكَانـاً ضَـيِّقاً مُقَـرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً (الفرقان:13)

ولهذا يذكر القـرآن الكـريم أن العلاقـات الاجتماعيـة الـتي تقام بين أهل الجنـة أو أهـل النـار تقـام على أسـاس التشـاكل بينهم، ذلك أن كل مرتبة في الجنة أو النار تضم أصنافا معيـنين، بحسب أعمالهم ومراتبهم، كما قال تعالى: انْظُرْ كَيْـفَ فَضَّـلْنَا بَعْضَــهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِـرَةُ أَكْبَـرُ دَرَجَـاتٍ وَأَكْبَـرُ تَفْضِـيلًا [الإسراء: 21]

ولكن مع ذلك يمكن أن يرتقي الشخص إلى مرتبة أخــرى، إن كان له علاقة بها، كما قال تعالى: وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُـولَ فَأُولَئِكَ مَــــعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّــــدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا [النساء: 69]

وورد في الحديث أن رجلا جاء إلى رسول اللـه ﷺ، فقـال: يا رسول الله متى قيـام السـاعة؟ فقـام النـبي ﷺ إلى الصـلاة، فلما قضى صلاته قـال: أين السـائل عن قيـام السـاعة؟، فقـال الرجل: أنا يا رسول الله قال: ما أعددت لهـا؟ قـال: يـا رسـول اللــه مــا أعــددت لهــا كبــير صــلاة ولا صــوم إلا أني أحب اللــه ورسوله، فقال رسول اللـه ﷺ (المـرء مـع من أحب، وأنت مـع من أحببت)[1]

وبناء على هذا كله يرغب الله تعالى عباده في الجنة بــذكر تلك المجالس التي تجمع أهـل الجنـة بعضـهم ببعض، كمـا قـال تعــالى: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُـونٍ (45) ادْخُلُوهَـا بِسَـلَامٍ آمِنِينَ (46) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِـلٍّ إِخْوَانًـا عَلَى سُـرُرٍ مُتَقَابِلِينَ [الحجر: 45 - 47]

وقد علق عليهـا بعضـهم بقولـه: (إن جلسـاتهم الإجتماعيـة

1() البخاري (3688) ، ومسلم (2639)

خالية من القيود المتعبة الـتي يعـاني منهـا عالمنـا الـدنيوي، فلا طبقية ولا ترجيح بدون مرجح، والكل إخوان، يجلسون متقـابلين في صف واحد ومستوى واحد، وبطبيعـة الحـال، فهـذا لا ينـافي تفاوت مقاماتهم ودرجاتهم الحاصلة من درجة الإيمـان والتقـوى في الحيـاة الـدنيا، ولكن ذلـك التسـاوي إنمـا يرتبـط بجلسـاتهم الاجتماعية)[1]

وفي مقابل هذه العلاقات الطيبة التي تجمع بين المؤمنين، وتوحد بين قلوبهم، يذكر الله تعالى تلك القطيعة الـتي يصـادفها أولئك الذين بنوا علاقاتهم على أسس غير صـحيحة ولا شـرعية، قـال تعـالى: ﴿مَـا يَنْظُـرُونَ إِلَّا صَـيْحَةً وَاحِـدَةً تَأْخُـذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (49) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِـيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُـونَ﴾ [يس: 49، 50]

وبين سر تلـك القطيعـة في آيـات أخـرى، فقـال: ﴿ وَلَكِنْ كَـذَّبَ وَتَـوَلَّى (32) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾ [القيامـة: 32، 33]، وقـــــال: ﴿ وَإِذَا انْقَلَبُـــــوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُـــــوا فَكِهِينَ﴾ [المطففين: 31]

وهكذا ذكر الذين اتخذوا من الإخـوان والخلان من صـرفهم عن الله، وأبعـدهم عنـه، فقـال:﴿وَيَـوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْـهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَـعَ الرَّسُـولِ سَـبِيلًا (27) يَاوَيْلَتَـا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَـاءَنِي وَكَـانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27 - 29]

وقد ورد في حديث عن الإمام علي، يفسـر بعض مصـاديق هـذا المعـنى، حيث قـال: (خليلان مؤمنـان، وخليلان كـافران، فتوفي أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانـا خليلي كـان يـأمرني بطاعتـك وطاعـة رسـولك، ويـأمرني بالخير وينهاني عن الشر، وينبئـني أني ملاقيـك، اللهم فلا تضـله بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وترضى عنه كمـا رضـيت عـني. فيقال له: اذهب فلو تعلم مـا لـه عنـدي لضـحكت كثـيرا وبكيت قليلا. قـال: ثم يمـوت الآخـر، فتجتمـع أرواحهمـا، فيقـال: ليثن أحدكما على صاحبه، فيقول كل واحد منهمـا لصـاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليـل. وإذا مـات أحـد الكـافرين، وبشـر بالنـار ذكـر خليلـه فيقـول: اللهم إن خليلي فلانـا كـان يـأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشر وينهـاني عن الخـير،

(1) تفسير الأمثل - (8/ 81)

ويخبرني أني غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدي حتى تريه مثل ما أريتني، وتسخط عليه كما سخطت علي. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل)[1]

وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ ما يبين قيمة المحبة في الله، وكونها تجمع بين المؤمنين مهما اختلفت ديارهم وأزمنتهم، قال رسول الله ﷺ: (لو أن رجلين تحابا في الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذي أحببته في)[2]

وهذا الحديث لا يفهم منه فقط ما نعرفه من البعد المكاني، بل يدخل فيه أيضا البعد الزماني، حيث يلتقي المؤمنون بكل من يحبونهم من أنبياء الله ورسله والأولياء والصالحين، وكل من هفت قلوبهم محبة لهم.

ولذلك فإن مجتمع أهل الجنة مملوء بأهل العلم والتقوى والحكمة، لا كما يشيع المنحرفون، من أن الجنة محل للشهوات الحسية، لا للمعاني العقلية والروحية، وكيف تكون كذلك، وفيها الأنبياء والأولياء والصالحين والعلماء.. وكلهم يبقى بنفس اهتماماته ورغباته التي رحل بها من الدنيا.

وفضل الله تعالى ـ أيها المريد الصادق ــ على المؤمنين بذلك لا يقتصر على الآخرة، بل إنه وفر له في الدنيا كل ما يدعمه ويقويه، ولذلك يذكر الله تعالى فضله على أنبيائه والصالحين من عباده بردهم إلى أهلهم، ونجاتهم معهم، كما قال تعالى عن لوط عليه السلام: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ [الأعراف: 83]

وذكر نوحاً عليه السلام، فقال: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنبياء: 76]

وذكر أيوب عليه السلام، فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: 43]

فاحرص ــ أيها المريد الصادق ــ على أن تربط جميع علاقاتك في الدنيا بالله حتى تتصل وتدوم، فـ (ما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله انقطع وانفصل)

---

[1] تفسير عبد الرزاق (2/164)
[2] مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (27/79)

وتأس في ذلك بما كان عليه الأنبياء والصـالحون من عـدم الاكتفاء بصلاحهم، وإنما يجتهدون في إصلاح أهليهم، قال تعـالى عن إسماعيل عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 54، 55]

وأمر نبيه ﷺ أن يأمر أهله بها، فقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه:132]

الرفاه والترف

من مـواهب اللــه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، ما يمكن تسميته [الرفاه والـترف]، وأشـير به إلى ما وردت الإشارة إليـه في قولـه تعـالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَـابَ الْأَبْــرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ (18) وَمَــا أَدْرَاكَ مَــا عِلِّيُّونَ (19) كِتَــابٌ مَرْقُومٌ (20) يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (21) إِنَّ الْأَبْـرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (22) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ (23) تَعْرِفُ فِي وُجُـوهِهِمْ نَضْـرَةَ النَّعِيمِ (24) يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيـقٍ مَخْتُـومٍ (25) خِتَامُـهُ مِسْـكٌ وَفِي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَـافَسِ الْمُتَنَافِسُـونَ (26) وَمِزَاجُــهُ مِنْ تَسْـنِيمٍ (27) عَيْنًـا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 18 - 28]

وغيرها من الآيات الكريمة التي تصف الرفاه والترف الذي يعيشه أهل الجنة، وهي تنبـه إلى أن الـترف المحـرم في الـدنيا لم يكن إلا اختبارا إلهيا لعباده تربية لهم؛ فإذا ما زكت نفوســهم وطهرت حل لهم التنعم به.

ولهذا يذكر اللـه تعـالى من نعيم الجنـة الخمـر، مـع كونهـا كـانت محرمــة في الـدنيا، لأن حرمتهـا كـانت بسـبب الآفـات الموجودة فيها، وفي شاربيها، بخلاف خمر الآخرة الـتي وصـفها الله تعالى بطهارتها، وطهارة شاربيها، قال تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ [الصافات: 47]

وهكـذا ورد في النصـوص المقدسـة ذكـر إباحـة اسـتعمال الذهب حلية أو أواني أو حتى بناء القصور بهـا، لأن التحـريم في الدنيا كان مرتبطـا بحقـوق المستضـعفين والفقـراء، وليس في الجنة فقر ولا ضعف ولا حاجة.

ففي الحـديث قـال رسـول اللـه ﷺ جوابـا لمن سـأله عن الجنة ومـا بناؤهـا: (لبنـة ذهب، ولبنـة فضـة، وملاطهـا المسـك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يـدخلها! ينعم لا يبأس، ويخلد لا يموت)[1]

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (من يدخل الجنة يحيا ولا يموت، وينعم ولا يبأس، ولا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه)، قيل: يا رسـول الله كيف بناؤها؟ قال: (لبنة من ذهب ولبنة من فضـة، وملاطهـا

1() رواه أحمد 2/304 (8030)

مسك أذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران)[1]

وفي حديث آخر، قال ﷺ: (الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وترابها الزعفران، وطينها المسك)[2]

ومثل ذلك الحرير، والذي هو علامة من علامات الترف، والذي حُرم في الدنيا على الرجال، بناء على الاختبار الإلهي، ورعاية لحقوق المستضعفين، أما في الجنة؛ فإنه مباح فيها، قال تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: 12]

وهكذا؛ فإن التعالي في البنيان في الدنيا، والمبالغة في الترف محرم بسبب الاختبار الإلهي، ورعاية لحقوق المستضعفين، لكنه في الجنة موفر، مثله مثل كل رفاه آخر.

والله تعالى يذكر هذا الرفاه والترف الذي أتيح لأهل الجنة، ليدفعهم إلى الصبر والرضا، وتحمل مشاق مجاهدات التزكية، لأن الركون إلى الدنيا، يحول بين النفس وبين اكتمال تطهيرها.. بخلاف الجنة التي هي دار القرار.

ولهذا يقرن بين أولئك الذين استسلموا للترف ومقتضياته في الدنيا، وبين أولئك الذين سلموا نفوسهم لله، وامتلأوا زهدا وورعا وتضحية في سبيل الله، قال تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (19) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (20) وَلَهُمْ مَقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (21) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (22) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (23) ﴾ [الحج: 19 - 23]

فهذه الآيات الكريمة تذكر الحلي والحلل التي يرتديها المحسنون والمسيئون في دار الجزاء، والتي تتوافق تماما مع اختياراتهم التي اختاروها في الدنيا.

وهكذا يذكر الله تعالى في مشهد آخر تلك الحلل التي يرتديها المسيئيون، فيقول: ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ

1() رواه ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة والطبراني وابن مردويه، تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (6/ 2759)

2() رواه البزار، والطبراني في الأوسط، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (10/ 397)

النَّارُ ﴾ [إبراهيم: 49ـ 50]، والسرابيل هي القمصان، أو غيرها من الثياب، أو تلك التي تغطي القسم الأعلى من البدن، وبخلافها (السروال) الذي يغطي الجزء الأسفل منه.

وقد أخبر الله تعالى أنها منسوجة من (القطران)، وهي المادة السوداء المعروفة، والقابلة للاحتراق، والتي تبعث عند احتراقها رائحة كريهة.

وفي مقابل هذا يذكر الله تعالى الكثير من مشاهد الحلي والحلل لأهل الجنة، مذكرا بالأعمال التي تتطلبها، ومنها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان: 12]، حيث ربط ذلك الجزاء العظيم بالصبر.

ومثله قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (30) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: 30ـ 31]، فقد ربط الله تعالى هذا الجزاء بالعمل الحسن، وقد سيق بعد هذه الآية قصة صاحب الجنتين، وكيف كان يفخر على المؤمن المتواضع.

ومثله قوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (33) وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 33، 34]، والتي يشير دعاء المؤمنين فيها إلى المعاناة التي عانوها في الدنيا.

وهكذا يمتلئ القرآن الكريم بمشاهد الرفاه والترف والنعيم الحسي لأهل الجنة، فيذكر نقاوة جوها وصفائه، وخلوه من كل المكدرات الموجودة في الدنيا، قال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: 13]، أي أنهم لا يرون شمسا يتأذون بحرها، ولا زمهريرا يتأذون ببرده.

وهكذا ذُكرت ظلال الجنة، والتي لا تعني وجود حرارة في الجنة، وإنما تعني البعد الجمالي لها، قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾ [النساء: 57]، وقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: 35]

وهكذا ذُكرت قصورها وحورها وأنهارها ليعيش المؤمن في غاية السعادة في انتظار النعيم الذي أعد له، والذي أخبر بأنه

نتيجة لعمله.. وكلما كـان عملـه أكـثر صـلاحا، كـان نعيمـه أكـثر جودة ووفرة.

ولهــذا يفــرق اللـــه تعــالى بين نعيم أهــل اليمين ونعيم المقــربين، فقــد ورد في ســورة الواقعــة الإشــارة إلى بعض مجامعه، والتفريق بينه وبين نعيم أصحاب اليمين، قال تعالى: وَالسَّــابِقُونَ السَّــابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُــونَ (11) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (12) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (14) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (15) مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (16) يَطُــوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (17) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (18) لَا يُصَــدَّعُونَ عَنْهَــا وَلَا يُنْزِفُــونَ (19) وَفَاكِهَــةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْـتَهُونَ (21) وَحُـورٌ عِينٌ (22) كَأَمْثَـالِ اللُّؤْلُـؤِ الْمَكْنُونِ (23) جَزَاءً بِمَـا كَـانُوا يَعْمَلُـونَ (24) لَا يَسْـمَعُونَ فِيهَـا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (25) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (26) [الواقعة: 10 - 26]

وهكذا ورد في سورة الرحمن، قـال تعـالى: وَلِمَنْ خَـافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (46) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (47) ذَوَاتَا أَفْنَــانٍ (48) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (49) فِيهِمَـا عَيْنَـانِ تَجْرِيَـانِ (50) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (51) فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَـانِ (52) فَبِـأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (53) مُتَّكِئِينَ عَلَى فُـرُشٍ بَطَائِنُهَـا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَـا تُكَـذِّبَانِ (55) فِيهِنَّ قَاصِــرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَـانٌّ (56) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ (57) كَـأَنَّهُنَّ الْيَـاقُوتُ وَالْمَرْجَـانُ (58) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (59) هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَـانِ إِلَّا الْإِحْسَـانُ (60) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ [الرحمن: 46 ـ 61]، ويدل على هذا أن اللـه تعـالى قـال بعـد ذكـره لهـذا النعيم: وَمِنْ دُونِهِمَـا جَنَّتَانِ [الرحمن: 62]، أي تحتهما في الفضل، وهـذا يـدل على أن الجنة الأولى هي جنة المقربين.

وغيرها من الآيات الكريمة التي نجد عند التدبر فيها الكثـير من الفروق بين أنواع النعيم الحسي المرتبطة بأصحاب اليمين، وهؤلاء المقربين.. وهي فروق لا ترتبط فقط باللـذات الحسـية، وإنما بما تختزن من لذات معنوية أشـرف وأعظم.. وقـد ذكرنـا سـابقا امـتزاج النعيم الحسـي في الجنـة بـالنعيم المعنـوي.. فكلاهما يهدفان إلى التعريف بالله، والتواصل معه.

ومـا أشـار إليـه القـرآن الكـريم من أنـواع النعيم الحسـي

المرتبـط بهم مجـرد نمـاذج، لأن النعيم الحقيقي المهيـأ لهم لا يمكن وصـفه، وقـد ورد في الحـديث أن موسـى عليـه السـلام سأل ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة أجابه، لكن عندما سأله عن أعلاهم منزلة قال:(أولئك الذين أردت غرسـت كـرامتهم بيـدي، وختمت عليها، فلم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر)[1]

وفي الحديث القدسـي الجليـل قـال ﷺ:(قـال اللّـه تعـالى أعددت لعبادي الصـالحين مـا لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشر) [2]

ولهـذا عنـدما ذكـر اللـه هـؤلاء المقـربين العـارفين بـربهم الساجدين بكل كيـانهم لـه، فقـال ﴿إِنَّمَـا يُـؤْمِنُ بِآيَاتِنَـا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَـبَّحُوا بِحَمْـدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْـتَكْبِرُونَ (15) تَتَجَافَى جُنُـوبُهُمْ عَنِ الْمَضَـاجِعِ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًـا وَطَمَعًـا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: 15ـ 16] ذكر بعدها مـا أعـد لهم من النعيم، فقـال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَـا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُـرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]

فاجتهد ـ أيهـا المريـد الصـادق ـ لأن تكـون من المقـربين لتنـال السـعادة بكـل جوانبهـا الحسـية والمعنويـة، ﴿وَفِي ذَلِـكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: 26]

1() رواه مسلم (1/120و 121)

2() رواه البخاري، 1/32، ومسلم، 3/1.

السعادة الحقيقية

من مـواهب اللـه تعـالى لعبـاده لتحفـيزهم للسـير إليـه، وإعانتهم على ذلك، مـا يمكن تسـميته [السـعادة الحقيقيـة][1]، وأشير بها إلى تلك الغاية العظمى التي من قصـر في معرفتهـا، أو تاه عنها، ابتلي بالشقاء، وعاش محروما من أفضـل مـا خلـق الله من النعم على عباده.

ولذلك كان العلم بهـا ليس مسـتحبا ولا فرضـا فقـط.. بـل كان من الضرورات التي تميز العقلاء عن غيرهم.. فالعاقـل هـو الـذي يبحث عن السـعادة في محلهـا الصـحيح، حـتى لا تسـلبه الشياطين عن نفسه؛ فتسقيه السموم المغلفة بغلاف السعادة، فيعيش شقيا، وإن ظن أو توهم أنه سعيد.

والأمر في ذلك يشبه تلك المخدرات التي يتناولها المـدمن عليها؛ فيشعر للحظات بنشـوتها ولـذتها، ويعيش بعض السـعادة بتلك النشوة، لكن سمومها سرعان ما ترتد عليـه، فيتحـول إلى شقاء عظيم لا يكاد يفلت منه إلا بتزويد جرعات السم.. وتزويـد جرعات الشقاء.

والأمر ليس قاصرا على المخدرات، بـل على كـل الـذنوب والمعاصي التي لا دور لها سوى حجب حقيقة الإنسان عن قبلـة السعادة الأبدية؛ فيعيش بعض لحظات الـوهم، ثم يشـقى بعـده الشقاء الذي لا يمكن لذاته تحمله.

وحتى تسـتوعب هـذا ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ فـاعلم أن حقيقة الإنسـان هي روحـه، لا جسـده، فاللـه مـا خلـق لنـا هـذا الجسـد الـذي نعيش بـه على هـذه الأرض إلا لفـترة محـدودة، ولضرورة الابتلاء، فلذلك كان معرّضا لكل ألوان البلاء والفساد.. ونهاية البلاء هي تحوله إلى حالة لا يصلح معها لاستعمال الـروح له.. وحينها يعود الإنسان من جديد إلى حقيقته المجردة.

فإن انشغل الإنسان بهذا الجسد، وراح يعطيه كل همومـه، ويقضي له كـل مآربـه، وتـاه عن روحـه، وعن متطلباتهـا، شـعر بألوان من المشاعر.. بعضـها يشـبه النشـوة الوقتيـة المحـدودة الـتي قـد يسـميها سـعادة.. وبعضـها الآخـر يشـبه الألم العظيم،

---

[1] () نقلنـا هـذا المقـال كـاملا من كتـاب [هكـذا تكلم لقمـان] من سلسـلة [رسـائل السلام]، لأنا وجدناه وافيا بالغرض.

والوحشة الشديدة التي يحاول سترها بالمزيد من جرعات النشوة المحدودة.

أما الأولى، فسبب لذتها ونشوتها هو كون السموم التي يتجرعها صاحبها ليست سموما مجردة، وإنما هي سموم تشبه السم المختلط بالعسل؛ فهو ـ عند تناوله ـ لذيذ مثله مثل سائر العسل.. لكن عمله في الجسم لا يختلف عن عمل السموم..

وقد عبر القرآن الكريم عن تلك النشوة بكونها مجرد تزيين لضرورة الابتلاء، فمن انشغل بالتزيين والنشوة المرتبطة به سقط في بحر الشقاء، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل: 4]، ثم بين المصير الذي يصيرون إليه بعد زوال ذلك التزيين ونشوته، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ [النمل: 5]

وسر ذلك يعود إلى أن أولئك الذي شقوا بعد سعادتهم، عاشوا حياتهم يطعمون أجسادهم، ويغفلون عن أرواحهم، ولذلك عندما تزول أجسادهم عنهم، ومعها كل تلك الارتباطات التي عقدوها مع البيئة التي عاشوا فيها، يشعرون بالشقاء والألم، لأنهم يقدمون على عالم جديد، لم يهيئوا له أنفسهم.

وأما الثانية.. فسببها أنه عند انطفاء تلك اللذة الوقتية، وعودة الإنسان إلى حقيقته، يشعر أن ما كان يتوهمه من سعادة، لم يكن حقيقة، وإنما كان سرابا، أو كذبة كبيرة كذبها على نفسه، أو خدعة كبيرة وقع فيها.

وهنا يفترق العقلاء.. فالذين يدركون ذلك، يتركون الأوهام والسراب، ويبحثون عن الحقائق.. وأما غيرهم، وما أكثرهم، فيذهبون إلى السراب يستزيدون منه، وهم يتوهمون أنه قد يتحول إلى ماء.. ولن يتحول أبدا.

ولعل أحسن الأمثلة على ذلك، ما ذكره بعض العلماء الذين أتيحت له كل أسباب الجاه والسلطان.. لكنه شعر بعد فترة أن هذا الطريق، وإن كان لذيذا، لكن لذته وقتية ومحدودة، وقد تنتهي به إلى الشقاء الأبدي؛ فلذلك راح يستعمل كل الوسائل في الحصول على السعادة الحقيقية إلى أن وجدها.

لقد عبر عن نفسه، فقال: (كان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن

الهـوى، وأن رأس ذلـك كلـه، قطـع علاقـة القلب عن الـدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنـه الهمة على الله تعالى. وأن ذلـك لا يتم إلا بـالإعراض عن الجـاه والمـال، والهـرب من الشـواغل والعلائـق. ثم لاحظت أحـوالي، فـإذا أنـا منغمس في العلائـق، وقـد أحـدقت بي من الجـوانب، ولاحظت أعمالي - وأحسـنها التـدريس والتعليم - فـإذا أنـا فيهـا مقبل على علوم غير مهمـة، ولا نافعـة في طريـق الآخـرة.. ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصـة لوجـه اللـه تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فـتيقنت أني على شفا جـرف هـار، وأني قـد أشـفيت على النـار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال) [1]

وبعد ذلـك التفكـير قـرر بـأن يسـلك السـبيل الـذي تطلبـه السـعادة الحقيقيـة، ولـو بـالتخلي عن السـبل الـتي تحققهـا السعادة الوهمية، وقد حقق الله له ما أراد، فوصل إلى كـل مـا يبتغيـه من تلـك السـعادة، ولم يخسـر معهـا تلـك السـعادة المحدودة المؤقتة، لأن الله تعالى بكرمه، يعوض عبـاده كـل مـا تركه من أجله.

وهكذا ـ أيها المريد الصادق ـ فعـل أولئـك السـحرة الـذين ذكرهم القـرآن الكـريم؛ فقـد كـانوا يعيشـون في بلاط فرعـون منعمين بكل أنواع النعيم الحسـي، لكنهم عنـدما اكتشـفوا منبـع السعادة الحقيقية الدائمـة هرعـوا إليهـا، وتركـوا تلـك السـموم التي كانوا يتناولونها.

وهكـذا فعـل كـل أتبـاع الأنبيـاء الـذين نشـروا بالمناشـير، وعلقت رؤوسـهم على الرمـاح، وصـلبت أجسـادهم على الصـلبان.. نعم ربمـا يكونـون قـد فقـدوا بعض نشـوة الجسـد.. لكنهم نعموا بالسـعادة الأبديـة، تلـك الـتي وصـفها اللـه تعـالى، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتًـا بَـلْ أَحْيَـاءٌ عِنْـدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُـونَ (169) فَـرِحِينَ بِمَـا آتَـاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْـلِهِ وَيَسْتَبْشِـرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُـوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (170) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَـةٍ مِنَ اللـه وَفَضْـلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 169 - 171]

قـارن هـؤلاء ــ أيهـا المريـد الصـادق ــ بأولئـك الـذين استعجلوا.. فراحوا يتوهمون أن السعادة في تلك الأمـوال الـتي

[1] المنقذ من الضلال (ص: 173)

يكسبونها، أو القصور التي يبنونهـا، أو اللـذات الـتي يتجرعونهـا، والتي سرعان ما يرتد عليهم سمها، ليسقيهم كل ألوان الشقاء.

لقـد ذكـر اللـه تعـالى ذلـك، ليكـون عـبرة للعقلاء، فقـال: ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (205) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَـدُونَ (206) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: 205 ـ 207]

فتلك المتع المحدودة التي تمتعـوا بهـا لسـنين معـدودة، لا تفيـدهم شـيئا، ولا تغـني عنهم عنـدما يعـودون إلى حقيقتهم، فيجدونها مملوءة بالكدورات، ومستعدة لكل ألوان العذاب.

لا تحسب ـ أيها المريد الصادق ــ أن العـذاب الـذي يسـلط عليهم يكون من طرف خارجي.. كلا.. بل إن أرواحهم هي الـتي تعذب.. لأن الروح نفخة من اللـه.. وهي لا تسـعد إلا بلقـاء اللـه والتواصـل معـه ومعرفتـه.. فمن حـرم روحـه من هـذه النعمـة العظمى، والسعادة الكبرى، شقيت في الدنيا قبل الآخرة.

بل إنك لو تأملت كل مطالب أولئك الغافلين لوجـدتها أنهم في حقيقتهم يبحثون عن الله.. ولكنهم يتيهون عنه بتلك الأصنام التي يعبدونها من دونه..

فهم يبحثون عن الخلود الأبدي.. وليس ذلك إلا لله، وبالله، ومع الله.. فكل ما عداه وهم وسراب.. وهم يبحثون عن الراحة والسلام والطمأنينة، وليس ذلك إلا في صحبة الله..

وهكذا، فإنك لو تأملت كل شيء وجدته عند اللـه.. ولـذلك كـانت السـعادة في أن تكـون مـع اللـه، وفي كـل الأوقـات والأحوال.

وقد روي أن معروفا الكرخي سئل عن الهمة الـتي دفعتـه إلى الإرادة والمجاهدة والتبتل، فسكت معروف، ليترك للسـائل مجالا للتخمين، قال السائل: ذكر المـوت، فقـال معـروف: وأي شيء المـوت؟ فقـال: ذكـر القـبر والـبرزخ، فقـال: وأي شـيء القبر؟ فقال: خوف النار ورجاء الجنة، فقال: (وأي شـيء هـذا؟ إن ملكاً هذا كله بيده إن أحببتـه أنسـاك جميـع ذلـك وإن كـانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا)

لقد ذكـر اللـه تعالى ذلـك، وبشـر بـه، فقـال: ﴿مَنْ عَمِـلَ صَــالِحًا مِنْ ذَكَــرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُــوَ مُــؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَــاةً طَيِّبَــةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 97]

وذكـر الطمأنينـة الـتي يجـدها المؤمنـون في صـحبة اللـه، فقـال: ﴿الَّذِينَ آمَنُـوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُـوبُهُمْ بِـذِكْرِ اللـه أَلَا بِـذِكْرِ اللـه

تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]

وذكر المصير السعيد الذي يصيرون إليه، فقال مبينا ما تقوله الملائكة للنفوس التي عاشت في صحبة الله: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: 27 - 30]

هذه ـ أيها المريد الصادق ـ هي السعادة الحقيقية.. وهي سعادة عبر عنها كل من وجدها وذاقها.. ومما يدلك على كونها الأكمل أن أكثر من ذاقوا هذا النوع من السعادة ذاقوا قبلها تلك السعادة الوهمية، وقد تبين لهم مدى الفرق الكبير بينهما؛ فلا سعادة إلا مع الله وفي صحبة الله.

هذا الكتاب

يحاول هذا الكتاب ذكر ما ورد في النصوص المقدسة من مواهب الله تعالى للصالحين الذين جاهدوا نفوسهم في ذات الله إلى أن استقامت لهم، وصلحت، وصارت محلا لكل أنواع الكرامة والفضل.

وذلك لتحفيز السائرين والسالكين إلى الله بما يعينهم على المجاهدات التي يتطلبها السلوك، وهو منهج قرآني ونبوي في استعمال الترغيب والترهيب كوسائل للتزكية والترقية.

وقد جمعنا فيه كل أصناف الترغيبات الإلهية سواء تلك التي توصف بكونها معنوية وروحية، أو تلك التي توصف بكونها حسية ومرتبطة بالرغبات والغرائز البشرية.

ذلك أن الله تعالى رب الحس والمعنى، والظاهر والباطن، وقد استعمل كليهما في ترغيب عباده في السير إليه، ولو خالفنا ذلك، أو احترقنا بعض ما ذكره، نكون من المبدلين والمغيرين.

وهو ما حصل للأسف في التراث الإسلامي المرتبط بهذه الجوانب، حيث احتقر بعضهم ـ بسبب فهمه الخاطئ لما ورد في الإخلاص والتجريد ـ كل ذلك النعيم الحسي الذي رغب الله تعالى فيه عباده، مع كونه مذكورا في القرآن الكريم، ولجميع الصالحين سواء كانوا من المقربين أو غيرهم.

وهذا خلاف المنهج القرآني، وخلاف ما تقتضيه الفطرة السليمة؛ ففرق كبير بين أن نعبد الله لله، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: 29]، وبين أن نطمع في فضله وكرمه وجوده الحسي والمعنوي.